بومة بربرة

عبد الجبار عدوان

بومة بربرة

روايـــة

دار الفارابي

الكتاب: بومة بربرة
المؤلف: عبد الجبار عدوان
لوحة الغلاف: نورا عدوان ـ برلين

الناشر: **دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان**
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2010
ISBN: 978-9953-71-585-8

© جميع الحقوق محفوظة

لمزيد من المعلومات والصور
www.alrawiadwan.com

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

إلى
أميرة
فاطمة
حسين

شكر وتقدير

كل الشكر والود للَّذين ولدوا وترعرعوا في بربرة، ولم يتردّدوا في إغناء الرواية بالتفاصيل والخصوصيات. وبالغ الاحترام للَّذين قدّموا شهادات مطوَّلة لاستكمال هذه الرواية أمثال:

أبو غازي الشريف، أطال الله عمره.

عبد الله حسين عدوان، أطال الله عمره.

ليلى عبد القادر، أطال الله عمرها.

زينب حمودة، رحمها الله.

أميرة حمودة، رحمها الله.

فاطمة ذيب، رحمها الله.

خديجة ابراهيم، رحمها الله.

مقدمة

في هذه الرواية، وبعد فصلها الأول، سنعايش حياة سكان قرية فلسطينية جنوبية في الزمن الذي يؤرخ لنهاية العهد العثماني وبداية الانتداب البريطاني، سنعايش الأفراح، الأتراح، المواسم، الأولياء، العفاريت، بالإضافة إلى صراعات القبائل والاختلافات العائلية ومشاكل زواج البدل والزواج المبكِّر. سوف نتابع مع البربراوية أيضاً الرؤية الفلسطينية آنذاك لمجريات السياسة اليومية، هجرة اليهود، بيع الأراضي، بناء الكبانيات، مشاريع التقسيم المتتالية، والمواقف العربية والعالمية وسياسة بريطانيا، وبالطبع الصراعات بين القيادات الوطنية، ذلك المرض المستعصي.

أجداد عاشوا في العهد التركي، وأبناء تبلور وعيهم في معمعة الانتداب البريطاني وتسرَّب الوطن من بين أصابعهم، وأحفاد أصبحوا أجداداً وهم في المنفى ينتظرون تحقيق حلم العودة إلى بربرة التي لم يعد قائماً فيها الآن سوى البناء المدرسي. فكيف كان الأصل، وكيف صار الفرع، وكيف أصبحت الصورة؟

السؤال لا يخص أهالي بربرة فقط، وإنما كل الذين كانوا، ولا يزالون، جزءاً من ذلك الجرح المتّسع يومياً، والنازف في كل الاتجاهات منذ ما قبل النكبة وحتى اليوم. جرح كالبركان الذي لا يخمد، والذي لا تتوقف حممه عن التدحرج والانفجار.

فهل تغيَّرت الأحوال.. هل يمكن أن تتغيَّر؟ الرواية لا تطرح

إجابات مباشرة، ولكنها تصف ما كان عليه الحال في المراحل المتتالية معيشياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً، وعلى القارئ، إن أراد، أن يراقب يومه وأمسه وزمانه ومكانه، ليقارن ويستنتج الإجابات إذا كان الوضع الآن قد تغير عما ترسمه الرواية، وفي أي اتجاه، وإذا كانت الفجوات قد ضاقت أو اتّسعت.

هذه الرواية حقيقية، وقد نسجت خيوطها، من ذكريات ومذكرات، إكراماً لأبطالها الذين انتقل معظمهم إلى الرفيق الأعلى، وحفاظاً على صورة قرية عزيزة أزالت الجرافات معالمها عن الأرض، وتوجب أن نحميها، ونحفظها في العقول والقلوب، بكل أبعادها وتفاصيلها، كي نورثها للأجيال.

الأندلس. ملقا. أيار/ مايو 2007
الأردن. جرش. أيلول/ سبتمبر 2009

فقلْ لجديد العيش..

"أنظروا أنظروا إلى هذه الفتاة"، قالت لنا وهي تشير بيدها باتجاه فتاة رشيقة تسير مسرعة مثل معظم مستعملي مطار جاتوك في لندن، وأكملت: "كنت مثلها تماماً وأنا في مثل سنّها". ألقيت نظرة سريعة على الحضور، وخصوصاً على عندليب التي ارتفع حاجباها استغراباً وكادت تفقد السيطرة على فنجان القهوة. تابعت عيناي الفتاة لأتأمل كيف كانت أمي وهي في سن لم يتجاوز العشرين. بيضاء اللون، كما تسميه هي، ولكنه أقرب للون القمح، وشعر فاحم السواد منسدل حتى الكتفين في تجعدات والتواءات قوية أعرف مدى صعوبة غسله وتمشيطه بحسب تجربتي مع ابنتي ليلى، التي ورثت هذا الشعر عن جدتها، وهو طراز الشعر ذاته الذي كان يأخذ الكثير من وقت أمي أيضاً، وهي تمشّطه بعد كل استحمام، وفي كل صباح، ولم تفكر يوماً في التخلص من المعاناة بتقصيره، وهي التي لم تعرف قدماها يوماً طريقاً إلى مصفّف للشَّعر.

"لكن بدون بنطلون يا أمي" قالت عندليب، وضحكت ابنتها بيسان وزوجتي جريس، وليلى وأختها نورا اللتان كانتا معنا لتوديع الجدة والعمة. كانت الفتاه قد اختفت بين زحمة روّاد المطار، وتمنيت لو رأيت وجهها، الذي شاهدته أمي وهي مقبلة نحونا فخرجت عن هدوء ساعة الوداع وحزنها، فبدت وكأنها ترى وجهها في المرأة قبل خمسة عقود. وعندما نبّهتنا إلى هذا التشابه لم تكن

أمامنا سوى لحظات لمتابعة الفتاة من الخلف وهي تضيع وسط الزحام.

إنَّ أبعد مدى يمكّنني من أن أتذكّر ملامح أمي هو عندما كنت في الرابعة من عمري، ولولا حرب السويس وخوفي من هدير الطائرات وأزيز الرصاص والإرهاب الذي حلَّ داخل بيوتنا، لولا ذلك لما انحفرت صور ذلك الزمان في ذهني. كان عمرها آنذاك ثلاثين عاماً، وقد أنجبت عائشة قبل الهجرة من قريتنا بربرة، وفي عام الهجرة أنجبت هيجر التي يقال إنها كانت جميلة وذكية، ولكنها عمَّرت عامين ونصفاً فقط. لقد توقّف الإنجاب بفعل ظروف الاغتراب القسري ونتائجه، ثم حملت بتوأم بنات توفاهما الله خلال اليوم الأول من ميلادهما، فدفنهما والدي في صندوق، هو عبارة عن صحّارة خشبية، في مقبرة رفح الجديدة آنذاك. كان، رحمه الله، يريد استعادتهما في الصحارة من القبر ليأخذهما معه، ويدفنهما في بربرة عند العودة إلى فلسطين. بعدها جاء دوري إلى الحياة، وكان ذلك قبل ثورة الضباط الأحرار في مصر بأربعة أشهر.

أتذكرها رشيقة في ذلك الزمن الصعب، ولا أحتاج إلى الصّوَر الفوتوغرافية كي أستعيد صورتها في الستينيات، فقد كانت ممتلئة ونشطة تغطي شعرها بمنديل أبيض طويل كلما خرجت إلى السوق. كانت تلبس ثوباً تقليدياً طويلاً مطرزاً خارج البيت، أو فستاناً بنصف كمّ مفتوحاً على الصدر داخل البيت. لكنها الآن، وأنا أودعها للمرة الأخيرة في مطار جاتويك فقد فاقت السبعين من العمر، طويلة وثقيلة ولديها مشاكل في الركبتين وحصوات في المرارة تعجّب الأطباء وهم ينظرون إلى حجمها، ورفضوا تحمل مسؤولية تفتيتها بالليزر أو إجراء عملية لإزالتها. يبدو عليها الإرهاق وعبء الزمن ونتائج الحمل والولادة لدستة من المرات. في زيارتها

هذه إلى بريطانيا رافقتها أختي عندليب وابنتها بيسان، لكن رحلتها الأولى في العام الأسبق كانت رواية.

أوصيتها آنذاك أن لا تتحرك، وأن تبقى جالسةً على كرسيِّها بعد الهبوط، وأكدت لها أنَّ موظفين سيأتون إليها بكرسي متحرك لإيصالها إلى حيث تريد من دون أن ترهق نفسها. لم تلتزم بما قلته، بل أغواها مسافر يهودي، كما قالت لاحقاً. "جلس جنبي منذ ركبنا الطائرة في تل أبيب، لا هو يفهم عربي ولا أنا أعرف كلمة عبراني أو إنجليزي". أمي يرحمها الله كانت أمّية قراءة وكتابة، ولكنها تفهم بالإشارة. "عندما هبطنا في المطار وخرج الركاب مدّ يده ليساعدني، فقلت أمشي معه". لو كان لديها أي تصوّر عن حجم المطار والمسافة التي يتوجب عليها أن تقطعها، والإجراءات المتّبعة كي تصل إلى حيث أنا موجود لما نجح اليهودي في إقناعها، لكني شعرت من حديثها أنها تخوّفت عندما غادر الجميع الطائرة قبل أن يأتي أحد لملاقاتها. "بعد قليل" يعني على الأكثر مائة متر "توقفت أنا ورطن هو بأشياء لم أفهمها، يبدو أنه أراد أن يسندني، ولكني أشرت إليه أن يتوكّل على الله" قالت أمي. لا أدري لماذا احتاجت سلطات المطار إلى ساعتين حتى عثروا على الوالدة فأحضروها حيث كنت في انتظارها بعد اتصالات لم تتوقف طوال الوقت.

"كيف سلّكتِ حالك مع شرطة الجوازات؟".

"فتحت المحفظة وقدّمتها له ليختار ما يشاء من الأوراق. كان يتحدث طوال الوقت بالإنجليزي وأنا أهزّ رأسي بالموافقة، ثم فهم وختم الجواز وأعاد كل شيء إلى مكانه وأنا على العربة. وعرفوا أين شنطي وحملوها وخرجنا". وعندما وصلت إلى حيث أنتظرها،

بقيت هي داخل العربة، فصعدنا إلى جانبها حتى وصلنا إلى جانب سيارتنا المركونة داخل الكراج.

"وفي مطار تل أبيب، كيف كانت المعاملة؟".

"يعني يفهموا عربي شوية هناك. فتّشوا الشنطة تماماً، وسألني أحدهم عن الأرجيلة، فقلت له إنها هدية لابني. وعندما فتح صرّة الملوخية الناشفة صار يضحك وقال: ها ها هذي حشيشة، رايحة تكيفي في لندن. صار يشم فيها وأنا أقول له ملوخية وأشير إليه بالأيدي إنها للأكل. كان فاهم بس هو ابن حرام. الله يسامحه".

طلبت الوالدة مني، أثناء تلك الرحلة، أن أعمل على تأمين ركبتين جديدتين لها؛ فهي كانت تتابع الأخبار الطبية وأشياء أخرى مثل الأوضاع الاجتماعية والمعيشية، كذلك أخبرتني ذات مرّة عن عرب القدس الذين يقبضون تأمينات اجتماعية شهرية، لكنني لم أخبرها عن حجم الضرائب المفروضة عليهم وكونها تفوق ما يدفعه اليهود. أكّدت لي أنها سمعت باحتمال تغيير الركب، وأن هذا هو طلبها مني، ولم يكن بوسعي سوى أن أقول لها، طلباتك أوامر، والله يسهّل. لذلك أجريت بعض الاتصالات وتوصلت إلى عنوان أفضل مختص في هذا الشأن فحدَّد لنا موعداً بعد أسبوع.

"ما رأيك يا أمي لو عملت ريجيم لأن الركب القديمة أو الجديدة تعمل أحسن تحت وزن أخف؟". وافقت فوراً، وأخذت أشرح لها المطلوب وضرورة الصمود، وقررت أن أتضامن معها باتّباع ريجيم أيضاً. في اليوم التالي وبين وجبتَيْ الغداء والعشاء نادتني فأجبت فوراً.

"أنا جعانة يا ولدي"، فأنهيت الريجيم ووبّخت نفسي كيف تجوع أمي في بيتي، وتأسفت لذلك كثيراً. لقد كنت أحاول تحفيظها آيات جديدة من القرآن، وفي تلك الليلة أردت التكفير عن ذنب

تجويعها، فلم أشغّل المسجل على الشيخ عبد الباسط ولكني بقيت إلى جانبها أقرأ القرآن حتى نامت، أو تظاهرت بالنوم؛ فأنا لم أتأكد في حياتي أنها نامت بعمق. وكانت كلما نادى عليها الوالد أو أحد أخوتي وأخواتي العشرة تردّ وهي نائمة، وإذا أخذت أحدنا نوبة سعالٍ أو عطس مرتين تكون عند رأسه، وإذا ظنّت أن أحدنا يعاني من أحلام مزعجة كانت تسقيه من طاسة الطربة لإبعاد الخوف عنه. لم أخبرها أبداً أنني كنت أحلم بتماسيح تسير فوق جدار بيتنا ونحن محاصرون في العريشة لا نجرؤ على الوصول إلى باب المنزل كي نهرب، لكني كنت أحدثها بأحلامي في الطيران عن سطح الأرض كلّما ركضت. أحياناً كنت أتحكّم في القدرة على الهبوط والتحليق، وأحياناً أخرى أحلّق مع الركض ولا أتحكم في الهبوط. كانت تسألني إذا كنت أحلم بتسمّر قدميَّ في الأرض حين تفرض الظروف عليّ الهرب لأنّ ذلك كان أحد أحلامها المزعجة.

(حلمي المتكرر بالتحليق شجعني على تعلم الطيران بالفعل وامتلاك رخصة قيادة خاصة. ورعب التسمر هذا انتابني للحظات أثناء الامتحان. وأثناء تعلم الطيران فوجئت بالمدرب يطلب مني التوقف على المدرج بعد الهبوط. فتح الباب وقال وهو يغادر الطائرة ذات المحرك الواحد: "ستقلع وحدك في أول اختبار، لا تبالغ، حلق جولة واحدة حول المطار واهبط كما تفعل دوماً ونحن سوياً". كنت أتشوق إلى ذلك اليوم وأسأل عنه حتى مللت. أقلعت ودرت حول المطار ثم استدرت باتجاه الخط النهائي. لم يكن الممر في مكانه، فركت عينيَ ولم أره، نفضت رأسي وكدت اتصل ببرج المراقبة، ولكني خشيت من الفضيحة، لأن الاتصالات يسمعها كل من هم في المطار من متدربين ومدرسين وزوار. قلت لنفسي والطائرة تقترب من الأرض إنني فعلت كل شيء كالعادة،

وإذا لم أجده عند التحليق على ارتفاع سبعين متراً سأعود للصعود في دورة أخرى. وكما غاب من دون مبرر عاد المدرج إلى مكانه في الأسفل بعد أن زالت حالة التسمر الذهني من دون رجعة).

"جسم الإنسان مثل السيارة". قال الطبيب بينما والدتي تتأمل في غرفته المليئة بالأشياء الشرقية، نحاسيات وجمل من الجلد كبير نسبياً وبردعة حمار إضاقة إلى بعض المجلات والصحف. ترجمت لها كلام الطبيب، فسألته مباشرة إذا كان ابن عرب، نظر إليَّ فترجمت له السؤال. نفى بتحريك رأسه، ثم واصل حديثه وهما ينظران إلى بعضهما بعضاً وما عليَّ سوى الترجمة. "السيارة الجديدة يمكن أن نغيّر لها قطعة بدل أخرى". قرأت في وجه أمي أنها فهمت قصده، فقلت له على الفور إن التكلفة لا تهم مهما كانت. "لا علاقة للتكلفة فيما أقوله بتغيير الركب، ولكن الجسم كله في مثل هذا السن منهك والركب الجديدة تحتاج إلى أعضاء نشطة وقوية لتساعد على التوازن ككل". أضاف الطبيب المختص بما كنت أظن أننا سوف نسمعه، ولم أخبر أمي به قبل ذلك حتى لا تشك للحظة أنني أتهرب: "يعني امرأة شابة أو طفل يحصل له حادث يتطلب ركبة جديدة، هذه أمور ممكنة، والتطورات الطبية تتيح ذلك، لكن في وضعك فهذا صعب". ثم أخذ يسألها عما بها من أمراض أخرى ليذكرها، أو لتذكر نفسها بحالة الجسد. شرحت له عن السكّر، والحصى في المرارة وفي المثانة وإحدى الكليتين، وبعض الضعف في النظر. ودّعنا الطبيب بالمصافحة وأسندها هو حتى باب الغرفة. في الطريق إلى المنزل أردت إعادة ما قاله ربما لأُذكر نفسي بما دار، ولكنها أكدت عدم الحاجة إلى الشرح فقد فهمت كل شيء والطبيب صادق، وسألتني إذا كنت لاحظت أنه

يهودي. تأسّفت لها لأنني لم أعرف دينه من اسمه سلفاً، فقالت ضاحكة إنهم أشطر ناس، وطالما أنه هنا وليس هناك فخير وبركة.

***

"هل تعرفين اللغة التركية يا أمي؟" أنكرت بالطبع، وبدلاً من أن تتعجب من سؤالي ذكّرتني أنها ولدت في عهد الانتداب البريطاني، وبالتحديد بعد عشر سنوات من نهاية الإمبراطورية العثمانية ووجودها في فلسطين. وقالت إنها لم تدخل إلى مدرسة بربرة مثل أخوتها، لا هي ولا أي بنت أخرى. ولو كان أبوها أدخلها المدرسة لأصبحت مفتشة تربية وتعليم مثل أخيها الأصغر، حسن. ثم ذكرت أسماء بعض الرجال الذين تزوّجوا من تركيات في بربرة. لم تلحظ أنني سألتها لسبب بعيد عن تأثير الامبراطوريات أو عدمه على الناس كونها إدارات متتالية ومتشابهة. فقد جلسنا بعد العشاء نشاهد على قناة تلفزيون ألمانية فيلماً تركياً بلغته الأصلية ولكنه مترجم إلى الألمانية. وطالما أن أمي لا تقرأ لغة ألمانية ولا تفهم اللغة التركية، فكيف عرفت بما يدور في الفيلم؟ بل أخبرتني مراراً بما سيحدث بعد قليل، وكان حدسها يصدق تماماً.

قصة الفيلم تتحدث عن رجل تزوج من أخرى لأنّ زوجته كانت قليلة الإنجاب، فحملت الثانية بمولودة أنثى. وأخذت أمي تتوقع الأحداث: الآن سيعود إلى الأولى، سيقلّل من زيارة الزوجة الجديدة، ها هي قد حملت مرة أخرى وسيراقب زوجها الأمر وكأنه غير معني حتى يرى ماذا ستنجب ولداً أم بنتاً. وكأن التركي، أو المخرج، يفعل ما تمليه عليه أمي. وعندما يحين موعد الإعلانات الطويلة نسبياً كانت تبعد ناظريها عن الشاشة، أو تبدي الاستغراب مما ترى، ثم أصبحت مع بداية الفترة الإعلانية تستفيد

من الوقت لقضاء حاجات أخرى؛ مرّة إلى الحمام، وأخرى إلى المطبخ لتناول بعض الفاكهة، إذ يبدو أنها قررت طوعاً الالتزام بنصف ريجيم. كان الفيلم يحكي بعضاً من تجربتها مع "أبوك" كما كانت تذكره أمامي، أو "المختار" كما تسميه أمام الآخرين، أو كما كانت تناديه. ولكنها لم تكن تناديه أبداً باسمه الفعلي، حسين ابراهيم. زوجة أبي الأولى أنجبت بضعة صبيان لم يعمّروا طويلاً، وكان أخي الأكبر الذي صمد أمام الموت ضعيفاً جسدياً، وتخوّف المختار من انقطاع نسله وضياع أملاكه التي اشتراها بعد أن بنى نفسه من عامل تشييد طرقات حتى أصبح مختار القرية. هكذا تزوّج بنت النجار وهي في سن الخامسة عشرة، فإذا بخالتي، الزوجة الأولى، تنجنب عبد الرحمن بعد عبدالله، وسيكون ثالثهم أخي خضر الذي يقارب في السن أختي عائشة؛ إنه من مواليد النكبة في الخيام الأولى، وهي من مواليد بربرة.

(نحتاج هنا إلى وقفة سريعة لتبيان أن الزوجة الأخرى في المجتمع الفلسطيني تُسمى الخالة بالنسبة لأبناء الضرّة. ليست زوجة أب أو فلانة، ولكنها تأخذ صفة أخت الأم. ومع تسجيل احترامي التام لخالتي وعلاقتي الممتازة معها، إلّا أنَّ هذه التسمية مليئة بالدجل والنفاق ولا أعرف أو أسمع عن ضرّتين تعايشتا كأختين. الأخوة يتآخون ولكن الأمهات يعقدن هدنة مؤقتة بين الحين والآخر).

في زيارتها الأولى لم تكن الوالدة تعلم ما إذا كانت تفضِّل البقاء عندنا في مقاطعة كنت جنوب شرق إنجلترا، أم أنها تحبذ العودة إلى قطاع غزة حيث ثلاث من بناتها وخمسة من أولادها وأعداد غفيرة من الأحفاد، كما وجدت هناك أختيها، زينب وخديجة، وآلاف البشر الذين تعرفهم بالاسم، وبالطبع قبر زوجها

حسين إبراهيم. طلبت مني أن أزور معها بعض المقابر، ولم أخبرها أنه لا توجد في مقاطعتنا مقبرة إسلامية، وأن مقابرهم إلى جانب الكنائس. وبعد أن لمحت لديها الامتعاض أثناء التجول في المقبرة، أخبرتها أنهم لا يقبلون مسلمين في مقابر النصارى.

"حديقة منزلكم أكبر من حاكورة، يمكن أن تدفنّي فيها".

"بعد عمر طويل يا حاجة، لا يزال أمامك عشرون سنة إن شاء الله. وعندما يحين القضاء، ألا تفضلين الدفن في القدس فيزورك ابنك عبد السلام وأولاده في كل مناسبة؟".

"وكيف نصل القدس؟ منذ عشر سنوات لم نرَ عبد السلام، ولا أعرف أشكال أولاده ولا حتى عددهم وأسماءهم. زيارتي لك هنا أسهل علينا من زيارة القدس". لم أُظهر لها اغتمامي وتصنّعت المزاح مُذكِّراً بأنها تنسى الأسماء مثل زوجها. لقد كان الوالد عندما يحتاج لأحدنا ينادي، يا عبد، وإذا لم يسمع رداً فورياً من أحدنا، ينادي بما يتذكر من أسماء الله الحسنى. ولسبب لم أعرفه أطلق على كل الأولاد اسماً يبدأ بعبد ويليه أحد الأسماء الحسنى. بدأ بعبد الله وانتهى بعبد المنعم، وكان بينهم الرحمن والجبار والرؤوف والسلام والكريم والمعطي. حتى البنات بدأت أسماؤهن بحرف العين، عائشة وعندليب وعفاف. ذكر وأنثى أفلتا من القاعدة عندما انتهزت خالتي فرصة غياب أبي وأطلقت اسم سيدنا الخضر على آخر عنقودها، إذ كانت قد نذرت هذه التسمية إذا جاء المولود ذكراً معافى الصحة. ويبدو أنها كانت ستفرض التسمية حتى لو كان المختار في الحارة آنذاك. والدتي هي الأخرى تمرّدت على حرف العين مع أختي أسمهان، وأعتقد أن الوالد ابتلع هذا التجاوز نظراً لحبه لصوت أسمهان الأطرش. كان دوماً يذكِّرنا بأنه شاهدها في بيروت في حفل غنائي وكان أخوها الصغير، فريد، معها أيضاً.

آنذاك كان الوالد يحمل عنب بربرة ويسافر بشاحنته ليبيعه في بيروت ويستمتع بحفلات لأسمهان وأم كلثوم هناك.

اقتنعت الوالدة بسهولة أن السلطات البريطانية تمنع الدفن في غير المقابر، وبأنني سأبيع البيت والحاكورة يوماً ما ولن يتمكن أحد من زيارة القبر، بل سنجبر على إخفاء معالمه قبل أن نعرض البيت للبيع.

"أهل مقاطعة كنت يا حاجة عقلهم خفيف، زينا، وبيصدقوا في الجن والأرواح، ولن يقبلوا شراء بيت فيه أرواح مسلمين". وقبل أن تزعل من اتّهامي لها بأنها ستخيف أي شخص، أسمعتها قصة لم تتوقف من الضحك على الإنجليز أثناء روايتي لها.

عندما شاهدنا هذا البيت وسط الإثني عشر دونماً والأغنام ترعى الأعشاب، رفضت زوجتي حتى الترجّل من السيارة لتقوم بدورة كاملة حول البيت. اشتد انتباه الوالدة عندما قلت إن كنّتها رفضت هذا البيت الجميل. تركت الزوجة في السيارة وتخطيت جذع الشجرة الضخمة التي وضعها صاحب البيت كعائق لمنع دخول السيارات، فكان الجدار مائلاً، والقرميد محطماً، وخشب النوافذ مهترئاً، ولا آثار للزجاج فيها. لهذا حصلنا على البيت بسعر ممتاز، وقررنا بيع بيتنا في لندن وإصلاح هذا العقار. "وهذا ما أخاف كنّتك، وبالطبع كان عليها مواصلة التصليحات لخمس سنوات حتى غدا المنزل على هذه الحال". لاحقاً، واصلت الحديث مع الوالدة وعلمنا أنهم كانوا متأكدين من وجود عفاريت في البيت. وكلما زارنا أحد من الفلاحين الذين باعوه، وهم جيراننا، كانوا متحفزين عند سماع أي صوت، حفيف النار في المدفأة، فرقعة خفيفة في الأرضيات الخشبية بين الطابقين، صرير باب. كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً وهم غير قادرين على إخفاء شيء من الرهبة. تدريجياً

صرّحوا لنا بقصص عجيبة، مثل إنهم كانوا يشمون روائح عطرة، أو يسمعون موسيقى، أو صوت ماكنة خياطة. وقبل أن يبتاعوا هذا البيت القديم كان يستخدم كمدرسة داخلية للبنات. واصلت الحديث وسط انتباه تام من الحاجة. شخصياً أعتقد أن مارجريت اختلقت القصص، لزوجها أيان، عن الأرواح في البيت لأنها لم تكن راغبة في البقاء فيه، لأنها كانت تتذكر كيف أنّ أبوها كان يضربها ويجنِّن أمها بأفعاله. لقد ورثت البيت من أبيها وأقنعت زوجها ببناء بيت آخر على مسافة قريبة منه، واقتطعوا أرضاً تحيط به ليسهل بيعه. لكن طوال أربع سنوات لم يقدم أحد من أهل مقاطعة كنت على شرائه، فأهملوه للمطر والريح حتى وقعت أنا في غرامه.

"بسم الله الرحمن الرحيم، يعني في عفاريت هنا..." نظرت إليها باستهجان، فأضافت "يا ابني في القرآن في كلام منه، والشيوخ يقرّون بوجود الأرواح والعفاريت، وعنّا في البلد، أيام بربرة، مليون قصة حدثت مع والدك وغيره من أهل البلد".

"يمكن هناك في بربرة عفاريت، لكن هنا لا شيء من هذا القبيل. أنا كنت أنام وحدي طوال الصيف الأول حتى أشرف على العمال أثناء النهار. وابنك عبد الكريم قضى معي عدة أشهر يساعدني بعد أن أنهى دراسته في ألمانيا وقبل أن يعود إليكم، وعبد السلام حضر في الصيف التالي وساعد قليلاً، ولم نلاحظ آنذاك، وحتى الآن بعد سبع سنوات، أي عفاريت. حتى ليلي ونورا كانتا تمكثان لأيام وحدهما دون خوف اللّهم إلّا من العناكب". عاد الاطمئنان إلى محياها بعد هذه الشهادة والإثباتات، وعندما زارتها مارجريت طلبت الحاجة من زوجتي أن تخبر الجارة أنها تنام هنا بهدوء أكثر من الأراضي المقدسة. لم يتجاوز الأمر هذه الإشارة، وما حجب الحديث أن الوالدة لم تكن تود فتح ذكريات مارجريت

مع أبيها. وقد لفت نظري أن أمي ومارجريت تتحدثان من دون مترجم لدقائق، كل ترطن للأخرى بلغتها وتنصتان وكأنهما تفهمان. تكرّر ذلك مع مايا وهي صديقة كبيرة السنّ، وأخبرنا الحاجّة أنها تعمل بيديها لكسب نقود تنفقها على بضعة خيول تملكها، بالرغم من تفشي الروماتزم في مفاصلها.

في العام التالي، أثناء زيارتها الثانية لبيتنا في صيف عام (1997) أشعرتني الحاجة بأهمية أن أنادي مارجريت بأم جون. سألتها لماذا لا تطالبني أيضاً بمناداة مايا مقرونة باسم ابنتها؟ امتصت شفتيها وهي تذكرني أن البنت بنت والولد ولد. كيف أقنعها أن الإناث هنا لا يفضلن الانتساب إلى زوج أو ولد، وأنه لا حرج في مناداة عجوز باسمها مهما كان عدد أولادها؟ أخذت أذكّرها ببعض أسماء الرجال الذين ننسبهم لأمهاتهم، وتوصلنا إلى خمس عائلات في بربرة ينتسب أبناؤها إلى أمهاتهم بالاسم كونهن نشيطات ويشهد لهن بدور تربوي.

"لكن تلك الأمهات هن أم فلان وفلان، حتى وإن كان أولادهن هم محمد فلانة وعلي علانة". كلامها صحيح، فهناك بالفعل بعض منهنّ يُنسبن للولد على الرغم من أن البنت تكون أكبر سناً. المهم أنها تقبّلت أن أنادي الأجنبيات بأسمائهن.

قبل يومين من موعد الرحيل عن بريطانيا ضبطت أمي وأختي تحاولان إخفاء الدموع. اختليت بعندليب فكان السبب مجرد اقتراب نهاية الرحلة. حضّرت لهما الشاي، هذا المشروب السحري بالنسبة للإنجليز، وسألت الوالدة من سيرافقها في الصيف القادم. صمتت، وظننت لوهلة أنها قد ترفض السفر في أي اتجاه وتعود لطلب البقاء والموت هنا، وما كنت أدري بماذا سأجيبها لو فعلت. كيف أقنعها أن هذا الرخاء الظاهري، هنا، تنقصه راحة البال وصفاء الذهن

ويلازمه الشعور بالاغتراب ويسكن في فؤاده الحنين إلى مراتع الصبا. كيف أفسِّر لها أنّ المعزَّز المكرَّم هنا يتشوّق للعودة كلاجئ بين ذكرياته الأولى وما سمعه كل يوم عن بربرة. خطر لي إطلاعها بما يدور من حديث مع زوجتي، وماذا سيفعل كلّ منا بالآخر إذا مات قبله، وأنّ رأينا استقرّ أن تحرق جثتي وتدفن رمادها في بربرة، وإذا صعب عليها ذلك أن تذروها في البحر قبالة بربرة. أما جريس فأرادت أن أحمل رماد جثتها معي، ورفضت أن أدفنها في ايرلنده. لن ترتاح أمي لحديث الحرق بعد الموت؛ كانت تنهرني عندما أحرق أي حشرة أمسك بها وأنا صغير وتقول "بيحرق الكل الله". واصلت هي الصمت، فقلت إن شاء الله بعد نصف قرن من العذاب تُحلّ القضية قبل الصيف القادم، وأحضر إليكم ونبني منزلاً وسط حاكورتنا الملاصقة للمطار في رفح. رجوتها تذكّر زيارة قبر المختار نيابة عني. طالبتني بقطع عهد أن أوزّع لحم ذبيحة عن روحها كل عيد، فتعهدت بعد تمني طول العمر لها، وتذكرت ما قاله عبدالله ابن المعتز حفيد هارون الرشيد:

فقلْ لجديد العيش لا بد من بلىً
وقلْ لاجتماع الشمل لا بد من شتّ

***

بومة بربرة

"تعرف يا حسين، أهل بلدكم كلهم مجانين". لم يدفعني ذلك القول للاستغراب من موقف الإنجليزي الذي لا يكفّ عن النقد اللاذع والمغلف في ثوب نصيحة. كان بودي القول له لو أننا مثلكم لأصبحنا امبراطورية، ولما كنت أنا أو أنت هنا نرصف الشوارع في يافا.

"نعم أعرف أنهم مجانين، على الرغم من اعتقاد كل قرية أن فيها مجنوناً وبعض المهابيل فقط. هل هذا ما تريد إخباري به يا خواجا روبن؟".

"لا لا. أنت لازم تشتري بفلوسك قطعة أرض وتتعلم مهنة، ولا تفعل مثل الآخرين وكبار السن". كان يوم جمعة، فاصطحبني الخواجا إلى بيته لأرى أخي أحمد وأتناول بعضاً مما تطبخه زوجة روبن التي لا تتحدث لغتنا بعكس زوجها. أصغيت إليه لأفهم مراده من تعابيره الخليطة بين الفصحى والمحكيّة، ففهمت مما أضافه أنّ أهلنا أيام الحكم العثماني خافوا من التجنيد والموت، وأنهم كنتيجة لذلك تقبلوا التحوّل إلى عبيد. أضاف: إن فرمان السلطان العثماني قبل سبعين سنة، سمح للناس أن يسجلوا باسمهم الأراضي التي توارثوا خدمتها. قبل ذلك كانت الأرض للسلطان، وبعد الفرمان أصبح بوسع الفلاحين أن يتسلموا مستندات الملكية للأرض التي يفلحونها، إذا أثبتوا ملكيتهم وشخصيتهم عند القائمقام.

"لكن تسجيل الأرض يعني أن الحكومة السلطانية ستعرف الناس وستأخذهم إلى الجيش وتدفّعهم ضرائب. المجانين خافوا ورفضوا التسجيل، وشو صار؟".

"شو صار، ما أخذوهم على الجيش؟ أنا أعرف أن الكثير من أهل بلدنا في بربرة سحبوهم إلى الجيش بالقوة".

"بالضبط يا حسين، لذلك أقولك إنكم مجانين، وأنت لن تفعل مثل أهل زمان. بعضهم سجّلوا الأرض باسم أموات، والأغبى منهم سجلوا الأرض باسم أعيان وتجار ومأموري الضرائب. أصبحوا عبيداً في أرضهم ويدفعون الضرائب ويقبّلون الأحذية للأفندية ويضربون بالكرباج. الباشوات الجدد أصبحوا يلمّون أي ناس ويرسلونهم إلى الجيش التركي بدل الفلاحين الذين يمصّون دمهم". كنت أعرف أن روبن موجود هنا في يافا منذ أيام الأتراك، وكانت مدن فلسطين مليئة بالأجانب حتى قبل انتصار الإنجليز على الأتراك والألمان، والآن ازدادت أعدادهم. شرح لي روبن إن الإنجليز أصبحوا يسجلون الأراضي ويعطون صكوك الملكية لمن يسجل ولمن يشتري أرضاً من آخرين، وقال إن الأراضي رخيصة جداً، فوعدته العمل بنصيحته.

"عندما قامت الحرب كان عمرى أربع سنوات، ولم تصل إلى بربرة أي معارك، لكن أربعة من رجال قريتنا لم يعودوا من الجيش التركي". قلت لروبن، الذي بدا بعمر أبي، وتظاهرت بعدم معرفة أبعاد ما أكملت به: "تقول إن الإنجليز يسجلون الأراضي، وأنا سمعت أناساً يقولون إنكم أوقفتم التسجيل لعامين، وعندما فتحتم دوائر التسجيل في أيلول/سبتمبر 1920 أصبحت أملاك اليهود بقدرة قادر أضعاف ما كانت عام 1918".

"فتحنا الدوائر قبل خمس سنوات، ولا يزال إقبالكم خفيفاً،

بينما إقبال اليهود أعظم مما كان في السابق. ونحن لم نسجل لهم أراضي يا حسين. أراضيهم اشتروها أيام السلطان العثماني، وما زلتم تبيعون لهم. الملّاك عندكم يعتقدون أنهم يبيعون اليهود أرضاً بوراً ورمالاً ومستنقعات، واليهود يشترون أي شيء، وهمّهم زيادة الملكية، ويمكن أن الفلاحين في قريتك باعوا أيضاً".

"بربرة لم تبع أي شبر. وأنا سمعت أنكم أعطيتوهم الأرض لتساعدوهم في تطبيق وعد بلفور".

"أنا عارف إنت كيف تسمع هذه الأخبار. تأخذها من العمال الأكبر منك، وأعرف أنهم دائماً يضحكون على قريتك ويلقبونك كوك. مع ذلك أنت تصدقهم وتكذب ما ترى بعينيك". سرد روبن قصة بيع مرج ابن عامر لليهود قبل أربعة أعوام حتى يثبت رأيه ويخرسني. في عام 1872 اشترى رجل البنوك سركيس تلك المنطقة من الدولة العثمانية، واستعد بالمقابل لجمع الضرائب من الفلاحين ودفعها وتوفير الأعداد الكافية منهم للالتحاق بالجيش. دفع ثمنها 6 آلاف استرليني وعمولة للموظفين 12 ألفاً حتى يراعوه في القياس. تواصل عمل الفلاحين تحت إشراف السادة الجدد ودفع سكان الـ 21 قرية الضرائب من المحصول. في عام 1921 باع آل سركيس 6263 هكتاراً من هذه الأرض بأرباح تقدّر بعدّة آلاف بالمئة، إذ أخذوا من اليهود بدلها 282388 جنيهاً استرلينياً، واشترط الصهاينة على آل سركيس أن يطردوا آلاف العائلات التي تعمل في الأرض. دفع السيد القديم ثلاثة جنيهات ونصفاً كتعويض لكل عائلة من الفلاحين، وحضر السادة الجدد بالجرافات لطرد الفلاحين الذين رمى بعضهم نفسه تحت الآليات. مات وجرح الكثير لأنَّ الصهاينة استعانوا بالإنجليز، فحضرت المصفحات وتمّ تحرير هذا الوادي من العرب، وأصبح أهم معقل صهيوني في الشمال.

كففت عن هذه المجادلة مع روبن وكانت حجتي ضعيفة، إذ يعرف الجميع منا أن هناك إلى جانب الأعيان خونة ومغفلين أيضاً يبيعون الأرض إلى عرب يعملون سماسرة عند منظمات اليهود، وربما ظن روبن أن سنواتي الخمس عشرة لا تؤهلني بعد لاستيعاب ما يقول. كم تمنيت لو أن مناضلاً تمكن من اغتيال بلفور عندما حضر في القطار من القاهرة إلى القدس ودمشق في ربيع هذا العام (1925). فلو كان روبن يعرف ما أفكر فيه لما ضحك حين سألني أن أخبره عن سبب تسميتي (كوك) من العمال. لقد نظّم العرب المسيحيون والمسلمون في القدس إضراباً بمناسبة زيارة بلفور الذي افتتح الجامعة العبرية، لكن الاحتجاج لم يتعد ذلك على الرغم من أن الإنجليز يزيدون أعداد جندهم كل عام، وقتلوا 200 فلسطيني في أول عامين من الانتداب.

"المجانين" ضحك روبن قبل أن أكمل "يلقبون أي واحد من بربرة كوك. إنها قصة نسبت إلينا ولا نعرف أبطالها بالضبط. وعندما تتحدث عنها أي عجوز في بربرة، تنسب الفعل لجد جد المستمع فتقول إن زوجة ذلك الجد طلبت منه أن يذهب إلى سوق المجدل ليبيع البقرة ويعود بثمنها. خرج الجد مع الفجر يجر البقرة إلى المجدل. لكنه عاد ظهراً بدون البقرة".

"أين البقرة؟" سألته زوجته.

"بعتها". أجاب الزوج باختصار حتى يشوق زوجته ويثبت لها ذكاءه.

"كيف بعتها ورجعت بسرعة؟ الوقت لا يكفيك حتى للوصول إلى سوق المجدل".

"بعتها لستنا البومة". أجابها وهو يفتل شاربيه كما تقول العجائز من النساء وهن يسردن القصة.

"بكم بعتها وأين النقود؟" أرادت الزوجة الوصول إلى نتيجة.

"بثلاث ليرات ذهب". قال وهو يخرج القطع من حزامه لتتلقفها الزوجة بالفحص.

"ستنا البومة دفعت لك الليرات، طيب وين البقرة؟".

"ربطها في الشجرة كما قالت لي".

"البومة قالت لك أربط البقرة في الشجرة؟".

"أنا سألتها، هل أربط لك البقرة في الشجرة؟ فقالت كوك".

"يعني إنت مثل سيدنا سليمان فهمت عليها، يمكن كوك معناها لا".

"معناها نعم". وشرح لزوجته القصة بأنه جلس يستريح تحت الجميزة فشاهد البومة. أخبرها بمقصده، فقالت كوك، سألها إذا كانت تريد شراء البقرة وتريحه من المشوار، فقالت كوك. قال لها إنه يريد أربع ليرات فلم ترد عليه. تنازل إلى ثلاث فقالت كوك. سألها إذا كانت النقود مدفونة تحت الشجرة، فأكدت له ذلك. حفر وفتح الصندوق وأخذ ثلاث ليرات وأعاد الصندوق إلى مكانه. ادّعت الزوجة أنها لا تصدقه حتى حصلت منه على التفاصيل لتصل إلى البقرة والصندوق. حاولت إقناعه أن يذهبا سوياً، فغضب من فكرة نهب البومة. عندما همت بالخروج وحدها أخبرها أنه حسم أمره وسيذهب إلى مركز الحكومة في المجدل ليبلغ عنها. عرفت أن الأمر سيُفضح سواء عندما يجدون البقرة مربوطة في الجميزة، أو عندما يُحدّث زوجها الآخرين عن مهارته في البيع، وبالطبع ستكون النتائج كارثية لو عرف الأتراك بالقصة.

"رأيك صحيح يا زلمة، حرام نسرق ستنا البومة. سأستمع إليك". وأقسمت له بالعظيم أنها لن تسيء إلى البومة. في الليل

اطمأنت أنه نام، فعجنت وصنعت زلابية مقلية، ووزعت الأقراص في ساحة البيت وعلى السطح.

"قوم يا زلمة، نايم والدنيا أمطرت زلابية". أفاق على ندائها غير مصدق، ولكنه شاهد الزلابية التي يحبها وقد نثرت على الأرض وعلى السطح. "الناس جمعوا كل اللي نزل في الشارع وإنت نايم".

بعد بضعة أيام ذهب لزيارة البومة ليطمئن عليها. لم يجد البقرة، ولا الصندوق، ولا البومة. تأكد أن زوجته خانت العهد، فواصل طريقه إلى المجدل واشتكى عليها عند المأمور الذي غلب الطمع على عقله فأرسل معه من يتحقق من القصة. سألوا الزوجة فأنكرت معرفتها بأي شيء من هذا القبيل جملة وتفصيلاً، وأخبرتهم أنه مجنون شوية.

"أنا مجنون؟ ها هي البقرة عادت للزريبة، وأنت نهبتِ ستنا البومة يوم أن أمطرت الدنيا زلابية". كانت تعرف أنه سيتذكر ذلك الحدث. عندما سمع الجنود هذا الاستشهاد ضربوه فلقة على قدمية، وانتشرت القصة في القرى.

"والله جدتك يا حسين ذكية، وأشطر من رجال السياسة في بلدكم الآن". وعاد روبن لتقريعي كيف أصدق قصص العمال في السياسة، وهم الذين يصدقون هذه القصص عن بربرة ولا يرون حتى ذكاء الجدة. لم يترجم كلامه هذا إلى زوجته كما كان يترجم لها ما رويته عن قصة كوك وقد احمرّ وجهه من كثرة الضحك.

طرحت عليه أسئلة من نوع لماذا لا يجندون الشباب في الجيش البريطاني كما يجندونهم في البوليس، وعن أحوال العمل في معسكرات الجيش. شك بوجود رغبة لديّ للعمل في أحد

المعسكرات، حيث رواتب من يعمل معهم جيدة وعملهم مريح، وهم يتحدثون بإعجاب عما يشاهدون من أفعال الإنجليز.

"أنت شاب صغير وبحاجة لمهنة تدوم معك وتنفعك". قال روبن، واختار لي مهنة قيادة السيارات، ووعدني بالمساعدة في هذا الخصوص. شكرته على استعداده، وتمنيت في سري لو مكّنني من هذه المهنة. أحدث سيارة مرخصة شاهدتها في يافا هذا الشهر كانت تحمل رخصة رقم 502، والكثير من السيارات يملكها الأجانب، يعني أن أولاد العرب السائقين أقل من 500. ثقتي بأخلاق وأمانة هذا الإنسان كبيرة إلى درجة أنني ادّخرت معظم راتبي عنده، بالإضافة إلى ما سيعطونه لأحمد.

***

صيف هذا العام حار جداً، وأصبح من المستحيل العمل في رصف الشوارع معظم ساعات النهار. أحمد ألحَّ عليَّ طوال اليوم أن نذهب إلى الموسم في وادي روبين قبل مواصلة الطريق إلى زيارة الأهل في بربرة، فوعدته بالسفر في مطلع أيلول/سبتمبر، وأخبرت الإنجليزي بالموعد، فلم يعترض. اشتريت عدداً جديداً من مجلة الحقوق، وأصبح عندي سبعة أعداد من جريدة الجزيرة الأسبوعية وأكثر من عشرين نسخة لصحف يومية مثل فلسطين وصوت الشعب والصباح، والتي جمعتها من العمال أو كنت قد اشتريتها لأعطيها إلى ابن عم أبي، الشيخ عبدالله عندما أعود إلى بربرة. كل هذه المطبوعات من صيف 1925. كان الشيخ يرافقني مسافة قليلة عندما أسافر من البلد ويعيد على مسمعي مؤكداً عليَّ بعدم نسيان الصحف وخصوصاً الحقوق الشهرية، لأنها مهتمة

بالقضاء والشريعة والأدب وتصدر في يافا. لا يكلّفني الأمر كله أكثر من عشرة قروش، لكن الشيخ يرى هذه الهدية وكأنها بعشرة جنيهات، ويكثر من الدعاء ويتوسط لي عند الأهل بما أريد. بالإضافة إلى الصحف سيكون بوسعي إبلاغ الأهل عمّا سمعت في يافا من أخبار عن تململ في سورية. لقد جلب الفرنسيون 150 ألف أرمني إلى البلد وضاعت الفرص أمام العمال السوريين، كما أنهم أقاموا دوراً للدعارة في دمشق، والبلد، كما سمعت، على كف عفريت.

لقد تجمّع أهالي يافا أمام الجامع الكبير ليشاركوا في مسيرة زفة النبي روبين حتى طرف المدينة، فيعود من لديه أعمال إلى منزله، وترحّل البقية إلى الموسم على مسيرة خمسة عشر كيلومتراً إلى الجنوب. أكثر من خمسين هودجاً على ظهور الجمال في داخلها بعض من نساء وبنات يافا، المدنيات. ربما مائة جمل أخرى تحمل الخيام والبسط والطعام، وعشرات العربات ذات العجلات الأربع مغطاة، مثل التاكسيات، ويجرها حماران وقد امتلأت بالركاب. خيول وبغال وحمير عُلقت الأجراس في رقابها، مثل الجمال، وتزينت مثل ركابها، إضافة إلى بضع شاحنات وأقل منها تاكسيات تحمل الأطفال من أبناء أغنياء يافا. أحمد وأنا كنا مع أكثر من ألفين ساروا في الركب على أقدامهم وسط قرع الطبول والمزامير وحاملي رايات النبي روبين البيضاء.

مشى العلماء والمشايخ والدراويش وفرق الكشافة في صفوف بين الناس، وانطلقنا قبل اشتداد الحرارة عبر حي العجمي. أعداد كبيرة من المسافرين جاءت من اللّدّ والرملة لتشارك في الزفة والموسم منذ البداية. تركنا يافا ظهراً، وقبل أن تغيب عن أنظارنا توجب علينا الاستراحة حتى العصر، لأنَّ الشمس حارقة على الرغم

من مسيرنا بمحاذاة شاطئ البحر. حرّرتُ أحمد من حمولته وتمددت فوق الرمال بينما انطلق هو يتفرج على الهوادج، فقد بدأ الموسم واللهو بالنسبة إليه. اجتزنا وادي روبين قرب البحر ليلاً وتحرّك الركب شرقاً عبر رمال بيضاء تلمع تحت ضوء القمر، وساعد من يستطيع في دفع العربات عبر الرمال حتى اقتربنا من جامع القرية، فاتّجه كل فريق إلى موقعه وأخذوا ينصبون الخيام، أو يجادلون على اكتراء خيام مقامة. المنطقة مضاءة بلمبات الكاز والدكاكين أقيمت من الخشب والخيش على الصفين إلى جانب المسجد بالقرب من مقام النبي روبين. وبالكاد اقتنع أحمد بالخلود إلى النوم في الجامع.

"نجلس هنا أسبوعين، يعني نصف الموسم فقط، ثم نسافر إلى بربرة". قال وهو يحاول أخذ وعد من دون نقاش.

"ثلاثة أيام الآن، ثم ثلاثة أخرى في طريق العودة إلى يافا في آخر الموسم". تكور على نفسه ونام على الفور من شدة التعب. وعلى الأرجح أنه لم يكن يتوقع هذا الرد الإيجابي.

من يمتلك بعض النقود لا يواجه أي صعوبات في روبين. المطاعم والمقاهي تملأ المكان وتفتح أبوابها في معظم الأوقات، دكاكين منتشرة أينما اتّجهت وفيها مأكولات وأطعمة وحلويات لا تعد ولا تحصى. سمعت في المقهى أن عدد الزوار هذا العام سيصل إلى خمسين ألفاً كونه عام هدوء سياسي حتى الآن. ويبدو أن نساء يافا هذا العام لهنّ الغلبة ولقد نجحن في فرض إرادتهن بحسب القول المشهور "يا بتروبني يا بطلقني".

بعد الفطور توجه أحمد إلى المراجيح، وقال إنه سيتفرج على الحاوي وعلى صندوق الفرجة أيضاً، فأخذ خمسة قروش ليدفع مقابل هذه الزيارة، وتواعدنا على اللقاء عندما يحين موعد الغداء

في مطعم اللداوي. شدني حديث واعظ يفترش الرمال تحت معرش من القماش، فجلست أستمع مع بضعة شبان وأطفال. قال إن النبي روبين يُجل ويُحترم من الفلسطينيين كونه ابن سيدنا يعقوب البكر من زوجته ليئة، وإن مقامه بني هنا منذ أيام صلاح الدين الأيوبي. "هذا يعني أن المقام ليس قبراً للنبي روبين؟" سألت الواعظ لأني أعرف أن صلاح الدين بعد الإسلام والنبي يعقوب وأولاده أنبياء اليهود من قبل الإسلام.

"هذا صحيح يا بني. كذلك مقام النبي موسى قرب أريحا ليس قبراً له. نبينا موسى لم يدخل فلسطين ومات ودفن في شرق نهر الأردن. المقامات تعبير عن الاحترام". قال الواعظ وتوسع في إفادتنا بوجود عدة مقامات لسيدنا الحسين في الكثير من البلدان العربية، وقال إن مقامات سيدنا الخضر منتشرة في العالم الإسلامي. بعد صمت قليل، ومن دون أي سؤال للاستفسار من قبل المستمعين، أضاف الواعظ إن سيدنا الخضر من الأولياء الصالحين قبل الإسلام، واسمه القديس مار جرجس. تعجبت من ذلك لأن عجائز بربرة يكثرن من التعهد بالنذور وقضائها إكراماً لسيدنا الخضر، وأظن أنهن لا يعرفن أنه مسيحي.

"سأحدثكم عن إحدى كرامات سيدنا الخضر التي حصلت في بيروت". قال الواعظ وهو يسحب عمته إلى الخلف قليلاً ليبرّد على جبهته. "كان هناك تنين ضخم يخرج على سكان بيروت يقتل ويأكل ويدمر ويشرد الناس حتى اهتدوا إلى فكرة أن يقدموا للتنين فتاة كل عام تختار بالقرعة ليكفّ شره عنهم. وذات سنة جاءت القرعة على بنت الحاكم، ولم يكن من مجال إلّا التنفيذ. أخذها أبوها إلى ساحة البرج وربطها هناك بانتظار التنين الذي يحضر من كهف يبعد أقل من ميل عن بيروت. كانت الفتاه مسلمة ويعمر الإيمان قلبها.

أغمضت عينيها وأخذت تدعو الله الخلاص وطلبت المساعدة من سيدنا الخضر. وبالفعل ظهر القديس على حصانه حاملاً رمحه الطويل وقتل به التنين وخلص الناس من شره. وشكر الحاكم سيدنا الخضر بأن أقام في الموقع مسجداً جميلاً يحمل اسمه ويزوره كل أهل بيروت للفوز بالبركات". هذه أول مرة أسمع فيها عن شيء اسمه تنين، ويبدو أنني لم أكن الوحيد إذ طُرحت على الواعظ عدة استفسارات كانت نتيجتها معرفة أن هذا الحيوان كبير وضخم، وهو طائر ينفخ ناراً، وليس مثل طائر الرخ الذي يحمل رجلاً أو أكثر بمخلبه ويطير به خلف البحر إلى جبال اليمن.

"عززوا إيمانكم بالله، وتعاونوا على البرّ والتقوى، وأطيعوا أولياء أموركم، وتحصّنوا بالقناعة فهي كنز لا يفنى". توقف عن الوعظ قليلاً ريثما يجترع كوباً من عصير الخروب البارد، فاشتريت كوباً ومثلي فعل ثلاثة من المستمعين بعد أن أطنب الواعظ في الثناء على طعمه وبرودته. كل منا نقد البياع بمليم، ولكن الشيخ لم يدفع، والبياع لم يكن يتوقع منه الدفع. "سأروي لكم قصة عن أهمية القناعة حتى تتعظوا من حكمها". ارتحنا في الجلسة أكثر من السابق، مددت سيقاني وغطيت قنبازي بقماش الديماية المخططة، وأرخيت قشاطي عن وسطي قليلاً بعد أن تناولت سندويشاً من الفلافل. "من منكم يعرف لماذا خرج أبونا آدم من الجنة؟".

"لأنه سمع كلام أمنا حواء". قال أحد المستمعين الصغار الجالسين تربعاً أمام الواعظ.

"لأنه سمع كلام إبليس المنحوس". أضاف آخر. لم تكن هذه الإجابات التي أراد سماعها. هز رأسه نافياً بينما وضعت رأسي فوق كفي وغرست كوعي في الرمل ووضعت صرة حاجياتنا تحت

إبطي. الآن يمكنه أن يسرد قصته، وبوسعي، إن مللت، أن أغط في النوم أيضاً.

"لقد طرد آدم من الجنة بسبب ارتكاب خطيئة واحدة فقط. لقد أكل التفاحة من الشجرة المحرّمة، والتي جاء تحريمها من الله من دون تبرير. لكن هل تعلمنا، نحن الدرس من أبونا آدم؟". نفى بعض الحضور للواعظ أن نكون تعلمنا فأضاف: "كان يا ما كان، في رجل عمل لسنوات طويلة في قطع الحطب وتعذب وعانى من هذا الشقاء الشيء الكثير. بدل أن يحمد ربه على نعم الحياة والبصر والسمع، بلغ به السخط على واقعه حداً جعله يقرر الانتقام من "أبونا آدم" الذي أنجبه وتركه يعاني من متاعب هذه الحياة. جمع الرجل الحطب ليحرق عظام النبي آدم. قبل أن ينفذ جريمته أرسل الله له ملاكاً على هيئة رجل، ونقله الملاك من حياته الشقية إلى بستان يشبه الجنة واشترط عليه ألا يعترض على شيء. لكن الرجل خرق ذلك الشرط واعترض على ارتفاع صوت العصافير. هكذا أعيد إلى الشقاء، فندم وأخذ يلحّ في الرجاء ليعود إلى البستان فعاد بشرط أن لا يعترض. لكن ماذا؟" سأل الواعظ وسمع من قال له إنه اعترض. " نعم اعترض وتكرر ذلك ثلاث مرات طرد فيها من البستان وأعيد إليه. في المرة الرابعة قال له الملاك: أبوك آدم أخطأ خطيئة واحدة وأنت خطية في خطية في خطية، ظلك في هالعيشة تاتموت".

قضيت بقية الصباح والظهر مرتخياً في معرشات الزجالين والرواة، وتزودت بين الحين والآخر بالكعكبان وكرابيج حلب من دون أي رحمة لأمعائي. وبعد تناول الغداء نزلت مع أحمد إلى الوادّ واتجهنا غرباً نحو البحر. الجو ألطف في الواد، إذ في

الأرض بقية رطوبة، وتكثر الأشجار البرية التي تنشر ظلالها. كان بوسعنا اكتراء حمار من قرب الجامع إلى الشاطئ، لكني أردت النوم لساعتين في الواد حيث أغرتنا شجرة توت على الاستراحة في ظلها. لم تكن تحمل أي ثمار مع أنها لم تنفض أوراقها.

بعد العصر وصلنا إلى مصب الواد في البحر حيث تجمعت عشرات الخيول استعداداً للسباق اليومي في هذه الساحة الفسيحة، وجلس المتفرجون على ضفتي الواد. الفرسان لبسوا بناطيل البريكنز الواسعة من الأعلى والملفوفة على السيقان. انتعلوا جزماً جلدية طويلة، أما قمصانهم فكانت متنوعة متعددة الألوان، وعلى رؤوسهم حطّات بيضاء وعقل سوداء، بعضهم ترك الحطات متدلية على كتفيه وقلة منهم لفّت الحطة فوق العقال. مسافة السباق كانت لا تزيد عن خمس مئة متر حتى لا تغيب الخيل عن عيون المتفرجين. اتجهوا شرقاً بسرعات مختلفة تحضيراً للشوط الأول، وانطلقوا من صف واحد بإشارة من حامل علم أخضر اللون. في أقل من دقيقتين تشكل ما يشبه السهم من المتقدمين والمتخلفين. تصفيق وهتافات حتى وصل نصف المتسابقين إلى خط الهدف وكانوا يتحوّلون نحو ساحة أصغر إلى اليمين، بينما اتجهت البقية إلى اليسار وترجّلوا عن خيولهم. عاد الفائزون إلى نقطة الانطلاق وتكررت العملية، وأعلن أن الفائز الليلة هو محمود البدرساوي، من سكان قرية بيت داراس في منتصف الطريق بين النبي روبين وبربرة. هذا الأمر لن يسرّ الكثير من خيالة يافا واللّد والرملة أصحاب الخيول المدلّلة. وفي السنوات الماضية كان الكثير من شبان بدو الملالحة يفوزون في المسابقات اليومية، فهم سكان قرية النبي روبين، وخيولهم تعرف المكان، كما أن الشبان كلهم نحاف الجسم وقصار خفاف

الوزن. قبل المساء اكتريت حصاناً وعدت راكباً فوق ظهره مع أحمد، ورافقنا البدوي على حصان آخر عبر الواد. في أقل من نصف ساعة كنا إلى جانب الجامع في هذه البقعة المزدحمة بالبشر، وكل غايتهم المتعة والسمر.

***

بين امبراطوريتين

تعطلت الشاحنة قرب قرية يبنه، ولم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن النبي روبين. قبيل ذلك، أي أثناء الظهيرة، كان السائق قد أنزل في روبين ركاباً مع خيامهم، واتفقت حينها معه أن يحملنا إلى بربرة في طريق عودته إلى غزة لجلب زوار جدد إلى الموسم. دار حول الشاحنة ثم استقر عند مقدمتها وفتح غطاء الموتور، وأخبرنا أن تصليح الأعطال سيتم خلال ساعة، إن شاء الله. كنا خمسة ركاب فقط، وتجمعنا خلفه لمعاينة المحرك المعطّل. بعد دقائق ملَّ الآخرون من النظر إلى الحديد وبقيت وحدي كي أساعده. فكَّ الكاربوريتر وعمل على تنظيفه بالبنزين وهو يشتكي من كثرة الرمال التي تصل إلى كل مكان. أخبرته بمعرفتي لبعض شؤون السيارات ورغبتي في تعلم القيادة قريباً. وعندما أعاد كل شيء إلى مكانه طلب مني أن أجلس في الكابينة وأضغط على دواسة البنزين بينما هو يضرب المانويلا في مقدمة السيارة. من المفترض أن يقوم معاونه بلف المانويلا، ولكنه قال إنه سمح له بالبقاء في روبين ريثما يعود بالركاب من غزة.

تحركنا مجدداً باتجاه الجنوب وبقيت جالساً إلى جانبه بعد أن تعارفنا وأخبرته عن وضعي في يافا.

"تبدو صغيراً في السن بالرغم من طول قامتك". لم أخبره عن عمري، بل سألته أن يخمِّن، فأضاف حسن بامية، أبو يوسف،

مخمناً: "بين السبع والثماني عشرة سنة". ضحكت وأخبرته بحقيقة عمري فلم يصدق.

"أحلق شنبك والبس حطة سوداء وستبدو أكبر سناً، ولو لبست افرنجي بدل الديماية يمكن أن تدعي أنك عشرين سنه". استمعت إليه بشوق وأنا أراقب كيف يقود شاحنة الماك هذه.

"هل اللبس الإفرنجي ضروري لقيادة الشاحنات؟".

"لا طبعاً، ولكنه أسهل للقيادة. أنظر كيف يمكنك أن ترى الدواسات، ولا يعرقل البنطلون حركتك أو يشبك هنا وهناك عند النزول والصعود من الكابينة".

توسع حديثنا إلى تفاصيل مهنة قيادة السيارات، وعرفت أن عليَّ تعلمها بواسطة سائق يملك شاحنة، وبالتالي العمل كمساعد له ريثما ألمُّ بالأمر. وقال إن القانون الإنجليزي يحتِّم أن يكون صاحب الرخصة بالغ الرشد، يعني فوق واحد وعشرين سنة. هذه المعلومة سبّبت لي الغمّ، ولكن نصيحته لي بتغيير اللباس أعادت الأمل إلى قلبي. ومجدداً أغمَّني حين قال إن رسوم الرخصة عشرة جنيهات كل سنة، ثم تنهدت الصعداء عندما أكّد لي أن أصحاب السيارات يساهمون في مساعدة السائق على دفع الرسوم، لكن معظم السائقين هم أصحاب للسيارات التي يقودونها.

"إذا تعلمت القيادة وتصليح الشاحنات عند الإنجليزي يمكن أن أعطيك شغل معي". قال ضاحكاً بين الجد والمزاح وهو يتوقف قبل بركة بربرة الشرقية.

"سأزورك في يافا، وأواصل التعليم عندك". صافحته ورفض أن يتقاضى الأجرة، والأهم أنه لم يعترض على اقتراحي. لكن ذهني انشغل طوال الوقت بضرورة اختصار زمن الانتظار.

مررنا عبر المقبرة حيث كانت بعض الأبقار تتمرغ في مدافن

دار حماد. لم يُظهر أحمد أي خوف كون الوقت عصراً، ولم يتردد حين اتجهنا إلى وسط المدافن صوب قبر الوالدة لقراءة الفاتحة على روحها، كما زرنا قبر جدي الذي أحمل اسمه، بينما أحمد يحمل اسم والد جدنا. عرجنا على الجامع ووجدت عمي الشيخ عبدالله وابنه فهمي وابن أخيه خليل جالسين فوق الحصر قرب ضريح الشيخ يوسف البربراوي. كانت بعض أواني الزيت حول الضريح توحي بأن بعض النسوة قد تبرعن بها حديثاً، ربما طلباً لعلاج من مرض أو لوقاية أولادهن من مكروه. واللواتي لا يقدرن على التبرع بزيت الزيتون أو بالحصر يمكنهن التبرع بعدة جرار من الماء ينقلنها من البئر إلى خزان الجامع. لم يكن هناك أيّ من الأغراب في غرفة الضيوف بمحاذاة باب الجامع، وعندما يتواجد زائر فإنه يحصل على طعامه من أحد بيوت القرية.

أخذ عمي الصحف والمجلات، وسأل عن أخبار يافا، ثم أضاف قبل تلقي إجابة بأن الأفضل التحدث غداً. كان يريد الاطلاع على ما حملته إليه، ولكنه برَّر رأيه بأنني متعب وأحتاج إلى الراحة. الحركة عامرة في القرية قبل المغرب، فعبد الرحمن أبو ضباع جلس أمام دكانه على الطريق المؤدي إلى الجامع، ومقابله دكان أبو السكر وهما يؤمّنان متطلبات الجهة الشمالية من الحارة الشرقية، حيث دار حماد ودار أحمد ودار الشريف وبعض أولاد أبي ضباع، ودار السلطان. أما ناجي أبو نحل ومحمد عيد فقد اختارا لدكانيهما الموقع المتوسط في تقاطع الحارة الشرقية، وهناك أيضاً سلمنا على الحلاق أحمد أبو العسل. لم يكن أي منهم قد أضاء فوانيسه حتى الآن. واصلنا الطريق الرملي جنوباً بعد سكنى دار أبي نحل حيث تقطن حمولتنا، وفي هذا الشارع توجد دكان أحمد أبو عدوان. لم يتغير أي شيء هنا منذ آخر زيارة قبل ثلاثة

أشهر. استوقفنا عمي حمودة قبل أن نعرِّج شرقاً نحو البيت، وهو عموماً لا يترك أحداً يمرّ في الشارع من دون أن يصرّ على استضافته، وبالتالي ترك عمله في النجارة ريثما يتبادل معه الأخبار ويقدّم له مشروباً على أقل تقدير.

"عندي طبيخ خبيزة ممتاز يا حسين، هل أسخنه لك ولأحمد قبل الذهاب لدار أهلك، أم تحبها باردة؟". شكرت عمتي حليمة، أم محمد، وأخبرتها بمصاعبنا المعوية من كثرة تناول الأطعمة في موسم النبي روبين وارتجاجات السيارة. "قلت لعمك أبو محمد يأخذنا نتفرج فتحجج بأن زينب صغيرة، لا يمكن أخذها معنا ولا نستطيع تركها. كل موسم هيك، السنة الماضية كان محمد صغير، والسنة الجاية الله أعلم على مين الدور". لم تكن غاضبة بالفعل ولكنها تصنعت الجد في صوتها بينما عيناها الزرقاوان فيهما شيء من المداعبة.

"والله يا عمتي الدنيا هناك حر جداً وزحمة في روبين. إن شاء الله لما يصير عندي سيارة راح أروبنكم كلكن". إنها لا تزال في عز شبابها وجمالها ونضارتها، ويتجلى ذلك بوضوح عندما تكون إلى جانب عمي حمودة الذي يغلب على ملامحه اللون القمحي الغامق. ومهما يكن فهو أجمل من أخته مريم محمود التي تزوجها أبي بعد وفاة والدتي.

"إن شاء الله في القريب، ويقوم أبوك بالسلامة". نظرت إلى عمتي لتكمل، ولم تكن بحاجة إلى ذلك، إذ كان أبي متوعكاً عندما سافرت من هنا آخر مرة، ولم يكن في صوتها أو عينيها ما يشير إلى تغير أو توتر. "إخواتك قايمات بالشغل والواجب". تذكرت خديجة ذات السنوات الثلاث وإنني لم أحضر لها هدية أو لشقيقتي الأكبر منها زينب. رأيت تغييراً في موضوع الحديث.

"البلد صارت مليانة بأسماء مكررة، ألا يوجد غير خديجة وزينب ومريم، وأحمد ومحمد وحسين؟". في واقع الحال إن الناس ليسوا بحاجة إلى التنويع لأن كل واحد يكتسب لقباً خاصاً به كنتيجة لتصرف يقوم به أو لشيء في خلقته.

"إذا كانت اللي في بطني بنت سأجعلك تختار لها اسماً يعجبك". قالت أم محمد وهي تتحسّس بطنها الذي لم يظهر تكوره بعد تحت ثوبها المطرز والمتكئ على حزام عريض من القماش الأبيض.

"إن شاء الله يكون صبي ويصير أمير، وإذا بنت تكون أميرة". تركناهم ودعوات عمتي حليمة تلاحقنا بعد سماعها دعوتي بالإمارة لجنينها، وعاد حمودة لإصلاح لوح دراس، وكانت بعض الدقارين والمذاري والكراسي تنتظر دورها.

"كويس أننا أحضرنا معنا غريبة وسمسمية من الموسم". قال أحمد وهو يدفع الباب. توجهنا فوراً عبر الساحة إلى قوس غرفة الوالد للاطمئنان، وكان قد اعتدل في الفراش عندما سمع صوتينا. فاطمة كانت ربة البيت الفعلية منذ ما قبل ميلاد أختها الثانية، إذ كانت تساعد أمها في البيت منذ أن تزوجها أبي. فاطمة ابنة المرحوم ذيب مراد، وقد مات أبوها في حريق شب في القرية. كان معظم الرجال والشباب في الحواكير، وانتخى ذيب لإطفاء النار خوفاً من وصولها إلى منازل أنسبائه، ورفض الاستماع إلى نصيحة أحمد عبد الرحمن حين قال له "الدخان يخنق يا ذيب". وبالفعل مات متأثراً بالدخان بعد يومين. قبل مرور عام على موت ذيب وترمل مريم محمود، أخت حمودة، أقنعوا والدي بالزواج منها، وجلبت معها ابنتها فاطمة ولم تتركها في منزل عمها.

لم يكن مزاج أبي رائقاً عند عودتنا، وبالفعل لم تظهر عليه

علامات الفرح بعد أن أنجبت له أم فاطمة، بنتين، وأعتقد أنه أصبح متأكداً أن السبب يعود إليها في إنجاب البنات، لأن المرحومة أمي لم تنجب سوى الذكور.

"شو جبتو من يافا يا حسين؟" قبل أن أجيب زوجة أبي كان أحمد قد فتح فاه: "جبنا أكثر مما أخذنا". نظرت إليه ليفهم أنه تسرع في الإجابة حتى وإن كان مطمئناً أنها لن تقرصه الآن.

"كل خير يا خالتي". قلت لها وشرحت أننا مررنا لبضعة أيام على روبين ولم نجد هناك أفضل من كعك الغريبة. أحضرت فاطمة من المطبخ حلويات، "نامورة"، وقد ابتاعوها على ما يبدو من البياع اليافاوي المتجول الذي يبسط بالصينية أمام الجامع. حملت أيضاً صحن فطير مع العسل. وقبل المغرب اتفق أبي مع أخيه حسان على السهر في بيت ابن عمهم علي، وسررت لقرار والدي بالخروج من الفراش.

"هل تثق في الإنجليزي إلى درجة ترك نقودكم عنده؟" سألني أبي ونحن في الطريق إلى منزل ابن عمه.

"ليس كل الإنجليز لصوصاً. إنهم مثل كل الناس فيهم الصالح وفيهم الطالح. هل تثق أنت في كل أهل بربرة، أو حتى في كل أبناء حمولتنا؟". أوضحت لأبي اقتناعي بأن الرجل يريد المساعدة، وأنني أسجل كل مستحقّاتي لديه، وإن أي شيء يُحسب لأحمد هو إضافة طوعية لأنه عملياً يأكل ويشرب ويعمل على تسلية زوجة الإنجليزي.

قفزت سعاد عبر عتبة الباب محاولة الإمساك بالديك لحشره في الزريبة، وساعدها أحمد في اصطياده. كانت أصغر منه بسنوات قليلة، وأتذكر عرس زواج أبيها، عبد الحفيظ، من أمها، زهية، قبل عشر سنوات.

"أهلاً أبو حسين. الشباب ما شاء الله صاروا عرسان". قال عبد الحفيظ وهو يستقبلنا. "بالأمس كانوا في عمر محمد علي، واليوم بدهم عرايس". مبالغة يجب تقبلها إيجابياً، ولكني تذكرت حديثاً استمعت إليه في يافا مفاده أن الإنجليز عازمون على رفع سن الزواج للفتيات من تسع إلى أربع عشرة سنة كما هي الحال عند المسيحيين الفلسطينيين.

"حسب القانون التركي أحتاج إلى عامين آخرين قبل الزواج". عقّبت على كلام عمي وأنا أنظر إلى ابنه، الذي كنا مثله بالأمس، ولا أظن أنه تجاوز الثالثة من عمره. "الإنجليز سيغيرون القانون وسيرفعون سن زواج الفتيات، ويعتبرون أن من حق الرجال الزواج في سن السابعة عشرة، ولكنهم يعتبروننا بالغي الرشد بعد سن الواحد وعشرين". ضحك الحضور ونحن نتصافح قبل الجلوس.

"الإنجليز ملاعين". قال الشيخ عبدالله "لا بد أن لهم سبباً سياسياً لتغيير القانون التركي شوية شوية. قبل عامين، عندما أرادوا انتخاب مجلس تنفيذي يهودي عربي مشترك لإدارة البلاد، قالوا إن حق التصويت للرجال فقط، ولمن بلغ منهم سن الخمسة وعشرين، وعمر المرشح يجب أن يكون فوق الثلاثين. هل تعرفون أنهم شرعوا سن الرشد في الهند بثمانية عشر عاماً، حتى يأخذونهم للجيش. طبعاً هدفهم هنا الحد من عدد العرب في الانتخابات، والآن يريدون تغيير قانون العائلة ليحدوا من عدد الفتيات في سن الزواج".

"كمان سنتين سيطالبونا بإنجاب ولد وبنت فقط". أضاف أبو محمد علي.

"أنا ملصت منهم الآن بولدين وبنتين". أضاف أبي، ثم سكت فجأة.

ما كاد رمضان ينتهي من توزيع فناجين القهوة السادة حتى طرق الباب عدة زوار حضروا سوياً من الجامع ليباركوا لأبي بعودتي وأخي سالمين، والاستماع لآخر آخبار يافا. تقدمهم الشيخ ربيع أبو نحل وتبعه الشيوخ، عبد الهادي الأشقر، محمد صالحة، السيد أبو شرخ، وإمام الجامع الشيخ عارف أبو مريم. اقترب عددنا بالإضافة إلى من كان معنا من رجال الحمولة لأكثر من عشرين، ستة منهم من جيلي. أخذ موسى حسن مسؤولية توزيع فناجين القهوة، بينما أبو عبد الحفيظ لا يكف عن تحريك النار حول البكارج.

"حسبنا الإنجليز يكونوا أحسن من الأتراك وأصحاب الأتراك. طلعوا مثل خرية مقسومة بخيط". علت الضحكات والتأييد لمقولة عمي حسان، أبو عودة، ويبدو أن موقفه هذا كان مشهوراً في بربرة حول أطراف الحرب العظمى.

"ماذا يجري في يافا ولم يرد ذكره في الصحف التي أحضرتها لي؟" سؤال من الشيخ عبدالله ليعطيني حق الحديث كمُحتفى به، وليعلن عن ملكيته لدسم المعرفة مما طالعه في الصحف والمجلات.

"الصحف يا عمي مليئة بالسياسة والتكرار. لا أعتقد أنها تحدثت عن لقاء سري بين الحاج أمين وبين الملك فيصل الأول". شددت اهتمامهم بهذا السر الذي شاع في يافا قبل سفرنا بأسبوع، وشرحت لهم أن اللقاء مع ملك العراق حدث في سفينة رست في الميناء قبل مواصلة السفر إلى فرنسا. كان الجميع يحبون الملك نظراً لدوره الوطني في الثورة العربية ويعولون عليه المساعدة في استقلال فلسطين. "الذين شاهدوا الملك قالوا إنه مثل الهيكل العظمي وجلد وجهه غائر، وعظام ركبه بارزة من البنطلون".

"هل كان المفتي وحده عندما زاره؟" جاء السؤال من السيد أبو شرخ، وكان معروفاً لأهل بربرة بأنه على علاقة مع المفتي،

الذي أصبح الآن رئيس المجلس الإسلامي الأعلى. علاقتهم بدأت منذ ثلاث سنوات حين شارك في المؤتمر الوطني الخامس في نابلس.

"لا أدري إذا حضر معه أناس إلى يافا، لكن اللقاء تم بين الرجلين على انفراد". لم يخفض الشيخ نظره عني فأضفت: "المعلومات أكيدة، حصل عليها زعيم عمالي شيوعي من زميل له يعمل في الميناء، وتحدث في الأمر مع من أعمل معهم". ضاعت أهمية التأكيد بين الدعوات بالشفاء والعودة الموفقة للملك فيصل.

"واليهود؟ شو أخبارهم في يافا وتل أبيب؟" سألني الشيخ عارف أبو مريم وقد أزاح العمّة عن رأسه طلباً لنسمات هواء تجفف العرق.

"شو! يشترون الأرض، ويزيد عددهم كل يوم". قال رمضان حسن متطوعاً بالإجابة وأضاف: إنه إذا استمرّت هذه الحال عشرين سنة فلن يبقى للعرب شيء في فلسطين. وعلى الرغم من حداثة سن رمضان إلّا أن كلامه رسم وجوماً وتأييداً على الوجوه.

"ما عدا موضوع الأرض وبناء الكبانيات..." قلت لاستعادة زمام التفرُّد ببعض المعرفة "... فإنهم يتوسعون في تل أبيب ويقيمون فيها عمارات عالية وشوارع عريضة وسياراتها أكثر من عربات الحصان". وبدون توقف أضفت: "شركة الكهرباء اليهودية الجديدة ربطت الشهر الماضي يافا بتل أبيب، وشوارع المنشية تضاء الآن بالكهرباء في الليل".

"لو نبقى على اللمضة والنار ونتريح من اليهود والإنجليز أحسن". وافق الجميع وأيّدوا كلام الشيخ محمد صالحة، أكبر الحضور سناً وربما مقاماً. حتى من لا يوافقه هذا الرأي لا يمكنه الاعتراض لأن الشيخ كان عضواً في المجلس الإسلامي في

اسطنبول أيام تركيا، ويؤكد أنّ السلطان كان ضد دخول اليهود إلى فلسطين، والمسؤولية كلها يتحملها الإنجليز.

"من العجب العجاب الذي طالعته في صحيفة فلسطين أن واحداً أميركياً نجح في تجربة نقل صورة وجه إنسان من صندوق إلى صندوق آخر في غرفة مجاورة". قبل أن يكمل الشيخ عبدالله سمع من أكثر من فم كلمة "ساحر".

"لا لا، الخبر له علاقة بصندوق الراديو الذي ينقل الأخبار بالصوت، وهذا المخترع يريد نقل الصور". اضطر الشيخ الأزهري إلى إعطاء تفسير عن الراديو الذي سمعه وشاهده في القاهرة حيث يقضي معظم شهور العام هناك في الأزهر. "صندوق يشتغل على بطارية سيارات، ويلقط الأخبار من الهواء ويذيعها".

"وايش عرفه بالأخبار الصح من الغلط، وأين يجدها في الهواء؟" سأل سعيد محمد وسط ضحك وتأييد البعض، ومحاولة آخرين إظهار أنهم يعرفون بأمر الراديو. وسألني إذا كنت رأيت هذا الراديو في يافا. نفيت، وعاد الشيخ عبدالله يتحدث عن محطة بث ومحطة استقبال وايريال، ثم حسم الأمر بأن كل هذه الأشياء غير موجودة في فلسطين، وأكّد أنّ مصر ليس لها محطة بث، ولكن للإنجليز هناك واحدة جديدة، وهي تتحدث الإنجليزية. قال الشيخ: "الراديو عمره خمس سنوات، اخترعوه الأميركان، وقامت محطة في لندن قبل أربع سنوات وبعدها بعام محطة في فرنسا وأخرى في ألمانيا".

"سيصل يافا كمان عشر سنوات وبربرة بعدها بخمس سنوات". علق عبد الحفيظ وسأل عبدالله عما وجد في الجرائد من أخبار جديدة.

"الأميركان ينتقدون سياسة فرنسا في سوريا، ويقولون إنها

تهدف لتمزيق البلد، وإن جمعية الأمم تسكت عما يفعله الفرنسيون في سوريا. وهم يشكون الفقر ويطلبون الدعم من أميركا، بينما ينفقون الأموال الطائلة على جيشهم. وقال مندوب برلماني أميركي عن الفرنسيين إنهم جلبوا الدعارة رسمياً إلى دمشق ويعتدون على أعراض النساء، وهذا يعارض المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم التي بني عليها الانتداب".

"شو اسم الأميركي الطيب هذا؟".

"مستر لافوليت". أجاب عبدالله على سؤال عبد الحفيظ من دون أن يرجع إلى الصحف، ثم تحدث عن تقارير إخبارية حول توقع ثورة في سوريا.

"الخبر الآخر..." واصل عبدالله تلخيصه لما يراه مهماً للمستمعين"... إن المؤتمر الصهيوني الرابع عشر الذي عقد الشهر الماضي في فيينا تبنّى اقتراح بإقامة مؤتمر يهودي عالمي ليحل بدل الوكالة اليهودية، وهدفهم من ذلك التناغم أكثر مع نص وعد بلفور".

"أعطينا خبر كويس". قال عمي حسان.

"الأدارسة والسعودية عقدوا اتفاق معاهدة حماية لمنطقة عسير ضد الغزوات اليمنية عليها وعلى الحديدة. وقَّع عن السعودية الملك عبد العزيز وعن عسير السيد حسن الإدريسي. هكذا تتوسع السعودية وربما يخاف إمام اليمن ويكف عن الغزو وتحقن دماء المسلمين هناك". لم يكن هذا ما أراد عمي سماعه إذ هزَّ رأسه انزعاجاً وهو يلف سيجارة من دخانه الخاص الذي منع الإنجليز استعماله، لتشجيع استهلاك دخان شركاتهم فقط.

"هل تعرف يا أبا عودة فوائد الدخان؟" تطلع الجميع إلى الشيخ عبد الهادي الأشقر، وسأله عمي حسان عن تلك الفوائد.

"المدخن لا يصاب بالشيخوخة، واللصوص لا يسرقون بيته، والكلاب لا تقترب منه". سكت عبد الهادي وفهم الجميع أن في الأمر سراً يحتاج إلى تفسير حكيم.

فتح عبد الحفيظ عينيه الكبيرتين الواسعتين عن آخرهما، ورفع حاجبيه وهو يعلن بصوت جهوري أنه فسَّر الأولى، وقال على الفور "الدخان يمنع الشيخوخة لأنه يؤدي إلى الموت المبكر..." حاول إكمال التفسير ولكن ذهنه لم يسعفه بسرعة.

"ويمنع سرقة البيوت..." قال الشيخ ربيع "... لأن المدخن يسعل طوال الليل، فيظن اللصوص أنه سهران". سكت ربيع وعلى الأرجح أنه كان قد فسر اللغز الثالث، ولكنه فضل إفساح الفرصة أمام الآخرين.

"أما منع اقتراب الكلاب من المدخن فهي الأسهل تفسيراً". وقبل أن يكمل السيد أبو شرخ حديثه أفلتت منه التفاتة إلى عكاز أبو عبد الحفيظ، فعم الضحك بين الحضور، وفسّر الذين فهموا للآخرين معنى الإشارة والعلاقة بين الدخان والعكاز والكلاب، وقال عمي حسان إن الذنب على من اخترع الدخان. قبل الانطلاق لتأدية صلاة العشاء في الجامع أكّد أبي وعمي على الجميع تناول الغداء غداً هنا.

عاد الجميع من الجامع إلى بيوتهم، ولربما اتجه بعضهم إلى مقعد حمولتهم، لكن الأغلبية من الرجال في ليلة الجمعة يعودون بعد صلاة العشاء إلى زوجاتهم. كامل أبو نحل وحسن الشيخ وأنا انطلقنا إلى بئر البلد ثم استدرنا جنوباً نحو الشارع العام باتجاه دير سنيد. الهلال يضيء المنطقة، وكل منا يحمل نبّوته لردع أي ضبع أو واوي قد يعترض طريقنا. لا هدف محدداً علينا الذهاب إليه في هذه الساعة، أردنا تبادل المعلومات، وآخر أخبار صبايا بربرة. كان

من الممكن أن نبقى وسط القرية، على التبة، ولكن شيئاً من التحدي سحبنا معه، ولم يشأ أي منّا إظهار تردّد أو خوف بطلب العودة. حمل كامل النبّوت بالعرض على كتفيه وعلق يديه على طرفيه بينما نسمات الهواء تتلاعب بأطراف الديماية وتظهر قنبازه الأسود. أما حسن فكان يطلق المواويل كلما توقفنا عن الحديث، فهو يكره صوت السكون، أو يخافه، ولم يكف عن خبط النبوت بالأرض وكأنه رجل ثالثة. توقف عن موال ميجانا محوّر، وسألنا إذا سمعنا عن آخر تطورات أم شريف.

"ثبت الآن أنها جنّية". نظرنا إليه ليفسر هذا التأكيد.

"نامت تعبانة في الخص أثناء التعزيبة لقطف العنب قبل شهرين". مددنا رؤوسنا إليه لأنه خفض صوته. "صحا ابنها الصغير وبكى كثيراً. كان جوعان يريد الحليب وهي تعبانة لا تريد الحركة. ثم سكت الطفل فجأة في اللحظة التي اقتربت منها حماتها لتستطلع سبب بكاء الطفل". انخفض صوت حسن أكثر فتوقفنا عن المسير. "حماتها شافت بزها ممدود مترين وترضع الولد من بعيد لأنها تعبانة ولا تريد أن تتحرك".

"حماتها حكت هالقصة؟" سألت حسن باستغراب وقد عدنا إلى المسير بين أراضي هربيا وبيت جرجا.

"وبعدين شو عمل جوزها؟" سأل كامل.

"شو بدو يعمل؟ ما هو عارف أنها جنية طبعاً، وأخذ عليها عهداً أن تتصرف مثل الإنسيات. يمكن بهدلها على هالتصرف".

الإشاعة قديمة في بربرة عن أبي شريف أنه تزوج جنية، ولكن لا يوجد إثبات، كما لا يجرؤ أحد أن يسأله مباشرة. فإذا كانت جنية فقد تسخط المتطفل، وإذا لم تكن فمن العيب الوصول بالشك

إلى هذه الدرجة، فقط لمجرد أنه تزوج واحدة غريبة وجميلة وتكثر من تغيير لباسها وشكلها بخلاف ما تقوم به البربراويات.

"يا ريت ألاقي جنية أتزوجها". قال كامل وأخذ يعدد فوائد مثل هذا الزواج، لن يعاديك أحد، لن تحتاج لأحد أو لشيء، يمكنها القيام بكل الأعمال في غمضة عين، النقود والذهب بدون حساب، ستبقى جميلة وكل يوم في حال حسب الطلب.

"ويمكن تطلب منك تنام معها وهي في هيئة حمارة أو سحلية، شو تعمل حينها؟".

"أعمل لها زي ما بدها وهي تعمل زي ما بدي". كان هذا جوابه الجاهز السريع عن سؤال حسن. توقّفنا فجأة واستدرنا سوية شمالاً عائدين إلى بربرة. لقد شاهدا مثلي ما أظنه دخاناً على شكل قوس كبير فوق الشارع. التفت حسن إلى الخلف، وأسرع خطواته، فجاريناه.

"إنها رؤوس ورقاب جمال مقطوعة تلاحقنا". قال كامل، وكنا قد أطلقنا سيقاننا للريح ووضعنا أطراف الديمايات في الأحزمة. توقفنا لالتقاط الأنفاس على الشارع العام قرب بابور الطحين إذ تجاوزنا حارتنا والبركة المحاذيتين للاسفلت على بعد ثلاثين متراً. لم يعد شيء يطاردنا الآن. وقفنا قليلاً تحت الجميزة نستمع لأنفاسنا اللاهثة وإلى هديل حمامات خائفة أن نسرق صغارها.

"ما رأيكم أن نذهب لدار الجنية ونبصبص ماذا تفعل؟" لم يكن كامل قد هدأ تنفسه عندما استشارنا بهذا الرأي. رفضت الاقتراح بإشارة من يدي وتحركت نحو حارتنا، فتبعاني، ثم افترقنا كل إلى منزل أهله. طلبت إليهم عدم الكلام الآن فقد يكون البعض ساهرين، فيسمعوننا ويظنون بنا الظنون.

كان الفانوس مضاء في غرفة أبي، فلم أشأ إزعاجهم، وصعدت إلى السطح فوجدت أن أحمد قد جهَّز فراشاً لي وقد غطَّ في النوم. سحبت الغطاء من بين ساقيه ووضعته فوق بطنه بحسب وصية بدوي أعرفه في يافا يؤكد بضرورة تغطية المعدة في الليل مهما كان الجو حاراً، ومن لا يحترم هذا القانون سيعاني من متاعب متنوعة. غالبية أهل بربرة ينامون أثناء الصيف في المعرشات على السطوح بحثاً عن نسمات الهواء. منزلنا مقام وسط حاكورة فواكه، وأحياناً كنت أنام تحت شجرة تين أسود. وفي يوم ما سوف أوسع الدار وأبني غرفاً من الحجارة وعلية مرتفعة تكشف كل البلد وما خلف الكثبان الرملية الدائمة الزحف علينا من ناحيتَيْ الغرب والجنوب. ومن فوق النخلة أمام المطبخ يمكن رؤية البحر عبر الكثبان، لكن بناء منزل بهذا الارتفاع سيكون مرهقاً وربما لا يناسب محيط القرية .

***

نساء تل ابيب

طوال الطريق إلى الرملة لم يتوقف الركاب عن تبادل الأسئلة في ما بينهم، وتبادل أخبار الزلزال الذي أصاب فلسطين وشرق الأردن، يوم 11 تموز/يوليو، أي قبل أسبوع بالضبط. لم نشعر في يافا بأي حركة في الأرض، ولم تتهدم أبنية مثلما حصل في القدس ونابلس وعمان والسلط واللد والرملة. كنت سأقود الباص في رحلة العودة من الرملة إلى يافا حتى أتقن مهنة القيادة، وأتعرف إلى الطرق، وعلى الرغم من أنني أجلس إلى جانب السائق، إلّا أنني كنت أستمع إلى أحاديث ركاب الرملة يصفون كيف خرجوا إلى الشوارع عندما شعروا بحركة الأرض تحت أقدامهم.

أوردت صحف يافا في الأيام الماضية تفاصيل عن الخسائر، وأكثرها في نابلس حيث قدرت من الخبراء الأجانب بخمسة ملايين دولار، وجرح 900 نابلسي. أما في القدس فقد تدمرت محطة القطارات وتصدع المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ولو أنهما لم يتمّ ترميمهما قبل عامين فقط بتبرع من الشريف الحسين بن علي، لولا ذلك لما صمدا أمام هذا الزلزال الذي دمَّر ألف بناية إلى الغرب والشرق من نهر الأردن، منها فندق في القدس وقتل أكثر من 500 شخص.

"إنه غضب من الرب". قال عجوز حاسر الرأس من بين الركاب، وسمعت همهمات من طراز، الله ارحمنا، يا لطيف، ثم

أكمل العجوز وهو يمسح العرق عن جبينه: "لقد أوقف سبحانه وتعالى مياه نهر الأردن عن الجريان".

"توقفت المياه ليوم واحد وعادت للجريان". قال شاب لبس طربوشاً ويمسك جريدة بإحدى يديه، وكنت قد سمعته قبل ذلك يقول إنه من سكان يافا وفي طريقه لزيارة أقاربه في الرملة للاطمئنان عليهم.

"يوم أو أسبوع يا أخي، المهم أنها وقفت ..".

"وقفت بسبب انهيار الرمال والحجارة التي سدت النهر، وعادت المياه وحدها بعد أن شقت طريقها". عاد الشاب متابعاً حديثه، مقاطعاً أحد أنصار فكرة العجوز بأن ما يحدث غضب إلهي وانقطاع المياه غضب إضافي. وقال الشاب أيضاً، إن منطقة وادي الأردن شهدت زلزالاً في عام 1923 لكن هذا الزلزال الآن، بعد أربع سنوات، أشد من سابقه، "ويمكن الزلزال القادم يدمِّر كل البلد، فنتخلص من طمع اليهود فيها".

"يعني أنت لا تصدق أن ما يحدث هو غضب إلهي؟". أمسك العجوز بلحيته وواصل الحديث بتحدٍّ: "طيب ما سرّ صعود الدخان الأبيض من باطن الأرض في القدس القديمة؟".

يبدو أن الشاب كان ملماً بكل تفاصيل الزلزال وأخباره لأنه أخذ يشرح بصوت جهوري بأن صاحب كراج سيارات كان يصرّف دخان محرك في مواسير المجاري، وأن الدخان وجد طريقه عبر الشقوق إلى السطح فأرعب كل من شاهده أو سمع بالقصة المهولة.

"صاحبنا بالتأكيد شيوعي" همس السائق في أذني بعد أن أشار عليَّ بالاقتراب، لكني تذكّرت إحدى قصص الشيخ عمر، شريكي في غرفة المنامة بالكراج والتي تنطبق على العجوز الملتحي. تقول القصة إن الذقن كلما طالت تدل على قلة عقل صاحبها. وقد قرأ

أحد الملتحين هذا النص ليلاً، فأخذ لحيته بيده وقرب الفانوس مما زاد من ذقنه عن قبضته ليقصرها، فاشتعلت النيران فيها ووصلت إلى يده فرفعها وأصابت النار بقية لحيته ووجهه. بعد أن أنقذ الرجل ما تبقّى من الشعر على الوجه كتب على حافة الكتاب، إن هذا النص صحيح ومجرّب.

عدت، وأنا أبتسم، إلى التدقيق في أسلوب السائق وتعامله مع الماك، والتعرف على تضاريس الشوارع، وكنا قد تجاوزنا يازور وبيت دجن وخرجنا عن الشارع المسفلت واقتربنا من صرفند على طريق ترابي يثير الغبار من خلفنا.

بقيت كلمات العجوز عالقة في ذهني، فالسنوات الماضية كانت صعبة جداً، العمال في يافا لا يجدون عملاً، وحتى العمال اليهود من دون أشغال، لذلك ضاعفوا من التظاهرات مطالبين بطرد العرب من مزارع اليهود ومصانعهم حتى يأخذوا أماكنهم، ومن هو بحاجة إلى قرض من الفلاحين فعليه أن يرهن الغلة، وإذا لم تكن جيدة فقد يأخذ التجار أرضه، وهذا يحدث في كل القرى الآن. "غضب الرب" أصاب الأرض إذ أجدبت. وأصابنا قحط العام الماضي وهذا العام أيضاً، الجفاف في كل مكان وأصحاب المواشي يشتكون من قلة الغلة وارتفاع أسعار العلف، أما الأبقار فقد أصيبت العام الماضي بأمراض لم نكن نعرفها أو نسمع عنها. أتذكر نصائح الإنجليزي روبن الذي ساعدني في تعلم مهنة القيادة، وكيف كان يحثّني على شراء الأرض، إنها الآن بأبخس الأسعار، لكني ما زلت بدون راتب يذكر، اللهم إلّا بدل الأكل والشراب والنوم في كراج الباصات. هكذا كان الاتفاق حتى أتقن المهنة وأتعرّف إلى الطرق لأتمكن من قيادة باص الماك وحدي ويصبح عندي معاون يربط حقائب الركاب على السقف، ويضرب بالمانويلا ويزوّد الباص

بالماء وينظف الزجاج. كان لديّ شركة بامية خمسة باصات، واحد على خط يافا غزة، والثاني يافا القدس، والثالث يافا عكا وباصان من يافا باتجاه القرى في الوسط والجنوب وبين القرى أيام الأسواق.

قبل الزلزال بأسبوع مكثت في بربرة لمدة يومين، البركتان الشرقية والغربية كانتا جافتين من المياه على غير عادتهما، وكل بهائم القرية ومواشيها تشرب من الآبار، مثل بقية الناس. ورأيت أن أهل البلد قد تشاركوا في تعزيز الدفاعات ضد زحف الرمال على الأراضي الزراعية من الغرب والشمال. لقد أزالوا الرمال وأقاموا منها سداً زرعوه بصفوف متراصة من ألواح الصبار.

حدثني عمي حمودة أنه لم يعد يذهب إلى بئر السبع لشراء الأغنام، لأن البدو صاروا يرعون مواشيهم شمالاً ويعرضونها بأسعار أرخص من زمان كون العشب عندهم قد خف بسبب القحط، لكن أهل بربرة واللحامين الثلاثة لا يشترون الكثير من الأغنام الآن، لأن نقود الناس قلَّت والكل يعتمد على إنتاجه الذاتي من دواجن ولحوم. مساكين البدو، لم يعد بوسعهم الغزو والنهب مثل زمان، ولا يرغبون العمل في الأرض، والآن جاءهم القحط لتعطيش مواشيهم ومصدر رزقهم الوحيد، ولا يجدون ما يطعمها أو يرويها أو من يشتريها، وفوق هذا وذاك لا يجدون الترحيب بين الفلاحين أو أهل المدن، وذلك حسب المثال العامّي السائد: "لا توري البدوي باب الدار". وكنت قد سمعت قصة مطولة مبهرة لهذا المثال من عمي عبد الحفيظ في المقعد، موجزها أن غزاوياً تشارك مع بدوي من بئر السبع وفتح دكاناً متنقلاً يؤمن له البضائع من مدينة غزة. وكلما أرسل إليه الأهل شيئاً يحضر الشريك البدوي ليشاركه في أكله. ذات مرة أرسل الأهل للغزاوي كنافة فذهب بها

بعيداً عن المضارب، وما كاد يفتحها حتى وجد الشريك فوق رأسه يسأله ما هذا؟ فقال الغزواي غاضباً، هذا لعنة تينك. تغابى البدوي وقال يلا نجرب لعنة تينك هذا. يئس الغزاوي وفض الشراكة وعاد إلى مدينته، ولكن البدوي لم يقطع الصلات وأكثر من الزيارات والمبيت والأكل والشراب في كل مرة. هكذا قرر الرجل التخلص من الضيف الثقيل بأي شكل ونهائياً. استشار، فأشير عليه بأن يطعمه كنافة مشبعة بالعسل وزيت الخروع، ثم يذهب به إلى الجامع للصلاة. كانت النتيجة أن الضيف عملها في السروال وغادر المدينة بفضيحة، ولكنه عاد بعد سنوات ليرى إن كان الغزاوية قد نسوا القصة، فسمع بعضهم يقول بأشياء حصلت سابقاً وينسبها إلى السنة التي عملها البدوي في الجامع، فعرف أن عودته أصبحت مستحيلة.

في الواقع إن تعاطفي مع البدوي له سبب، فهو يكرم الضيف في الصحراء والقفراء، يقدم ما لديه من الماء الغالي ومن حليب وجبن، ويوفر الأمان لضيفه من دون سؤال عن سبب الزيارة، ولأنه لا يزرع ولا يذهب إلى العمل فلديه الوقت لمجالسة الضيوف لأيام ولياٍل من دون أن تتعطل حياته. بالطبع لديه مبرر بتوقع معاملة مماثلة عندما يزور الفلاحين والمدن، ولكن هؤلاء يكدّون طوال النهار وينتهزون أي ساعة للنوم، ولا وقت لديهم للتقيُّد بضيفٍ ومجالسته وإطعامه لأيام. ويبقى أهل القرى أفضل في شؤون الضيافة من أهل المدن، فلديهم مضافات في القرية عند زعماء الحمايل أو المختار، أو على الأقل في إحدى زوايا الجامع أو بالقرب منه، ولكن أهل المدن بيوتهم صغيرة وغرفهم متصلة ويصعب عزل الحريم عن الضيوف لفترة طويلة، ومن لا قريب مقرب له في المدينة فعليه اللجوء إلى الفندق، أو بالطبع الجوامع، ولكن من دون توقع أن يطعمه أحد. أين حياة البدوي في الصحراء

من حياة الفلاح في القرية من حياة سكان المدن مثل المجدل وأسدود واللد، من حياة سكان مدن الساحل، ومن حياة سكان يافا.

أكثر المدن التي تزار الآن هي القدس، ويافا التي تضيء الكهرباء شوارعها ليلاً وتفتح سينماتها ومقاهيها ونواديها في الليل لسكانها كما للزوار الذين يملكون الجنيهات المصرية، وتزدحم نهاراً بالسيارات والباصات والتاكسيات التي أصبحت أكثر من حناتير الخيول. ميزة يافا، بالنسبة للكثيرين، أنها مرتبطة مع تل أبيب، أم الانفتاح الليلي والقصص العجائبية، حسب روايات أبو حمزة الذي يشاركني، والشيخ عمر الترك، غرفة النوم في الكراج. لقد قاومت طوال الشهور الثلاثة الماضية إغراءات أبي حمزة بالذهاب معه إلى تل أبيب ليلاً، واكتفيت بسماع قصص عمر الترك عن الغرام والمطارحة عند العرب والمسلمين أيام الخلفاء والأمراء، وهو أبعد ما يكون عما يخبرنا به زميلنا كلما غزا تل أبيب.

أبو حمزة يتحدث عن نساء شبه عاريات "زي الفستق" يقفن أمام محلات في الشوارع ويطلبن من المارة الدخول معهن للمضاجعة مقابل قروش يتفق عليها سلفاً. يقول إنهن من كل بلاد العالم، وتجدهن أشكالاً وألواناً لا تفهم ماذا يرطنّ من لغات. "الجميلة سعرها فيها" كان يقول لنا، وعندما لا يريد الإنفاق كثيراً يجد واحدة قبيحة سمينة قصيرة فترضى له بشلن فيقضي حاجته معها في إحدى زوايا شارع مظلم. لكن وصفه للجميلات من بائعات الهوى لم يكن قابلاً للتصديق، خصوصاً وهو يصف جسمها العاري وشعرها الأشقر وتفاصيل الصدر وطيات البطن وفتحة الصرة، والفخذين وما بينهما من شقار وبياض وحمار. كان الشيخ عمر ينهاه، بغير جد، ليسكت، ويقول له أنت هكذا تدعم المهاجرين

اليهود وتقوم بتشغيلهم، ولقد وصل تعدادهم في البلاد إلى 140 ألفاً، وخمسون ألفاً منهم وصلوا في السنوات الثلاث الماضية.

"يا ريت كل المهاجرين زي اللي بحكي عنهم وأشوفهن في تل أبيب".

"الكبانيات مليئة باليهوديات المسلحات، ليس كلهن مثل ما ترى في تل أبيب. عموماً، إن حسين يعرف من قصص العرب أفضل وأنظف مما تتحدث عنهن".

"لكن حسين عليه أن يجرب ويكثر وينوع قبل أن يتزوج".

"لا أريد الزواج ولا أفكِّر فيه، ولا أريد التجربة، لأن من يذوق الطعمية يرمي الطاقية. وأنظر إليك لا تشبع ولا تتوقف وأنت متزوج، مصيري ألتقي بنت عمك أم حمزة".

"لما تشوفها يمكن تعذرني، خليك على قصص الشيخ عمر". كان يقول كلما يئس من إغوائي، وأحياناً يدّعي التطوع بالاستعداد للدفع نيابة عني إذا رافقته.

تلك القصص والأشعار، البديلة، التي يرويها عمر مطعَّمة باسم الله وبعض الآيات ومدعَّمة بأحاديث، فيعرضها وكأنها بغاء مقدس، ولم تكن هي الأخرى تطرد أبليس والأفكار الشيطانية، أو حتى تحسن الظن في النساء.

رأيت النساء يشتهين من الفتى
خصالاً تكاد إلا في الرجال تكون
شباباً ومالاً وانفراداً وصحة
ووفر متاع في النكاح يدوم
ومن بعد ذا عجز ثقيل نزوله
وصدر خفيف فوقهن يعوم

بـــطـــيء الاهـــراق لأنـــه كـــلـــمـــا
أطـــال أجـــاد الـــفـــضـــل فـــهـــو يـــدوم
ومـــن بـــعـــد إهـــراق يـــفـــيـــق مـــعـــجـــلاً
لـــيـــأتـــي بـــإكـــرام عـــلـــيـــه يـــحـــوم
فـهـذا الـذي يـشـفـي الـنـسـاء بـنـكـحـه
ويـــزداد حـــبـــاً عـــنـــدهـــن عـــظـــيـــم

لكن قصص الشيخ وأوصافه للنساء، والرجال أيضاً، كانت أحياناً تسلّي وتُضحك، بل عندما أخذ ذات مرة يعدد في المكروه من أشكال النساء وأعمالهنّ، كنت أتصور بعض نساء القرية وكيف ينطبق عليهن الوصف والصفة. إن المكروه من النساء عند الرجال، كان الشيخ يقول، المرأة البارزة الجبين الضيّقة العينين، كبيرة الأنف وزرقة الشفتين، واسعة الفم مكمشة الخدين، مفترقة الأسنان زرقة العينين، صاحبة الشعر في الذقن، ورقيقة الرقبة بعروق خارجة، ذات صدر وأكتاف غير عريضة، لها نهدان كالجلود، وبطن كالحوض الفارغ، وصرة طالعة كالكوز، وضلوع كالاقواس، وظهر له سلسول، كبيرة الركبتين والرجلين واليدين، رقيقة الساقين. صاحبة هذه الخصال، أو من تجمع الكثير منها، لا خير فيها ولا في من يتزوجها.

كانت معرفة الشيخ بهذه الأمور لا تنضب، ولديه نكات وقفشات يسخرها في الأحاديث مع الأصدقاء فقط، ولكنه كان أيضاً يطالع الصحف كل يوم، ولديه قدرة على حفظ الأرقام والأحداث، وكان يلومني لأنني لم أتعلم القراءة، ولكنه يعذرني أيضاً. قبل أن نفترق عن بعضنا في السكن في نهاية العام، كان مرض التيفوس قد تفشّى في قرى وسط وشمال فلسطين، وقال الشيخ إن عدد الأطباء في كل البلاد 561 وهناك 160 صيدلانياً،

وجميع هؤلاء يعيشون ويعملون في المدن، بينما معظم مرضى التيفوس في القرى. هذا المرض انتشر في المانيا وروسيا وبولندا بعد الحرب، وسببه الفقر وانعدام النظافة التي تولد القمل والبراغيث ناقلة المرض، كما قال الشيخ. لكن طوال الشهور الماضية انتشرت إشاعة أن المهاجرين اليهود جلبوا هذا المرض معهم، وإنهم ينشرونه في القرى لإصابة الناس بالطفح على أجسادهم ثم موت معظم المصابين.

قبضت أول راتب لي بالجنيه الفلسطيني إذ حلت عملتنا بدل الجنيه المصري، وإن كانت بالقيمة ذاتها، بحيث إنّ كلاً منهما يعادل الجنيه الإسترليني. وبحسب معلومات الشيخ فإن الضائقة المالية قلَّلت من عدد الحجاج إلى مكة هذا العام وكانوا 621 فقط، ودفعت الضائقة بحكومة الانتداب إلى إعفاء الرعيان من الضرائب على المواشي التي نقلها أصحابها باتجاه الشمال، وتراجع محصول القمح والذرة ونقصت عوائد الحكومة من الضرائب وعجزت عن دفع رواتب الموظفين والشرطة، ولم تسدد الحكومة إلى لندن القرض الذي حصلت عليه بقيمة أربعة ملايين ونصف مليون جنيه. والخبر الجميل في كل هذه النكسات، حسب الشيخ عمر، أن نقص مداخيل الحكومة من العرب أدى إلى أزمة في نفقات توطين المهاجرين اليهود، أما الحدث الجديد هذا العام فهو أن الإنجليز باشروا، ولأول مرّة، باستعمال الطائرات في تعقُّب الثوار وضرب معاقلهم الجبلية.

حضر أحمد من بربرة ليرى بيتي الذي استأجرته في المنشية، ومكرراً عليّ الطلب أن أعلّمه قيادة السيارات. لم يكن لدي مانع بالطبع ولكنه لا يزال صغيراً ولا يمكن التلاعب وتزوير المستندات الثبوتية لأنه قصير سمين أبيض أجرد ووجهه طفولي، حتى عندما

يبلغ السن القانونية سيكون من الصعب أن يصدقوه. أقنعته أنني سآخذه معي في الباص وعندما نكون وحدنا سأدعه يمسك المقود، لأن هذا أهم شيء في القيادة. كنت أعرف أنه عندما يجلس على الكرسي فإن قدميه لن تصلا إلى الدواسات.

"أبوك يقولك شد حيلك وادخر النقود حتى تتزوج من فاطمة".

"وغير هالقصص، شو في حكايات من بربرة؟".

"أختك خديجة وأختها فاطمة أرادتا الحضور معي لزيارة يافا، ولكني تهربت وقلت لهن المرة القادمة أخذكن معي".

فاطمة بنت مريم محمود من زوجها الأول، وقد حضرت مع أمها عندما تزوجها أبي، لأن بيت عمها كانوا يعاملونها بقساوة، فعاشت في بيتنا، وأنجبت أمها من أبي زينب وخديجة، فصارت فاطمة أخت أخواتي. ومنذ غدوت سائقاً وأمها تزنّ على أبي أن يزوجني إياها. عموماً، عائلات البلدة كلها، تتزاوج من بعضها بعضاً، وخصوصاً الأقارب. أمي عائشة، رحمها الله، هي أخت ذيب نشوان، والد فاطمة. ماتت أمي قبل أخيها بكثير، ثم تزوج أبي من مريم محمود أرملة خالي ذيب، وهي أيضاً أخت حمودة. وهذا الأخير تزوج من حليمة وهي من دار أحمد، وأنجب منها، لكنه تزوج عليها منذ زمن عمتي فاطمة حسين التي كانت زوجة للشيخ محمد شقيق حمودة الذي أنجب منها أحمد وثريا وخديجة، ولكن الشيخ محمد مات في حرب تركيا، فصار عمي عبد الحفيظ يريد الزواج من بنت عمه فاطمة، فتقدم لها حمودة وتزوجها وأنجب منها محمود.

نساء العائلة يظنن أن هذا التزاوج الإضافي يتم طمعاً في أرض ومال، ولكن حتى يتزوج حمودة من عمتي فاطمة، اضطر لبيع بقرة زوجته الأولى حليمة، وفي ليلة الدخلة صارت ثريا، ابنة عمتي

تبكي، فأعطوها لحليمة لتقوم بإسكاتها. لقب عمتي هو فاطمة حسين الحلوة، وهذا سر الإقبال عليها إلى جانب أنها قوية أيضاً، والرجال يرغبون الزواج باثنتين حتى يشغلاهما في الأرض، وحتى يكون عندهم امرأة أخرى للمضاجعة، أو إذا حردت واحدة يكون هناك غيرها، ويترك الحردانة حتى ترجع من دون واسطة.

"أحسنت يا أحمد إنك حضرت وحدك. لا تحضر أحداً معك حتى نرتب البيت أكثر وحتى أبلغك بذلك".

"تعرف أن في اثنين انجنّوا في البلد". قال أحمد ونحن نجلس لتناول العشاء، وانطلق بروايته بعيداً عن أخبار العائلة. "محمد نسيب أبو شرخ، راح على يافا ليسرق ديك حبش من مستعمرة لليهود. زقطوه وضربوه إبرة وأطلقوه. رجع بربرة مجنون يخبط شمال ويمين، وحطوه في غرفة وصاروا ينزلوا له الأكل من فتحة في السطح. ولا واحد يقدر يفوت عنده، وصارت دقنه طويلة جداً".

"لا حول ولا قوة إلّا بالله، هذا شاب، كيف انجن شو هذه الإبرة؟ الله يعين أهله".

"وأبو الحلي كمان انجن. صار شعره أبيض بين يوم وليلة". قال أحمد وعينه تحوّل على النمورة، فقلت له إن دورها سيأتي بعد العشاء، فأكمل ما سمع في البلد. "كان مروّح من حاكورته بعد المغرب، فاعترض عربيد طريقه، وأكيد عرف أنه جني متنكر. صار يروح شمال، العربيد يروح شمال، يروح يمين، العربيد يسكر الطريق من اليمين. صار يحلفه بالله أن يتركه وحاله ليعود لعياله، ولكن العربيد استمر يعطل مروره. ضربه بالطورية فقطع رأسه وعاد يحكي لأهله شو صار معه". كنت أعرف أن روايات أحمد ينقلها بكل التفاصيل والبهارات من عجائز بربرة، ولا داعي لاستعجاله. جرع من القربة الفخارية طويلاً وأكمل: "ثاني يوم زاره عساكر في

الحاكورة، وقالوا أنت متهم بقتل واحد بالأمس، تفضل معنا للتحقيق".

"أعوذ بالله لم أقتل أي أحد بالأمس أو قبل ذلك".

"تعال لنريك الجثة إذاً". أعطى أحمد أصواتاً مختلفة، فالشرطة تحدثت بنبرة قوية، والمتهم بهدوء وخوف، ثم عاد إلى صوته. "مكان قتل العربيد شاهد شاباً جميلاً ميتاً لأن رقبته مقطوعة. صار يحلف أنه لم ير الشاب قبل الآن، ثم تذكر العربيد وقال لهم قتلت عربيد هنا بالأمس لأنه اعترض طريقي ورفض الإفساح لي. فتحوا باباً تحت الأرض ونزلوا كلهم إلى محكمة فيها قاضٍ وعساكر وكتبة. سمعوا قصته كلها وحكموا عليه بالبراءة وأعادوه إلى سطح الأرض بعد أن أخذوا عليه تعهداً أن لا يقتل أي جني بعد الآن. عندما وصل إلى البيت صار شعره كله أبيض. أنا شفت شعره، ولا واحدة سودة".

"لكنه كان دايماً مغطي راسه، يمكن شعره صار أبيض شوية شوية من زمان".

"زوجته ما تعرف إذا كان أسود أو أبيض، هي اللي نقلت قصته للنسوان". قال أحمد "ليؤكد حقيقة ما حدث للذي جلس في البيت ولم يعد يغادره حتى لا تنتقم منه العفاريت، ولا يهش أو ينش حتى ذبابة".

***

يهود يافا

بعد تظاهرة القدس، ثم تظاهرة حيفا، جاء دورنا للتظاهر في يافا هذه الجمعة بعد الصلاة مباشرة، للتنديد بسياسة بريطانيا وإخلالها بكل الوعود التي قطعتها عن الاستقلال، وفتح باب الهجرة اليهودية على مصراعيه ونصبها المشانق للمناضلين. أصرت فاطمة على المشاركة في التظاهرة وكانت تزهو بملابسها الجديدة، ثوب مطرز جنة ونار، وشاشية بيضاء، وحفاية. لم يمضِ شهران على زواجنا، وقد حضرت لتسكن معي في يافا، فلم أعترض على طلبها ولكني طلبت منها خلع العقد والأساور الذهبية وتركها في البيت. شرحت لها كيف تعود من وسط يافا إلى بيتنا في المنشية إذا حمي وطيس التظاهرة وتفرقنا عن بعض. لقد وصلتنا تفاصيل ما حدث في القدس من هجوم الجيش والشرطة البريطانية وضرب المتظاهرين بعنف.

لم أذهب للصلاة وتجولت حول الساحة وسط المدينة حيث تقرّر اللقاء بعد الصلاة. كانت أفراد الشرطة البريطانية من المشاة والخيالة قد تجهزوا وتجمّعوا. تسلح الجنود بالخوذ وحملوا الدروع والهراوات، وحمل الخيالة هراوات أطول وبنادق للرصاص المسيل للدموع، وكانوا كلهم يحملون مسدسات وأمشاط ذخيرة يلفّونها فوق بطونهم وليس على خواصرهم.

لقد بدأت المعركة حتى قبل أن تتحرك التظاهرة. تجمع آلاف

الناس في الساحة، وعندما أراد موسى كاظم الحسيني إلقاء خطبة قبل المسير، تحرك الجند لدفع الناس إلى الوراء، إلى الشارع الخلفي، وكان الخيالة على مسافة أمتار من جند المشاة، ثم بدأ الضرب لمن تباطأ في التراجع، وهجم ثلاثة من الخيالة خلف بضعة جنود على الحسيني وضربوه، فقد بقي الرجل مكانه في المقدمة عندما تراجع الجمهور، ولم يتمكن أعوانه من حمايته، وسقطت طرابيش معظمهم، لأن الذعر ساد الجميع عندما أطلقت رصاصات، وانتشر بيننا أن موسى الحسيني أصيب بواحدة منها ولكنها لم تقتله. تشتت الشمل، ولم يعد للتظاهرة من جدوى لأن الاشتباك ليس ما نريده، فقد كان هدفنا إبلاغ الإنجليز غضبنا ورفضنا لسياستهم في تهويد بلدنا، وردوا علينا بأنهم لا يريدون نقاشاً ولا يعرفون غير العنف والضرب، ولم يحترموا عجوزاً مناضلاً سلمياً عمره فوق الثمانين سنة لا يحمل سلاحاً ولا يرمي حجراً.

"لو كان معنا عشرة مسلحين قناصة فوق سطوح البيوت حول الساحة لكان ضحاياهم أكثر منا ولفكروا مليون مرة قبل أن يهاجموا مظاهرة سلمية مرة أخرى، ولو اقتنعنا أنهم كذابون من عشر سنوات وبدأنا نحاربهم لما وصل كل هؤلاء اليهود الآن". قال شاب يخطب في مجموعة من الهاربين التفّوا حوله بعيداً عن هراوات الإنجليز. "لا أعرف ماذا ينتظر قادة البلد، الإنجليز يقولون جهاراً نهاراً ومن يوم أن احتلوا البلد قبل ست عشرة سنة إنهم يريدون فلسطين لليهود، وقد أعطوهم الوعد في عام دخولهم علينا، ويطبقون في وعدهم عيني عينك، ونصّبوا مندوباً سامياً يهودياً من واضعي وعد بلفور، وذكروا هذا الوعد في مقدمة الدستور الذي رسموه لفلسطين في عام 1922، أما قادتنا فإن الأمل لا يفارقهم

بعدالة الإنجليز. كم وفداً أرسلوا إلى بريطانيا، خمسة، والكتب البيضاء القادمة أكثر من سابقاتها، والنتيجة تسليم متسارع لليهود، ثلاثون ألف يهودي وصلوا هذا العام فقط، يعني على هذا المعدل كمان عشر سنوات، في عام 1943 سيكون اليهود أكثر منا".
اقتربت أصوات حوافر الخيل فتفرقنا وعدت إلى المنشية لأطمئنّ على فاطمة التي أرسلتها إلى مؤخرة التظاهرة منذ البداية.

"والله يا حسين ماهم نافعين رجال يافا، كلهم هربوا، ولا واحد كان معه عصا أو نبّوت أو حجر".

"الإنجليز معهم سلاح ويطخوا اللي ما يهرب، طخوا كاظم الحسيني لأنه ما هرب وضربوه بالعصي ويمكن يروح فيها الختيار يا فاطمة".

"هذا ما أقوله، كيف ينضرب زعيمنا وأفنديته بالطرابيش واقفين جنبه، لو كانت المظاهرة في بربرة ما كنا تركناهم يهينوا الزعيم واحنا نتفرج".

"اسمعي، إحنا في يافا، وهؤلاء ناس مدن متحضرين، يتقاتلوا ويتخاصموا باللسان فقط مش زي القرى كل شيء يحل بالنبوت".

"يعني يا حسين الإنجليز زي القرى! كل مشاكلهم يحلوها بالعصي والضرب، وأهل يافا متحضرين بدهم حلول باللسان".

"طيب إنت صحلك عصا؟"

"والله لو أمسكت واحد إنجليزي لنزلته عن الفرس وكسرت رأسه". كانت تضحك وهي تبالغ وأضافت: "شفت يافاويات واقفات عند كراج الباصات، وقفت معهن أتفرج عليهن ويتفرجن على ثوبي. منهن نسوان لابسات بالطو أسود ومغطيات رؤوسهن وشعرهن ووجوههن بالأسود، الله أعلم كيف يشوفن الطريق، وستات لابسات بالطو أبيض ولافات رؤوسهن بقماش أبيض

ومغطيات وجوههن بالأسود، وفي لابسات أسود وعلى الوجه شاش منخل أبيض، وكلهن لابسات كفات أيدي. وستات لابسات طواقي ومكشفات الوجه واليدين، وبنات مغطيات الشعر ومكشفات الوجه". كنت أبتسم في بداية حديثها وأصبحت أضحك من الحيرة على وجهها وهي تعيد وصف ما شاهدت وتعتبره من الأعاجيب.

"كلهن يا حسين مغطيات من فوق وكاشفات من تحت. الفساتين حتى الركبة فقط، ولابسات جرابين شفاف على كل الساق، ولا واحدة حافية القدمين. كنادرهن أشكال وألوان، والستات حاملات شنط يد صغيرة".

لم تكن فاطمة تتجول في يافا منذ وصلت من بربرة إلّا نادراً، وعلى الأرجح أنها لم تشاهد من قبل خليطاً متنوعاً من النساء متجمعات كما شاهدت اليوم .

رافقتني الشهر الماضي إلى الشاطئ، فتعجبت وهي تشاهد النّساء والبنات ينزلن البحر وهنّ يرتدين بنطلوناً وقميصاً من اللون نفسه، ومن القماش الذي ينكمش على أجسادهن عندما يبتل بالماء. ظنتهن يهوديات، فقلت لها آنذاك إنهن عربيات، إن اليهوديات يسبحن في بحر تل أبيب بالشورت وحمالة الصدر فقط، ولم تسأل عن أي تفاصيل.

"صاحبات الطواقي من المسيحيات، والمتنكرات من المسلمات، أي لباس أعجبك أكثر حتى اشتريه لك؟" أردت المزاح معها فقط، فأنا أيضاً لا تعجبني هذه الملابس.

"ولا واحد، كيف أغطي وجهي ورأسي وأكشف عن ركبي، وألبس فستان يطير مع الريح، أو إذا انحنيت.." لم تكمل ماذا سيحصل إذا انحنت.

"المرأة من هؤلاء يا فاطمة لا تشتغل في الأرض، ولا تنحني

في الشارع لتلقط خبيزة ولا تحمل الجرار على رأسها وعلى خاصرتها.." .

"لكنهن يشتغلن في البيت.." .

"صح وعندما تنحني يراها زوجها". عرفت أنني أناكفها فقط، فزمت شفتيها ولوحت برأسها.

حملت طنجرتين صغيرتين ونزلت إلى مطعم السيد أبي ابراهيم الذي يعدّ كل جمعة أرزاً ومجموعة أخرى من المأكولات والأطعمة إلى جانب المشاوي العادية. لقد دعت فاطمة بالأمس جارتنا أم محمد، زوجة صاحب الغرفتين اللتين نسكنهما، لتزورها عصر اليوم، وتطور الأمر لدعوة زوجها أيضاً بعد تناول طعام الغداء، ولهذا، فالأفضل أن لا تبدأ فاطمة في تحضير الطعام والتنظيف قبل وصول زوارها.

"كاظم باشا من الناس الذين قالوا في مؤتمر فلسطين العربي قبل خمس سنوات إن الانتداب هو سبب المشكلة، وهو من الناس الذين طالبوا بانتخابات وتشكيل برلمان وحكومة فلسطينية، لكن الإنجليز رفضوا". كان الرجل يتحدث وهو يدفع ثمن مأكولات اشتراها من أبي ابراهيم، بينما تجمع حوالى عشرة ينتظرون استلام طلباتهم. واصل حديثه: "هذا الرجل كان متصرف لواء في الجزيرة العربية وسوريا وآسيا الصغرى أيام العهد التركي، وعيَّنه الإنجليز عمدة للقدس عندما احتلوها، ولكنهم عزلوه عام 1920 لأنه عارض سياستهم".

"هل مات كاظم باشا؟" سألت أبا ابراهيم بعد أن طلبت أرزاً وبامية باللحمة.

"لا لا سمح الله، لم يمت ولكن وضعه صعب كما سمعنا".

قال أبو ابراهيم، وهذا يعني أن القوم يتجادلون في الوضع السياسي أثناء انتظار الطعام.

"طيب لما أعلن المفتي الجهاد المقدس قبل أربع سنوات شو صار، هجم جماعته على اليهود عند حائط المبكى، وهجموا على اليهود في الخليل وقتلوهم، ولكن ما هجموا على الإنجليز.." قال يافاوي شاب بطربوش وجاكيت وبنطلون ".. بالعكس الإنجليز هجموا علينا وقتلوا 120 فلسطينياً وأعلنوا الطوارئ وعلّقوا الثوار على المشانق في عكا".

"لو هجموا على الإنجليز وقتلوا 100 منهم، كان ما عملت لندن لجنة شو وأصدروا كتاب أبيض.." قاطع أكثر من واحد العجوز المؤيد للإنجليز وسألوه كم لجنة صاروا عاملين وكم كتاب أبيض ناشرين، وهل توقف سيل اليهود المهاجرين.. فسكت الرجل ومكث ينتظر استلام طلبيته من الطعام، بينما اتهمه رجل أربعيني بأنه على ما يبدو قد نسي ثورة يافا من أول شهر مايو عام 1921 وحتى منتصفه، وكيف وقف الإنجليز أثناءها بالسلاح إلى جانب اليهود.

"ممتاز.." عاد العجوز إلى الحديث ليثبت أنه لم ينس أي تفاصيل ".. وبعد أسبوعين من نهاية ثورة يافا ذهب وفد قيادي فلسطيني إلى لندن، وبعد شهر أعلنت عصبة الأمم مشروع الانتداب البريطاني على فلسطين".

لم أفهم هل هم مختلفون أو متفقون في هذا النقاش، أم أنّ كل واحد يتحدث بما يخطر في باله وبما يعرف من معلومات. فكرت أنه لو ضربنا اليهود وتخلصنا من مشكلة الهجرة، فإن الانتداب سوف ينتهي ويفشل، ونستقل مثل الدول الأخرى، ولو

ضربنا الإنجليز وطردناهم من فلسطين فإن مشكلة الهجرة اليهودية سوف تتلاشى وحدها؛ المهم أن نعمل شيئاً ونواصل ذلك حتى يثمر، أما أن نقتل 100 يهودي ويقتل الإنجليز 200 فلسطيني ثم يعملون كتاباً أبيض فنسكت أربع سنوات ونعود لتظاهرات سلمية هذه المرة لأن عدد اليهود تضاعف، فهذا كلام فارغ وقد يتكرر مرة بعد أخرى حتى تضيع البلد. أخرجني أبو ابراهيم من أفكاري حين ناولني طنجرة الرز وأختها بالبامية واللحمة.

أصبحت فاطمة خبيرة في تشغيل البريموس، لكن أم محمد رافقتها إلى غرفة المطبخ متعللة بالإشراف على التشغيل، وعادتا بعد قليل بالقهوة. في هذه الأثناء كنت قد حدّثت أبا محمد عن موقف فاطمة من اليافاوية، بعد أن تبادلنا الحديث عن مجريات هذا اليوم.

"أهل يافا هم أول من رمى اليهود في البحر".

"وعادوا طلعوا سباحة!" قالت فاطمة رداً على "أبو محمد" وأخذنا نضحك من تعليقها.

"لا، هذه قصة قديمة تثبت شجاعة اليافاوية. لكننا الآن يا أم ابراهيم نساير قياداتنا، وهم يناضلون بالمظاهرات والعرائض والوفود". لقد أطلقنا لقب أم ابراهيم على فاطمة على الرغم من صغر سنها على افتراض أننا سنطلق اسم أبي على أول مولود. أكمل روايته: "كان في طائفة يهودية تعيش في يافا مع السكان الآخرين من يونان ووثنيين، لا دين لهم. هذا كله قبل الإسلام وكمان قبل المسيح". تناول قطعة من حلويات النمّورة التي صنعتها زوجته وأحضراها معهما، ولم تعلّق فاطمة بل اشتد اهتمامها طالما القصة من طراز كان يا ما كان. "بمناسبة عيد يافاوي طلب السكان من اليهود أن يذهبوا معهم في نزهة بحرية ويأخذون معهم النساء والأطفال. يعني رحلة مجانية، وافق اليهود عليها إذ لم يخطر في

بالهم ماذا جهز الجيران لهم من مفاجآت. عندما وصلوا إلى عرض البحر كبّوا المئتين يهودي في الماء فغرقوا عن بكرة أبيهم وعادوا من دونهم إلى يافا. عرف يهوذا بالأمر فحضر مع جيشه إلى يافا، ولكنه فشل في اختراق الأسوار فأحرق السفن التي وجدها في الميناء وعاد من حيث أتى".

تدخلت أم محمد فسألت زوجها، من أين جاء يهوذا، ومن هو أصلاً. ويبدو أن هذا الأخير كان يتوقع السؤال، وهو للحقيقة رجل علم ويلمّ بالتاريخ، وكثيراً ما يجلس لمطالعة الكتب بالساعات على شرفة صالونهم في الطابق العلوي.

"يهوذا كان ثائراً يهودياً ضد ملك اليهود في القدس قبل ميلاد سيدنا المسيح وقبل وصول الرومان. وقد حقق انتصارات على اليهود وعلى الفلسطينيين الذين حاصروه ولكنهم جنحوا للسلم وتوقفوا عن القتال. بعد فترة استقوى يهوذا وهاجم الفلسطينيين والادوميين والجلعاديين وأهل الجليل فصار ينكّل بهم ويحرق المدن ويبيد الذكور ويسلب الإناث الشابات والصغار، بحجة أن أولئك الناس ضايقوا اليهود الذين يعيشون بينهم. وبعد هذا كله خاف أهل يافا، فأغرقوا اليهود في البحر، وفشل يهوذا في الوصول إليهم للانتقام".

"وكيف كانت نهاية يهوذا هذا؟" سألت فاطمة.

"جاءته جيوش جرارة من الشمال، من سوريا وملكها في أنطاكية، وأبادوه هو وجماعته، وبعد ذلك احتل الرومان فلسطين وطردوا بقية اليهود منها وتشتتوا في بقاع الأرض". واستطرد بصوت هادئ "وهاهم عادوا للمناكفة بعد أن لفظتهم بقية الأمم".

"ولفظهم البحر أيضاً". قالت فاطمة بصوت حيادي، ثم سألت أبا محمد عن أصل اليهود، وهل هم من فلسطين.

"أصلهم مثل أصلنا، أبونا وسيدنا ابراهيم خليل الله، وهم من أم ونحن من ثانية.."

"هنا المشكلة إذاً، لأننا أولاد ضرايـر، لو ربنا حرّم زواج أكثر من واحدة لانحلت الكثير من مشاكل الناس". قاطعت أم محمد زوجها وركزت على قصة الزواج وهي تنظر إلى زوجها مباشرة.

"وحِّدي الله، احنا نتحدث في السياسة وليس في الزواج..".

"أنت قلت إن أبانا واحد وها نحن نرمي بعضنا في البحر". عادت لمقاطعته ثم سألت فاطمة: "هل في واحد في بربرة من المتزوجين اثنتين عايش من دون مشاكل؟" يبدو أنهما قد تحادثتا في الأمر سابقاً وربما الدعوة كلها فخ منصوب لأبي محمد، ولم أكن أعلم أنه يفكر في الزواج من امرأة أخرى.

"ولا واحد منهم يتهنى في أكل أو شرب أو نوم.." قالت فاطمة.

"بالعكس" قاطعتها لنصرة الرجل ولقول الحقيقة "المتزوجون من اثنتين يكسبون مراعاة كل زوجة لأنهن، أي الزوجات يتخاصمن مع بعض ويسترضين الزوج بكل السبل. لو اتحدنَ ضده يمكن أن يعكرن حياته، لكن طالما أنهن يتقاتلن من أجله فهو الرابح ويحرث على ظهورهن". لم تفرح أم محمد من موقفي، فاستدركت طلباً للسلم: "لكن حياة القرى غير المدن، هناك تشتغل النساء في الأرض وتعود تعبانة، ولديهن بيوت واسعة، بينما هنا في المدن فالوضع أصعب بكثير على زوج الاثنتين".

"عموماً دعونا نعود إلى أصل اليهود". لم يقاطعه أحد فأكمل: "أبونا ابراهيم الخليل عاش في الجزيرة العربية وبنى الكعبة، ثم

هاجر مع أم اليهود، وكانت عاقراً، إلى مصر، وترك أمنا مع طفلها اسماعيل في واد غير ذي زرع. في مصر حبلت وأنجبت أم اليهود، وعاشت سلالتهم هناك حتى ميلاد سيدنا موسى الذي هرب مع قومه من فرعون إلى سيناء بعد أن شق البحر الأحمر بعصاه. عاشوا في سيناء أربعين سنة، ونزلت الوصايا على موسى في سيناء ومات ولم يكتب له دخول فلسطين ولا يُعرف له قبر، لكن بقية اليهود دخلوا كغزاة واحتلوا بعض المناطق وأقاموا فيها مملكتهم..." .

"كيف نبي ولا يعرفون مكان قبره؟" قاطعت فاطمة الراوي.

"إنهم لا يعرفون أشياء كثيرة. مثلاً لا يُعرف في عهد أي فرعون عاش النبي موسى، لأن كتابات الفراعنة لم تشر إلى اليهود أو إلى الأنبياء أو شق البحر الأحمر. وأهل العلم من تلك الأزمان لم يتحدثوا في كتبهم عن أنبياء اليهود المفترض أنهم عايشوهم. كل ما نعرفه عن الأنبياء، قبل الرسول محمد، لم يرد إلّا في كتب التوراة والتلمود، والإنجيل الذي أخذ عنهما، وهذه محرَّفة ولا تُعرف أصولها." سكت الضيف، ثم عاد إلى روايته عن مملكة اليهود:

"... يعني فلسطين كانت محطتهم الثالثة، ثم طُردوا منها وتمّ سبيهم إلى ممالك أخرى ولم يعودوا إلى هنا عندما أمكنهم ذلك، بل واصلوا الانتشار في العالم أينما وجد رزقهم ورفاهيتهم. كلما استقروا في بلد يصبح حالهم أفضل من حال أهلها، فتنصبّ عليهم الكراهية. والنتيجة أن العالم لفظهم فقرروا استعمار بلدنا مرة أخرى".

"مين في العالم يكرههم؟ الإنجليز أعطوهم وعد بلفور ويطبقونه

من يوم دخولهم فلسطين، ونصبوا علينا مندوباً سامياً منهم". قالت فاطمة، وأيّدتها أم محمد بالقول إن الدول الأجنبية تساعدهم بالوصول إلى فلسطين.

"العالم يتخلص منهم برميهم علينا، لأنهم يكرهونهم، ولأن دولهم لا تحبنا ولا يهمها أمرنا". قال أبو محمد متدخلاً لتأكيد رأيه، ثم استشهد بما سمعه من يهود يعرفهم بأن هتلر تسلم مستشارية ألمانيا، وأنه وحزبه يكرهون اليهود وباشروا في تغيير القوانين الألمانية حتى لا يتنازلوا عن الحكم بسهولة. "هتلر رافض لاتفاقيات السلام التي عقدت في فرساي بعد الحرب العالمية وقد بدأ بالتنصل منها، وهو يكره اليهود، حسب قولهم".

"هل كل يهودي يهاجر من بلاده يحضر إلى فلسطين؟" سألت أبا محمد وأضفت بأن الحياة في أميركا وبريطانيا أفضل مما هي في فلسطين.

"لقد طالعت منذ سنوات في الجريدة بأن اليهود الذين حضروا هنا بعد الحرب العالمية الكبرى هم خمسة بالمئة فقط من إجمالي الذين غادروا أوروبا الشرقية. من أصل ثلاثة ملايين ونصف مليون يهودي هاجر حوالى ثلاثة ملايين إلى أميركا، وأقل من ربع مليون إلى بريطانيا، وأقل منهم إلى كندا". قال أبو محمد وشرح لنا قليلاً، قبل أن يصعد إلى منزله، عن انتشار معاداة اليهود في دول أوروبا الآن، ونشاط المنظمة الصهيونية في تحويل الهجرة إلى فلسطين. خمس اليهود الذين هجروا ألمانيا قبيل تسلم هتلر للحكم، ذهبوا إلى فلسطين، وعندما تسلم أدولف الحكم تحولت الهجرة إلى رحيل جماعي، فقد وصل فلسطين 200 ألف يهودي الماني،

خصوصاً بعد أن شرّع النازيون هذا العام قانون نورنبرج "لحماية الدم والشرف الألماني".

توطدت علاقتنا مع دار أبي محمد، وأصبحنا نعرف أخبار ألمانيا ومناورات هتلر للاستيلاء على السلطة والتفرّد بالحكم، سواء عبر الاغتيالات أو فرض قوانين متسرعة، ونتابع روايات التوتر المتصاعد بين ألمانيا ودول أوروبا. كل هذه المعلومات تصل لأبي محمد عبر معارفه من اليهود، وبالطبع مما تنشره الصحف الكثيرة الصادرة في يافا. الحياة هنا كانت مريحة بالنسبة إلى فاطمة، بعيداً عن العمل في الحقول وخدمة المواشي والدواجن في بربرة. كنا لا نتخلف عن زيارة البلد في الأعياد، لكن فاطمة أصبحت مترددة في زيارة بربرة خوفاً من السؤال حول الحمل والميلاد، لأن أمها والقريبات كن يتوقعن الطفل البكر أثناء العام الأول من الزواج. اقترحت عليها أن نأتي بأختنا خديجة لتعيش معنا حتى تسليها في البيت، فرحبت بالفكرة، خصوصاً وأنها ساعدت في تربية خديجة طوال السنوات الست من عمرها حتى انتقلنا إلى يافا.

قبل أن نعود من زيارتنا الأخيرة بصحبة خديجة، حضرنا، مع أحمد وزينب أيضاً، موسم المجدل على بحر الجورة القريب من بربرة. كانت الخيل تطارد وتتسابق، والنساء يستعرضن ملابسهن الجديدة المزركشة والمطرزة. الكثير منهن ركبن، كالصغار، في المراجيح والقلابات. وكلما اقتربت مجموعة نساء من حلقات الدبكة، كان الرجال يجهدون أنفسهم دبكاً وحنجلة حتى يلفتوا انتباه الإناث اللواتي يحضرن من مدينة المجدل وقرى بربرة وكوكبة وبرير ودير سنيد وبيت حانون، والبدويات من أطراف الحليقات. كان الموسم يستمر لثلاثة أيام متتالية والبعض ينام طوال المدة عند

الشاطئ الذي زرناه ليوم واحد وأخذنا معنا حلاوة وبيضاً مسلوقاً وخبزاً، واشترينا سمكاً مشوياً يبيعه الجورانية على الشاطئ. أما العائلات التي كانت تحضر من بعيد فكان بعض أفرادها يزورون مقام سيدنا الحسين في المجدل لأن الاحتفال يقام على شرفه، ولكن البربراوية لا يزورون المقام في الموسم وإنما في كل وقت أثناء العام إذا دعت الضرورة. وأثناء ذهاب النساء إلى الطبيب في المجدل فإنهن يتجهن إلى المقام أيضاً، وإذا تعثرت عملية ولادة ولم تتمكن إحدى الدايات الثلاث في القرية من مساعدتها، يتم حملها على كارة إلى الطبيب في المجدل، ومن ثم يزور زوجها المقام في أقرب فرصة.

***

مختار بربرة

حمل حسن الشيخ الطورية وعاد من حاكورته عند الطرف الغربي للبلدة. لقد أوصى زوجته أن تجهِّز للغداء طبخة لحمة في الطابون مع شوربة وبهارات، ولم يشغله العمل في الأرض عن التفكير فيها. وفي معظم الأيام كان، مثل بقية أهل بربرة، يتناول الطعام في الحقل، لكنه اليوم يريد أن يتغدى ويتمدى. في الطريق قابله شاب من دار نصار، سكان الحي الغربي مع دار يونس وعائلات بربراوية أخرى. ظن الشاب أن حسن سيتحمل الإهانة طالما أنه بعيد عن حارة العدوان، فسألة باستهانة إذا كان ذاهباً الآن إلى مقعد الخمارة. رد عليه حسن بأن "مقعدنا أطهر من مقعدكم" وضربه بالطورية، وواصل طريقه. في البيت لم يخبر أحداً بما حدث. وقبل أن ينتهي من تناول طعامه كان منزلهم، وهو مقعد العائلة، قد أحيط بعشرات الرجال من دار نصار ومن ناصرهم من عائلة يونس ودار عايش، يحملون العصي والنبابيت.

نساء العدوان صرخْنَ للاستنجاد بمن يسمع، وخرج حسن وأبوه محمد بالنبوت، بعد أن وضع كل منهما لفة القماش على رأسه، فلم يعد مجال للشك بأن الضرب سيبدأ فوراً. توارد من كانوا في الحارة الشرقية تباعاً للنجدة، فقد أخذوا على حين غرة ولا يعرفون ماذا يجري إلّا وهم يركضون باتجاه الساحة. انضمّ من تصادف وجودهم من العدوان وأفخاذهم مثل دار السلطان وعزوم والحاطوم

أو أنسبائهم مثل دار نشوان، كما ساهم دار أبي ضباع، وأبلت زانه نشوان، زوجة عثمان أبي ضباع، بالنبوت أفضل من عدة رجال، فغطّى الدّم نبّوتها، وكسرت أيدي اثنين من المهاجمين وضلع ثالث منهم. كان أولاد أبي ضباع يسكنون خلف دار المختار ومقابل دار عبد الحفيظ وأبي عزوم. لقد شقّت رؤوس من لم يضعوا العمم أو لم تثبت عممهم على رؤوسهم من الطرفين، وكسرت أيدي وأضلع بعضهم، ورجحت كفة المهاجمين. كانت فاطمة حسين، عمة حسين ابراهيم، قد توقعت هذه النتيجة سلفاً وأسرعت إلى دار أحمد عبد الرحمن، وهم نسائب للعدوان ويقطنون شمال البلد خلف الجامع، لتخبرهم بما يجري، ولزم على أحمد أن يحرك جماعته فوراً، فهو كبير البلد، والمعتدى عليهم أنسباؤه. وصل مع رجاله إلى الساحة، وصرخ على زعيم دار يونس أن يرد رجاله وإلّا فإنه سيجعل الغربي غربياً والشرقي شرقياً. فور تلقي هذا التهديد بتقسيم بربرة وعزل الحارة الغربية، توقفت المعركة وانسحب المهاجمون.

تنبه عبد الحفيظ أن حسين ابراهيم وأخيه أحمد ليسا في الحارة، وما زالا في الحواكير، فاتفق مع أحمد عبد الرحمن فوراً أن يرسلا إليهما من يحدثهما بما جرى ويحضرهما بأمان. كان عبد الحفيظ قد أعرب عن ارتياحه لغياب حسين وأحمد على الرغم من الهزيمة، لأنهما كانا مسلحين، سراً أو جهاراً، طوال السنوات الأربع الماضية منذ ثورة الـ 1936، ولو كانا في الحارة لمات عدة مهاجمين وصارت القصة فيها دم. هكذا أراد أن يضمن عودتهما من دون المرور في الحارة الغربية، وقبل أن تصلهما معلومات مشوشة تدفعهما للانتقال بالشاحنة والعمال إلى بيوت المهاجمين، فقد كان حسين دوماً يهدد أن من سيقف في طريقه سيداس تحت العجلات.

تم تجبير الذي تكسّرت عظامهم من الطرفين، ونال حسن

الشيخ، الذي كسرت يده، لوماً متواصلاً من دار عدوان كونه أولاً سقط ضحية الاستفزاز وضرب رجلاً بالطورية بدل أن يكتفي بالرد عليه ملاسنة، واللوم الأشد لأنه عاد إلى البيت ولم يبلغ أحداً أنه ضرب الشاب. وبالطبع تم التصالح الرسمي بين الأطراف المتنازعة نزولاً عند رغبة أحمد عبد الرحمن. في اليوم الأول أخذت العطوة، وهي أشبه بهدنة يلتزم كل طرف فيها بعدم الانتقام حتى يتم التفاهم النهائي على شروط الصلح. وكان أحمد عبد الرحمن من أشهر المصلحين في جنوب فلسطين ويتنقل دوماً بين القرى للصلح بين الأطراف المتنازعة.

في مساء اليوم التالي اجتمع الطرفان عند أحمد عبد الرحمن الذي تجاهل الحديث المباشر عن الطوشة أو الضحايا. استرجع الرجل بعض أحداث ثورة 1936 وأكثر من الإشارات إلى كم احتاجت الثورة إلى الرجال سواء في شهورها الستة الأولى أو بعد تجددها المتقطع لثلاث سنوات تلت. لم يساور الشك أياً ممن يعقلون بأنه كان بذلك القول يؤنبهم على عنتريتهم الفوضوية ضد بعضهم بعضاً، وجبنهم أمام العدو المستعمر. وبين الفينة والأخرى كان بعضهم يستعرض بجملة أو اثنتين وجهة نظر فيها دفاع عن الذات، مثل القول إن الثورة لم يكن ينقصها الرجال، بل السلاح. أو القول إن الشيخ عز الدين القسام تسرع في العمل مع المئتين رجل الذين نظمهم، وإن هزيمتهم من قبل الإنجليز أضعفت روح الآخرين. وقيل أيضاً إن الزعماء العرب والقيادات الفلسطينية طالبوا بوقف الثورة لأنهم يثقون بالإنجليز وكتبهم البيضاء.

"لقد خسرنا في الثورة الكثير وربح اليهود". قال حسين ابراهيم، أبو مطر، وأضاف: "نتيجة الإضراب أغلق العمال ميناء يافا. تعطلوا وعطلوا موسم تصدير الحمضيات. في هذه الأثناء أقام

الإنجليز واليهود ميناء في تل أبيب صاروا يستعملونه ولم يعودوا بعدها لاستعمال ميناء يافا، ولم يشغّلوا العمال العرب في مينائهم، ثم استوردوا البرتقال وباعوه بأسعار بخسة في فلسطين حتى لا نبيع برتقالنا في السوق المحلي".

"الإنجليز ملاعين.." قال أبو عوده وهو منهمك في لف سيجارة.. لكن إحنا أيضاً نستحق ما يجري علينا. كل الزعماء مختلفين، والأحزاب تتهم بعضها، والحمايل شادة في بعضها..".

"وكل العرب صاروا منشغلين طوال العام الماضي في الحرب العالمية". قال عبد الحفيظ مقاطعاً ابن عمه قبل أن يعود إلى حديث الخلافات في بربرة، ويعطل جهود المصالحة.

"نحن نتصور أنفسنا أحسن وأشد من الإنجليز. لكن انظروا إلى صمودهم أثناء الحرب في العامين الماضيين. آلاف الأطنان من القنابل يلقيها الألمان على لندن وبريطانيا، وعشرات السفن والغواصات ومئات الطائرات خسروا حتى الآن، ولكنهم صامدون وينتجون السلاح ويصدون الألمان". أنصتوا لحديث الحرب الذي كان يخبرهم به الشيخ عبدالله. كانت البلد كلها تتابع باهتمام مجريات الحرب بين دول المحور وبين الحلفاء.

"اصبر يا شيخ، وما صبرك إلّا بالله، الألمان سوف يطحنون الإنجليز، ويبيدون اليهود".

"قول آمين". همهم أكثر من واحد رداً على أحمد ابراهيم، أبو فتحي، وتبسم أحمد عبد الرحمن وهو يتابع قول آمين يردده رجال من الطرفين المتخاصمين.

"هل يتصور أحدكم أن هتلر يمكن أن يتنكر بملابس نساء، أو يطيل لحيته ويهرب من المعركة كشحاذ؟".

لم يظهر بين الحضور من يتصور هذا، وقال أحمد عبد الرحمن

رداً على سؤال أبي مطر أن للضرورة أحكاماً. لكن أبا مطر شد على شفتيه وحرّك رأسه مستنكراً من دون أن يتكلم حتى لا يظهر معارضة للمصلح. الإشارة هنا لما أصبح شائعاً بأن المفتي، الحاج أمين، تنكَّر بزي متسول وغادر القدس ووصل ألمانيا عبر البرّ حتى يتحالف مع هتلر ضد اليهود والإنجليز.

تعزز الصلح بين آل عدوان من جهة ودار يونس ونصار من جهة أخرى بعد موت مختار البلدة، إسماعيل يونس، بسبب المرض وكبر السن، إذ تضامنت القرية وأخذ آل عدوان عشاء الميت، ولم يعد أحد يتذكر إلّا الأيام الخوالي من التعايش والتراضي، أو هكذا بدا على السطح.

بعد انقضاء أربعين المختار صار لا بد من تعيين خليفة له، وكان من المتعارف عليه أن يكون الخليفة من العائلة نفسها، لكن ابن المختار رفض تحمل أعباء المنصب خلفاً لأبيه، وأراد أن يريح رأسه من هموم هذه الشغلة، وبالتالي فتح موقفه هذا باب التنافس على المنصب. أسرع ابن عم رافض المنصب ووحد جزءاً من عائلة يونس خلفه للفوز بالمخترة، وباع لهذا الغرض خمسة عشر دونماً من الأراضي اشتراها منه حسين ابراهيم عدوان، أبو مطر. ولقد كانت النقود مهمة لإغراء المسؤولين الإنجليز عبر أولاد العرب في حكومة الانتداب، خصوصاً منذ بداية الحرب العالمية الثانية. وبدون إشباع الجيوب والبطون يستحيل تولي مناصب حكومية، أو قضاء مصالح.

تقدم المرشح العائلي بأوراقه إلى مكتب القائمقام في غزة، وقبل أن يتلقى الجواب بالتعيين صار يتصرف كمختار حقيقي. لكن تأكيد التعيين غاب، ثم اختار مكتب القائمقام شخصاً آخر من أقرباء المختار الميت، وأبلغوه بالأمر فطلب مهلة للتفكير. ولتولي

المنصب من دون مشاكل عائلية يحتاج المرء لدعم الأغلبية، أو الطرف الأقوى في القرية؛ ولأن المرشح العائلي تصرف وكأن الأمر حسم لصالحه، فأي تغيير الآن سيؤدي إلى الخلافات. هكذا طلب من مرشح القائمقام أن يرفض، وهدده المرشح العائلي بالموت إذا تقبل رأي القائمقام واستلام المخترة. كان الرجل على علاقة جيدة مع حسين ابراهيم ومع آل عدوان، وكون المختار سيكون لكل البلد، وليس هناك من ملاحظات على مرشح القائمقام هذا، فقد حصل على تشجيع حسين ابراهيم، وأكَّد له أنه سيضمن حياته قدر الإمكان، وأن التهديد ضده أجوف ولن ينفذ، و"لا ذنب لك في الأمر".

بعد تردد طويل رفض الرجل خوض هذه المغامرة، وتطلب الأمر السؤال في مكتب المسؤولين عن مصير المنصب الآن، فأرسل حسين ابراهيم، أبو مطر، أخاه أحمد، أبا فتحي، ليسأل عما تم في هذا الشأن بعد رفض الحكومة للمرشح العائلي الأول، ورفض مرشح القائمقام للمخترة خوفاً على حياته. عرف أحمد من مدير المكتب أن التعيين لم يتم بعد، وأن القائمقام غير مرتاح لهذا الوضع، وبعد أن وضع أحمد في جيب الموظف عشرة جنيهات معتذراً أنه لا يحمل غيرها الآن، ولكن هناك الكثير من حيث جاءت، أدخله الموظف إلى مكتب المسؤول ليسأل هل تم تعيين مختار أم لا. على الفور طلب القائمقام من أحمد أن يعود إلى بربرة ويخبر أهل البلد بتقديم اسم رجل ثالث.

في اليوم التالي كان طلب مخترة حسين ابراهيم حسين عدوان قد وصل إلى المكتب، مع عزومة رسمية للقائمقام والموظفين ليشاهدوا بأنفسهم الوضع في بربرة ويعاينوا حجم المؤيدين لهذا المرشح الجديد. جاء المسؤول مع رجاله، ومعهم مدير الشرطة

وبعض ضباطه ورجاله المسلحين. لقد اعتمر المسؤول الإنجليزي طاقية مدورة عليها تاج، وانتعل بسطاراً وجرابين وطزالك مشدودة على السيقان. أما أولاد الشرطة من العرب فقد وضعوا الطرابيش الحمراء على رؤوسهم، وكانت قمصانهم سوداء على عكس الإنجليز الذين لبسوا الكاكي. وجدوا بانتظارهم وليمة ذبح خلالها 25 خروفاً، شاركتهم الأكل فيها وجوه مألوفة مثل مخاتير القرى المجاورة، والمدرسين، وشيوخ بربرة وأعيانها، ورجال وشباب كل عائلات وأفخاذ بربرة، بمن فيهم دار أحمد، وهم من أكبر العائلات عدداً ومشهورون بقساوتهم وعنادهم، ولقد وقفوا إلى جانب حسين مؤيدين له. بالطبع لم يحضر المرشح المرفوض والمحسوبون عليه مباشرة، لأنه لا يريد الاعتراف بأنه ليس المختار.

الإنجليز لا يعتمدون على المخاتير لتنفيذ القانون، لأن ثقتهم كانت محصورة في شرطتهم وجيشهم فقط، لكن المخاتير يتعاملون مع المشاكل المحلية وهم أيضاً حلقة وصل بين أهالي القرية والحكومة. كما أنهم يوثّقون عقود الزواج، ويصدقون بأختامهم الرسمية على طلبات استخراج جوازات سفر والبطاقات الشخصية وشهادات الميلاد، وهذه خدمة نادراً ما يطلبها أحد. وفي العادة يتقاضى المختار بعض النقود بدل مهر الأوراق بختمه، لكن حسين تعهد لأهل البلدة أن يقوم بكل ما هو مطلوب منه من دون مقابل. عموماً، فأي ختم من أي مختار يقوم بالمطلوب لدى السلطات المحلية، هكذا أصرَّ المرشح المرفوض على تقمص لقب المختار بين جماعته، وأصبح هو وإياهم يصدّقون على مستنداتهم من مخاتير قرى مجاورة حتى لا يقروا لحسين بالمنصب، وهكذا انتهى الاحتكاك المباشر بهذا الصدد وبقيت النفوس متنافسة.

ارتاحت بربرة من عبء إطعام المسؤولين الإنجليز والعرب لأنهم أصبحوا يحجون إلى دار المختار كلما مروا في المنطقة. لقد كانوا في السابق يفرضون أنفسهم على أحد البيوت أو العائلات فيجلسون حتى تقدم لهم ذبائح يلتهمونها، ويتم تقديم العلف لخيولهم وسقايتها. أحياناً يقود المرتزقة ضابط شرطة إنجليزياً وفي معيته حوالى عشرة من العساكر المسلحين يمارسون أعمال الدورية، ويفرضون أنفسهم على الناس ويباشرون الترهيب للمضيفين عبر السؤال عن الأسلحة وجر الناس للحديث في شؤون السياسة لمعرفة المعارضين للدولة البريطانية. من جهة أخرى، يبدو أن الحرب العالمية الدائرة قد أثَّرت على نوعية أكل الجنود الإنجليز في معسكراتهم، فأصبحت الدوريات على القرى تضم أفراداً من الجيش حتى ينالوا قسطاً من لحوم البواطي والمناسف التي يقدّمها السكان رغماً عنهم. أحياناً أخرى يكون الضيوف المميزون من دائرة الضرائب، يتصرفون بالسفاقة نفسها ويجمعون المال أو يحددون المبالغ ويطالبون الناس بالحضور إلى الدائرة في غزة للدفع، ثم يأكلون ويشربون وينصرفون، من ثم، إلى قرية أخرى. ولم يتخلص الناس من هؤلاء، ولكن المختار تكلف بإطعامهم واستضافتهم وكفّ شرهم عن بيوت الآخرين.

ولحسن حظ البربراوية فإنَّ الإنجليز لم يجمعوا جباية جرّاء استعمال الفلاحين لمياه الري. فكل مستهلك يدفع، لصاحب إحدى الآبار الخمس بين حقول البلد، بمقدار ساعات الاستعمال. هناك بئر لأبي العينين والثانية ليونس والثالثة للزيبق، أما الرابعة والخامسة فهما لنابق العلمي الذي يملك قصراً في إحدى مزارعه في بربرة. هذه الآبار تستعمل لري الخضروات في الحقول، لكن بئر القرية القريبة من الجامع كانت لحافظ العلمي، وقد سعى المختار لشرائها

بأموال من أهل بربرة، واتفق الجميع على تحصيل مقابل للاستهلاك بمقدار قرشين سنوياً عن كل نفر، وقرشين عن كل جمل، وقرش عن كل نعجة. كل واحد طبعاً يستهلك بحسب حاجته من دون تحديد. في آخر العام يجلس كبار البلدة على الكراسي عند البئر لجمع مال السِّقاية من المستهلكين بحسب معرفتهم لعدد الأنفار والجمال والمواشي في كل بيت. ولم تصل المياه مباشرة إلى أي منزل في بربرة، ولا حتى إلى الجامع، ولكن النساء كنَّ يملأن الجرار ويحملنها على الحمير أو يحملنها على الرؤوس أو فوق ظهورهنّ وينقلنها إلى المنازل، وبعضهن كنّ يتبرعن بإيصال الماء إلى الجامع وضمان امتلاء جراره. هذه المهمة لا تنجو أنثى من ممارستها، فعندما يصبح بمقدورها جسدياً حمل الجرّة تنضم إلى بقية الإناث في توفير المياه لمنزل عائلتها.

أثناء الفترة التالية تمكّنت بربرة من إجراء تحديثين في خدمة المياه داخل القرية حيث تم شراء موتور من يافا لسحب المياه من على عمق 95 متراً، كما أقيم خزان ماء له سبع حنفيات لملء الجرار، وحنفيتان على الجهة الأخرى مفتوحتان على حوض لسقاية البقر والمواشي. أصبح الموتور يضخ الماء إلى حاووز صغير مرتفع، ثم تنساب المياه إلى الخزان، وعندما تطفح المياه من جنباته يتوقف الضخّ من قبل محمود أبي شرخ.

قبل انقضاء عامين على تسلم حسين للمخترة كانت طرق القرية الداخلية قد رصفت بالكركار بدل الطينة، وأصبح من الممكن السير فوقها في الشتاء من دون تزحلق أو عناء.

***

بواطي ومناسف

وصل شحدة مقطوع الأنفاس من طول مسافة الركض، ولم يفهم منه المختار الكثير، لكنه شعر بضرورة التوجه إلى البلدة فوراً. وضع شحدة يسراه على رأسه حتى لا تسقط طاقيته، وسحبه المختار من يمناه عن الأرض ووضعه خلفه على الفرس وانطلق عائداً من حاكورة نابق.

"خالتي أم مطر أرسلتني إليك.."

"في حد مات؟".

"لا لا، حضر ضيوف إلى البيت وجلس معهم سيدي أبو عودة.." أبطأت سرعة الفرس، لأنَّ الأمر لا يستدعي ذلك، خصوصاً وأنها تنوء بحملٍ إضافي هو عبارة عن عشرين كيلو جراماً، الوزن المفترض لشحدة.

"ولهذا نفسك مقطوع وجاي بدون توقف. الموجود في الحارة يسد في الاستقبال، من هم الضيوف؟".

"خالتي قالت لي طير على أبو مطر في حاكورتنا، قطعة نابق، وقله يلحق الضيوف، أصلهم طلعوا من البيت". أفهمته أن يكمل روايته، فأضاف: "حضر رجال كبار من عدوان شرق الأردن على البيت واستقبلهم سيدي أبو عودة وسألهم عن حالهم، فقالوا إنهم

قرايبنا من شرق النهر، وقال لهم سيدي وليش جايين إحنا زهقانين من بعض في بربرة. فقاموا ومشوا، أخذوا الطريق الشرقي".

"كعابي أو راكبين؟".

"معهم خيل، لكنهم تعبانين وخيلهم لم تعلف".

أدركتهم قبل أن يتجاوزوا أراضي قرية الحليقات باتجاه الفالوجة، وعرفتهم بنفسي، كانوا أربعة خيالة، يعتمرون العِقل والحطات الحمراء، ولا يحملون الكثير من المتاع فوق ظهور خيولهم. استحلفتهم بالله أن يعودوا معي، وإذا لم يقتنعوا أثناء طريق العودة بأن ما حصل هو سوء تفاهم، فهم في حل من أمرهم. أخبرتهم أن عمي أبا عودة يقول فوراً ما يجول في ذهنه، وهذا أحياناً يضحك وأحياناً أخرى يعقِّد الأمور، ولكن لا يأخذه أحد على محمل الجد، وخيّرتهم أن يسألوا أي رجل في البلد عن أبي عودة وسيؤكد لهم ما قلته.

"طالما أنه يقول ما يجول في ذهنه، فهذا يؤكد رأيه في أنكم زهقانين من بعض". قال أصغرهم سناً بعد أن استداروا واتجهنا إلى بربرة.

"الواحد يمكن يزهق من حاله ومن أهله، أحياناً، لكن العاقل لا يصرح بذلك لغرباء، وإن صرَّح فهو يعبر عن حاله فقط". قال ما يبدو أنه أكبرهم سناً ومقاماً، وبدا كأنه يضرب ويتلقى.

"عمي لم يعتبركم غرباء بعد أن عرف أنكم من القبيلة، وهو ليس مجنوناً رغم صراحته، وهو بالذات دوماً يتحدث عن أصولنا في شرق الأردن". حاولت رد التهمة عن عمي حتى لا يستهينوا بنا، ولأنه بالفعل عاقل وذاكرته نشطة ولكنه يقول ما يجول في رأسه.

"هل هو عمك بالفعل أو مجازاً يا مختار؟" عاد كبيرهم ليسأل.

"عمي بالفعل والأخ الوحيد لوالدي". قررت أن أخوض في أصول القرابة ليشعروا أنَّ أي اساءة إنما تصيبهم أيضاً. "لعمي أربعة أولاد، وأنا لي أخ واحد. جدنا اسمه حسين، وأبوه اسمه أحمد وله ولدان غير حسين هما علي ومحمد، وكان لأحمد هذا شقيقان هما حسن وعثمان ووالد هؤلاء الثلاثة هو العدوان الذي جاء إلى بربرة من طرفكم في شرق الأردن قبل 150 عاماً تقريباً". أشرقت وجوه الضيوف الأربعة، وتجاوزوا ما قاله عمي حسان.

"هذا العدوان هو عكاشة، خرج من طرفنا مع وضحة زوجته، وأخوه مضعان. هذا الأخير رقد مع المواشي في الجبل، وعكاشة ووضحة تابعا الطريق إلى الساحل واستقرّا في بربرة، وأرسلا إلينا مراسيل عرفنا وين صاروا". معلومات الضيف هذه جديدة بصدد وجود أقارب لنا في جبال فلسطين، فأخذنا نتبادل المعلومات وحجم القبيلة الآن في بربرة.

"أثناء الاستعداد لأخذ المخترة أحصيت حوالى 100 من الرجال والشباب العدوانيين". واستدركت "من نسل عكاشة حتى الآن، وهذا من دون الإناث، ومن نحن أخوالهم".

"هذا كثير وبركة من حمد الله، لكنه عدد قليل بالنسبة لفلاحين مستقرين ولهم أراضي".

"ربما لا تزال أصولهم البدوية تشدهم للاقتصاد في الخلفة". أجاب أكبرهم وضحكنا إذ تحسن الجو وتحدثنا عن الخيل والمواشي حتى دخلنا إلى البيت.

قبل المغرب كانت الخراف الأربعة قد طبخت وقدمت مع فت اللبن ووضعت الرؤوس فوق المناسف القريبة من الضيوف. هكذا

يأكلون طعامهم في شرق الأردن، وعلى عكس ما تعودنا عليه في فلسطين، فلا بد من إظهار رأس الشاة على المائدة ليعرفوا ماذا ذبح لهم. ولحسن الحظ كانت فاطمة تعرف كيف يطبخ اللبن الجاف، فصنعت ما يكفي لأربعة مناسف، وقدمنا بقية الطعام على طريقتنا، أرز فوق خبز فراشح مغطى بالسمن وعليه المرق والبصل.

"جربوا من البواطي الثانية". طلب أبي من الضيوف حين شعر باقترابهم من الشبع، وكان على الدوام يقدم لهم شرائح اللحم.

"إن شاء الله أنه زين وطيب". قال أكبرهم وقد مد يده لأخذ كعبول من باطية فخارية بربراوية، وأصبح الجميع ينادونه بالشيخ نمر، حسب طلبه، بالرغم من كثرة أولاده، ومنهم مسعود، أصغر الضيوف الأربعة.

"لماذا تفضلون الفتّ مع اللبن يا قريبنا؟" سأل عمي حسان الشيخ نمر في أول مرة يتحدث فيها منذ عودتهم إلى البيت.

"اللبن، يا قريبنا، يسد عن اللحمة. وعندنا من خير الغنم الكثير من الحليب، نشرب منه ونجفف الباقي، وأحياناً نعمل المناسف من دون اللحمة فيكون فيها دسم اللبن". أظهر المستمعون التفهم والاقتناع، ولم يلتفت معظمهم إلى تشديد الشيخ نمر على كلمة يا قريبنا. "الظروف تتحكم في حياة البشر". أكمل نمر ووجه الحديث بلباقة عن الأوضاع الاقتصادية.

"إن شاء الله الوضع في الأربعينيات يكون أفضل من السنوات العشر الماضية". قال عبد الحفيظ وقد انتهى الطعام، وبدأت فناجين القهوة السوداء تدور على الحضور. "الجراد هاجم فلسطين طوال أربع سنوات، وفئران المزارع اشتركت في الهجوم وزادت سنتين على الجراد، ولزيادة الطين بلة جاءت الهجمات مع سنوات جفاف وكثرة مهاجرين يهود. قبل هذه الكوارث مات 80 بالمئة من

أبقار فلسطين، أصيبت بمرض". يا لطيف، كان الضيوف يرددون، كما اندهش المحليون من تذكر عبد الحفيظ لهذه المصائب التي حلت بالبلاد في السنوات الخمس الأولى من الثلاثينيات. "الزيتون، الذرة، السمسم، كلها نقصت أكثر من النصف ولم نجد حبوب البذار، ومن وجدها لم يستطع حمايتها من عصافير الدوري التي زادت أعدادها عشرات المرات عن المعدل. لذلك ابتعدنا في بربرة عن زراعة الزيتون والحبوب واتجهنا إلى المزيد من أنواع العنب حتى صرنا ننتج أفضله في العالم كله".

"لقد أخبرنا العدوان في جبال فلسطين قبل أن نصلكم هنا أن الماعز نفقت وأسعار اللحوم انعدمت قبل عشر سنوات".

"هذا صحيح"، أثنى عبد الحفيظ على كلام نمر وأضاف: "عرب السبع لم يجدوا ما يروي ويطعم غنمهم، نزلت أسعار اللحوم وارتفع سعر الزيت".

"لكن الوضع الآن أحسن بكثير ولدينا أراضٍ ومراعٍ، ويمكن شراء المزيد، فالأسعار رخيصة". قلت، وقد شعرت بأنهم ربما يجسون النبض ليهاجروا من شرق الأردن إلينا، ولا أريدهم أن يظنوا أننا نخيفهم من الوضع عمداً. "يا ريت يحضر ناس من طرفكم للإقامة بيننا، فالخير من حمد الله كثير. وأنا بنيت العلّيّة بعمال من يافا وحولت البيت للحجر في هذه الظروف الصعبة. يعني رزقة الإنسان مكتوبة له من زمان".

"أوضاعنا في شرق الأردن ممتازة، أراضينا ومراعينا في الشونة على مد البصر، والمياه جارية في النهر، والربع في عمان أعطاهم الأمير جبالاً كاملة ليسكنوا ويرعوا فيها، في تلاع العلي والشفا والبقعة". سكت الشيخ نمر لوهلة ثم أضاف: "ولا يوجد عندنا

يهودي واحد". وقبل أن تنهال عليه الأسئلة كيف أنهم نجوا من هذا البلاء قال "الإنجليز منعوا اليهود من الاستيطان شرق النهر".

"لماذا جاء عكاشة وأمنا وضحة إلى بربرة؟" سؤال موجز مباشر من عمي حسان.

"زمان كان الوضع في غرب النهر أحسن، واحنا دائماً نتحرك. في ناس ذهبوا إلى الشام، دمشق وبيروت، وناس في العراق، إحنا أصلنا من الطائف في الحجاز". ضحك الشيخ نمر وهو ينظر إلى عمي وأضاف: "لكنك محق يا أبا عودة، عكاشة وأخوه تركوا البلد هرباً من ابن عمهم، قتلوا أخوه ورفض قبول أي صلح، فغادر عكاشة وزوجته وأخوه وقطعوا النهر".

"يعني جدنا قاتل هارب، وأنتم من جماعتنا أو من جماعة القتيل؟".

"وحد الله يا عم، هذه قصة صار لها 150 سنة وأكثر، وضيوفنا حدثونا عنها". قلت لعمي بصوت واضح حتى لا يظن أقاربنا أننا نشك فيهم، لكن عمي تمتم أن البدوي لا ينسى الثأر بعد ألف سنه. وتدخل عبد الحفيظ بسؤال حول وضع المياه والأمطار شرق الأردن لأنه أراد تحويل مسار الحديث.

"نهر الأردن ما يتوقف، والحمد لله، لكن السيول المغذية له خفت، والجو تغير، أحياناً جفاف وأحياناً فيضانات". قال الشيخ نمر متجاوباً في تغيير الحديث ثم أضاف وسط دهشة الجميع: "قبل خمس سنوات أمطرت على جماعتنا في السليحي سمك وضفادع". نظر نمر إلى أبي عودة وأجاب عن سؤال لم يطرح "نعم سمك يتحرك وضفادع تنقنق. لا تنظروا إليَّ هكذا، هذا حصل بالفعل وأكده لي شيوخنا الذين عايشوه وشاهدوه".

صمت الجميع وأخذ الشيخ في توضيح الظروف والمكان،

وقال إنَّ قرية السليحي قريبة من أحد السيول التي تصب في النهر، وهي أيضاً قرية قريبة من عمان، وقبل خمس سنوات بدأت الشتوية بعاصفة قوية، رياح وبرق ورعد ثم هطلت أمطار غزيرة تحمل السمك والضفادع.

"لما ربنا يرزق بني آدم فلا حدود لعطائه". قال أخي أحمد بعد أن صمت طوال الوقت.

"ولما ربنا يريد خراب بيت بني آدم يسلط عليه شر النساء". فهم الجميع، ما عدا الضيوف، قصد عبد الحفيظ من قوله هذا. فهو غاضب على أحمد كونه تزوج فاطمة الخياطة على ابنته سعاد، أم فتحي. كان الجو قد توتر طوال العام الماضي أثناء مغازلة أحمد للمطلقة فاطمة التي حضرت مع أمها من عرعرة في شمال فلسطين.

"طاعة الوالدين من طاعة الرحمن". رد أحمد باقتضاب، ولم يعلق أبي حتى لا يغضب ابن عمه. لم يكن أبي قد طلب مباشرة من أحمد تزوج فاطمة على سعاد.

"لقد أنعم الله علينا الكثير.." قلت حتى أوضح للضيوف ملابسات الحديث ".. وسألنا أبي ماذا نفعل بالنقود، فنصحنا بشراء الأرض، فقلنا له لدينا منها الكثير ولا زلنا نشتري. ثم نصحنا أبي أن نشتري الحلال، فرأينا أن لدينا ما يزيد عن حاجتنا. هكذا قال أبي لأحمد ولي آنذاك: اشتروا الفروج تمتلئ السروج".

"وأحمد ما كان خياب". قال الشيخ نمر بصوت منخفض.

"الله يجعلها عاقر وما تخلف منها بنت أو ولد". قال عبد الحفيظ بصوت ملعلع. كان من الممكن أن يقول ما يعرفه الجميع بأن أحمد تزوج فاطمة لجمالها، وإنه مهَّد طويلاً قبل الإقدام على الزواج؛ كان يزور فاطمة وأمها وأخواتها كثيراً ويجلب لهن السمك واللحوم والفواكه باستمرار.

في الليلة التالية كانت الجلسة في مقعد حسن الشيخ، وكان ضيوفنا من شرق الأردن قد اقتنعوا بالبقاء لثلاثة أيام على أقل تقدير، ولو رفضوا البقاء لكان في ذلك إهانة لنا. وصل محمد حمودة إلى المقعد قادماً من يافا من دون المرور على أهله، بعد أن عرف بوجود ضيوف من العدوان. كان يبيع الخضروات والحبوب مما تنتجه حاكورة أبيه، ومما يجمعونه من الفلاحين في المواسم مقابل أعمال النجارة التي يقوم بها حمودة لصالحهم، فلم يكن أي فلاح يدفع له نقداً مقابل أتعابه.

"نمت في يافا البارحة". قال موسى السلطان لمحمد وأكمل على الفور ".. ريّحت بنات البلد من شرك". لم يكن محمد قد تسبب في أي مشكلة بعد، لكن الشكاوى تراكمت حول تصرفاته ومتابعته لبنات البلد، ولو كان يقضي كل أوقاته في بربرة لتسبب بمتاعب.

"يعني جمال البربراويات يجنن ويسحر العقول! أنا ألاغيهن حتى أجبر بخاطرهن وأرفع معنوياتهن". ضحك الجميع من تعليق محمد.

"إمشِ الطريق ولو دارت، وبنت العم ولو بارت". قال الشيخ نمر مشاركاً في جو المرح.

"صدقت يا شيخ، وقريباته الله حاطط فيهن البركة، ما عليه سوى الاختيار". انتظر محمد من عبد القادر السلطان أن يكمل حديثه ويستعرض القريبات، لكن رمضان السلطان هو الذي تطوع بذكر الفتيات في سن الزواج وسمى خمساً، من بينهن ليلى السلطان، بنت أخيه عبد القادر.

"فهل السلطان عدوان، أم حمولة أخرى في بربرة؟". انفرجت أسارير محمد قليلاً من سؤال مسعود ابن الشيخ نمر، فقد منحه

بعض الوقت ليفكر في الأمر، هل يحول الحديث إلى مزاح أم يختار واحدة؟

"العدوان في بربرة ثلاثة فروع، أولاد حسن وأحمد وعثمان. ودار السلطان هم أولاد حسن الذي أنجب موسى وأحمد، وموسى أنجب حسن الذي أنجب بدوره موسى ورمضان ومحمد وعبد القادر، الذين تراهم هنا الليلة ما عدا محمد". شرح عبد الحفيظ أيضاً أن كل فرع من سلالة العدوان الثلاثة تشعب إلى فروع وأفخاذ اتخذت ألقاباً، أو تمّ وصفها بألقاب أخرى.

"أنتم خيرتوني وأنا أريد بنت عمي عبد القادر". لم يكن عبد القادر أحد أعمام محمد حمودة الذي ينحدر من فرع عثمان ثم محمد ويليه ابنه محمود والد حمودة أبي العريس المنتظر. لكن عبد القادر كان الأب الوحيد في الجلسة من آباء البنات الخمس اللواتي ذكرن كعرائس.

"اجتك". رد عبد القادر فوراً حتى يربط محمد من لسانه أمام الرجال. قبل أن ينتهي الحضور من المباركة لمحمد بالخطوبة، قال عبد القادر: "روح يا محمد شاور والدك لنأخذ أختك زينب إلى ابني محمد، ويكون الجواز بدل بين ليلى وزينب والفرح فرحين".

نظر الضيوف إلى بعضهم وإلى الحضور، ولم يعد هناك شك بأن محمد حمودة وقع في فخ أُعد بإحكام.

قالت لي قوطر يا رجل وحيد عن درب الزينات

قلت لها كيف أنني قوطر ولي بحبك ثلاث سنوات

"الزواج عندنا يتم بعد تعارف البنت والولد لفترة طويلة" أضاف نمر العدوان لبيتين الشعر وأكمل من دون توقف حتى لا يجرح شعور أقاربه "وبالطبع عندكم الوضع مشابه، فأنتم أقارب ومتجاورون في السكن".

"هذا صحيح كل البلد تعرف بعضها، صغار وكبار. ويوم كتب الكتاب يسأل القاضي البنت إذا كانت موافقة أم لا".

"لكن لا يوجد عندنا حب ثلاث سنوات". علق رمضان السلطان على إجابة الشيخ عبدالله.

"لا يوجد عندهن وقت للحب، أول ما تبلغ نجوزها، يعني تكون بنت 12 أو 13 سنة. أما ليلى وزينب فهما أكبر قليلاً، واحدة 14 والثانية 15 سنة". قال حسن الشيخ الذي نجلس في مقعده.

"البربراوية يعطوا بعض، وبالطبع التزاوج لا يقتصر على الأقارب من نفس الحمولة؟" سأل الشيخ نمر وتطوعت ببعض الشرح لتوضيح الالتباس الذي بدأ يتكون عند ضيوفنا:

"بربرة مليئة بالزيجات المختلطة. كما سمعت، أخي أحمد اختار زوجته الثانية من عرعرة، واختار العداوين سبع فتيات من زرنوقة، ومجموعهن 12 في بربرة، وهناك سبعة من بربرة متزوجون من المجدل، واثنان من أسدود ومثلهم من يافا. أيضاً الناس في بربرة جاؤوا من أماكن متنوعة، لدينا عائلات من السودان ومن صعيد مصر، وأناس حضروا من مدن فلسطينية مثل الشيخ عبدالله أبو عجينة، الذي حضر من بيت لاهيا وتزوج من بربرة وأنجب وصار يعتبر نفسه واحداً من البلد، وابنه أحمد تزوج من بربرة، وبناته أخذن بربراوية".

بعد ربع ساعة عاد محمد مع والده حمودة وإخوته محمود ورمضان وحسن، وكان عبد القادر قد أرسل في طلب العريس الآخر، ابنه محمد، وتم الاتفاق بين الجميع بسرعة، لأن زواج البدل بلا مهور، وإنما كل عريس يجهز أخته ويشاركها الفرح في منزلهم لبعض الوقت ثم ينطلق كل فريق إلى الطرف الآخر

ويتبادلان الأختين في منتصف الطريق ويعود كل منهما أدراجه لاستكمال الفرح مع زوجته وعائلته. لقد مرت بربرة بعشرات زيجات البدل التي أصبحت أموراً روتينية مألوفة للجميع .

في الصباح، وقبل أن أكمل فطوري مع الضيوف الذين يستعدون للسفر، سمعنا صوت انفجار من جهة الكراج. وصلت هناك بسرعة ووجدت الناس يعملون على إطفاء حريق في سيارتي الماك، ولحسن الحظ لم تكن السيارات الأخرى في المكان. موسى السلطان كان يصب الوقود في خزّان الشاحنة بينما السيجارة في فمه. قال إن رماد السيجارة سقط على يديه المبللتين فاشتعلت فيهما النار. رمى الوعاء الذي يحوي الوقود على الأرض ليطفئ يديه فاشتعلت الأرض ووصلت النيران إلى خزان الشاحنة. حينها ضرب موسى النار بحجر كبير ليطفئها فانفجر الخزان. ولحسن الحظ أنجده بعضهم، ثم تمكنوا من محاصرة النار قبل امتدادها. كان موسى يريد دوماً مساعدتي في الشاحنات ويعمل مساعداً منذ أن تزوج أختي زينب العام الماضي.

***

بربراوي يا عنب

"يا مختار، اليوم سيمر علينا خالي حمودة وأولاده". قالت أم مطر ولم أسألها لماذا الزيارة، كونها تواصل حديثها في العادة بعد انتظار بسيط، للتأكد من مدى اهتمامي. "جايين يخطبوا أختك خديجة". شعرت بحاجبيّ يرتفعان، وقبل الاسترسال في استكشاف جوانب هذا اللغز واصلت حديثها. "يريدونها إلى محمود، ولكنه مش ولا بد".

"قصدك أسمراني زي حمودة، السمار لا يعيب الرجال، وهو على كل الأحوال أجمل من أمك، عمته". أجبتها وأمسكت لساني عن حمد الله جهاراً أن هناك من يتقدم لخديجة وهي في سن التاسعة عشرة، وأصبحت أشبه بالرجال شكلاً وأفعالاً.

"إحنا ما بدنا محمود، بدنا محمد.." قالت وانتظرت قبل أن تكمل، ولكن محمد متزوج من ليلى عبد القادر السلطان، وابنه البكر، أحمد، على أيدي أمه، قلت لنفسي.

"هم قادمون إلينا ليخطبوا أو ينخطبوا، كيف تريدين تغيير الأختين، وكيف نفسر الرغبة في تفضيل متزوج على ابن عمتي العازب؟ أنت وأمك لكنّ طلعات غريبة".

"عشان خاطر أختك يا أبا مطر. محمد كسِّيب وابن حليمة أم الأولاد والمفضلة عند حمودة، أما محمود وأمه فاطمة حسين فلا

حول لهم ولا قوة في دار حمودة، وتكون خديجة هناك زي الخدامة".

"خدامة ولا غيره، تحمد ربنا أن تلاقي مين يشبعها الزاد، ومحمود صناع بسط ومزاود جيد، ومريح رأسه من الزراعة".

".. بدناش إياه لخديجة".

"أحسن توحدن الله، أنا سأزوجها لأول واحد يخبط على الباب ويطلبها، شوفي كيف أختك زينب مرتاحة مع موسى السلطان. إذا تأمرتن على إعطاء خديجة لمحمد فوق ليلى السلطان، راح يجوزا موسى ضرة على أختك، وحِّدي الله أنت وأمك وأختك".

"دار السلطان ما يسترجوا يعملوها يا مختار، سلامتك في البلد. وإذا بدهم يكايدوا فراح يجوزا محمد العبد ضرة على زينب حمودة، بديلة ليلى عبد القادر، مالك نسيت".

"الزواج شرع الله، ومن يستطع تحمل الأعباء فلا يوجد مانع له، وأنا غير راضٍ عن هذه الخطة، ولن أنهرهم ولن أطلب تغيير العريس. عمتي فاطمة أم محمود كويسة وزلامية".

"صح، يعني خديجة لن تطلع معها راس في الدار". قالت أم مطر وتركتني مستلقياً في العلية ونزلت لتحضير الليوان لاستقبال خالها حمودة وأولاده. سرحت بي الأفكار إلى زواج الاثنتين، معظم ختيارية البلد متزوجون باثنتين، بعضهم تزوج بعد أن ماتت زوجته الأولى، وغيرهم جمعوا بينهن في المكان والزمان، وهناك خمسة على الأقل لديهم أكثر من زوجتين، وأحمد صار عنده زوجتان.

سمعت مريم محمود تساعد ابنتها في تجهيز الليوان، ولم أسمع

ماذا كانتا تقولان وتتوشوشان. خرجت زوجة أبي من البيت، وأفقت من القيلولة بعد ساعة عندما رطمت الباب عائدة. يبدو أنها فشلت في تغيير رأي أخيها حمودة، أو أن الأخير لم يجرؤ على مفاتحة أم محمود بما تريد أخته. بالنسبة لي عزمت على تلبية طلب من يريد خديجة.

في المساء كانت الجلسة عائلية مقتصرة على أبي وأهل الدار، وحمودة وأولاده محمود ومحمد ورمضان وأصغرهم حسن، وزوجتيه أم محمود وأم محمد. لم يحضر معه واسطة أخرى من العائلة لهذه الخطوبة. تأملت في حمودة ونسائه، وتذكرت ما سمعته وأنا صغير حين تزوج حليمة. كانوا يقولون: غراب وفي إيده جبنة، لأنه أسمراني من العمل في الشمس، وهي بيضاء لأنها كانت محشورة في دار أحمد لا تخرج من باب البيت. لكنهما الآن يليقان ببعضهما بعضاً، وأولاد حليمة أشبه بأمهم، ومن حسن حظهم أن لا شبه لهم مع عمتهم، زوجة أبي، لكن أولاد عمتي أشبه بأبيهم. شعرت أن حمودة قلق وأن عمتي فاطمة الحلوة متوترة وتنظر إليَّ باستنجاد. وكانت منذ دخلت الدار وهي تمدح في الليوان والعلية وتنسب كل شيء إليَّ، وكأنها تريد القول إنها قادمة لتخطب مني وليس من والدي، أخيها، ومن أجلي وليس لعيني خديجة وأمها. كان قراري في نفسي واضحاً، سأوافق على أيّ منهما، فهم أحرار فيما يخطبون ولمن.

"إحنا يا مختار جايين نخطب خديجة.." قالت فاطمة حسين، ولم تخاطب أخاها ابراهيم.

"وإحنا بدنا هذا الزلمة، أبو السرهد". قالت زوجتي فاطمة ذيب مقاطعة، وقد وضعت يدها على رقبة ابن خالها محمد حمودة، أبو أحمد.

"وانت يا عم، شو رأيك؟" وجهت سؤالي إلى حمودة.

"والله إحنا جايين نخطب لمحمود، وإذا ما بدكوا إياه سنبحث له عن عروس ثانية".

"كويس شوفوا لمحمود عروس وخديجة لمحمد، ويتجوزوا الأخوة سوا". قالت أم مطر، فنظرت إليها، ففهمت فوراً أنها إن فتحت فاهها الآن مرة أخرى سيعني كسر رأسها.

"ابني بتجوز لحاله، وأخوه متجوز ومخلف ولد. إحنا قلنا نطلب خديجة، لكن إذا أمها وخواتها ما بدهن، فالزواج قسمة ونصيب". قالت فاطمة حسين وعيناها تقدحان شرراً من الغضب، وقامت حتى لا تتم الزيجة الأخرى في هذه الجلسة. وقفت أودعها ووقف عمي حمودة ومن معه، لم أرغب في استمرار الحديث، وقلت له أن يفكر ويقرر، وكل شيء قسمة ونصيب.

في تلك الليلة أردت أن أكربج الإناث الثلاث، ولكن والدي أخذ يتوسل وأحمد وقف في وجهي، ومطر صار يبكي، فأقسمت أن أزوجها لمن لا يشبعها الزاد. في فجر اليوم الثالث، بعد هذه الخطبة، وجدت عمتي فاطمة حسين تنتظر إلى جانب شاحنة الماك المحملة بأقفاص العنب منذ المساء. إنه موسمنا الرئيسي في بربرة وأسافر كل يوم إلى سوق يافا لبيع المحصول.

"زوجة أبوك أقنعت أخوها أن يزوج ابنه محمد لخديجة. قالت إنك نويت على الشر، والأحسن للبنت أن تتزوج ابن خالها. يمكن يزوروك الليلة للخطبة".

"كل واحد مسؤول عن حاله وأفعاله. لو أنت أصرّيتِ تلك الليلة على الخطبة ولم تغادري على الفور، لأعطيتك خديجة لمحمود، لكنك زعلت بسرعة واختصرت المشوار. الآن إذا كان محمد من نصيبها فليكن". قلت لها بينما عوض الله يشغّل مانويلا

الماك حتى هدر صوت المحرك. تسلقت عمتي على جناح السيارة حتى أسمعها من دون أن ترفع صوتها.

"أنا مش نادمة على فشل الخطبة، ولا زعلانة من زواج محمد وخديجة. لو كنت مكانك لطالبت مبادلة خديجة بأميرة، أخت محمد بدل أختك. فكر فيها، إنت مش ناقصك أي شيء وبتستحق عشر نسوان مش اثنتين". كان فمها في أذني ودخلت كلماتها إلى أعماقي. تبسمت عمتي وهي تقفز إلى الأرض وكأنها تأكدت من مفعول قرصتها.

أرسلت عوض الله لينبه على الأخرس شعبان ليخرج بالغنم اليوم بدلاً منه لأني سآخذه معي إلى يافا. وصلنا إلى السوق ولم أتذكر أي كلمة مما كان عوض الله يتحدث به طوال الطريق. خرج من الكابينة إلى الرفرف وأخذ يصيح "بربراوي يا عنب". لم يكن بحاجة لذلك لأن مشتري الجملة يعرفون شاحنتي ويهرعون إليها فور الوصول إلى السّوق، لكنه انتشى وصعد إلى سطح الكابينة في طريقه إلى الحمولة في الخلف من دون أن يتوقف عن إبلاغ السوق بوصول عنب بربرة. حتى عندما غادرنا السوق أخذ ينادي "بالهنا والشفا يا عنب بربرة". "يا أحسن من الخليلي بألف مرة يا عنب بربرة".

"اقعد واسكت، إيش ركبك عفريت بربرة، خلص بعنا ومروحين".

"خليهم يا خال يتشوقوا لمشوار بكره، وعشان ترفع عليهم الأسعار".

"كم عمرك يا عوض الله؟".

"يمكن عشرة". قال ومغط رقبته إلى فوق. يبدو أنه يخطط لإقناعي بتغيير مهنته من راعٍ إلى مساعد مع التركات. من جهتي

قررت أيضاً أن أشغله معي بعض الوقت ثم أرسله مع شاحنتي الثانية، الفولفو لينقل إليَّ تفاصيل ما يفعله سائقها أبو العراج. الشاحنة الثالثة، الانترنش، كانت مع أخي أحمد. انفرجت أسارير عوض الله وأنا أبلغه بهذه الفرصة، لم يكن يحلم أن استنجاده باسم بربرة سيعطيه تلك الأمنية بهذه السرعة.

تجاوزنا بربرة قبل العصر وسلكنا الطريق الترابي إلى بيت جرجا ثم إلى سمسم. رأيت استشارة صديقي المختار، "أبو علي السمسماوي". توقفت عند البئر وأرسلت عوض الله لينادي من منزله على التلة شمال البئر، وحمل معه صحارة من العنب أبقيتها لهذه الغاية. لم أرغب في تكليف أهل المنزل، كما أني أعشق هذه البئر العميقة المبنية من الحجارة والتي أقيم عليها قوس. إنه أثر روماني ولا يزال يضخ الماء بالرغم من وجوده في مرتفع أيضاً.

"خير إن شاء الله، لماذا لم تسند إلى البيت؟" قال قبل أن تلتقي يده بيدي.

"خير، أريد العودة إلى بربرة لتحميل السيارة بالعنب لسوق غد". قلت وأنا أسحبه من يده لنتمشى حول البئر. "أريد رأيك في موضوع خطر على بالي". لم يسأل، فواصلت الحديث "أفكر في زواج واحدة أخرى".

"سوف تزعل أم مطر" قال بعد وهلة، ثم تابع: "لعله خير، فأنت فعلاً بحاجة إلى الكثير من الأولاد ليساعدوك في رعاية الأرض. من يواصل شراء الأراضي يحتاج إلى المزيد من البنين، فهم والمال زينة الحياة الدنيا". صمت للحظات ولم إقدم إليه معلومات إضافية، ثم عاد بعض التساؤل على محياه "سوف تعكر أم مطر حياتك".

"لن ينقصها شيء، كما أنها الآن تخطط لتزويج أختها على

ضرة بقصة مبادلة أنا ضدها، وحتى أنفِّذ لها مخططها عليها أن تتقبل هي الأخرى مبادلة وضرة". توقف صديقي ونظر إليَّ. يبدو أنه ظن أنني أبحث عن عروس من طرف معارفه، وعندما سمع كلمة مبادلة تأكد أن القصة لا تتعدى الاستشارة. "الأمر معقد قليلاً لأن والد العروس هو عمي حمودة، وهو أخ مريم محمود أم فاطمة. يعني موقفه سيكون صعباً أن يعطي ابنته كضرة على ابنة أخته. كيف سنقنعه؟"

"هل فاتحته في الأمر؟"

"ليس بعد. الليلة سيحضر لخطبة أختي خديجة لابنه محمد، ويريدها على ضرة".

"ممتاز، لا تعطهم جواباً فورياً، واطلب يومين للتفكير. في هذه الفترة سوف نجتمع على انفراد مع حمودة ونقنعه بقبول الفكرة". أعطيت السمسماوي المزيد من التفاصيل العائلية التي لا يلم بها، على الرغم من اطّلاعه على أحوالنا لكثرة الزيارات والتواصل، ثم ودّعته بعد الاتفاق أن نلتقي مساء الغد في بربرة.

وجدت فاطمة مجهزة زغاليل محشية ومحمرة في الطابون، وهي أكلتي المفضلة، وهذا يعني أن لديها معلومات عن حضور دار حمودة لخطبة خديجة وتريد إغرائي عبر المعدة. فقلت لنفسي، تمكر وامكر والله أمكر الماكرين. صعد أحمد إلى العلية وتناول بعض الطعام وهو يمهِّد الأجواء لموضوع الخطبة. كان قلبه رقيقاً على الدوام، ويميل لمن يتحايل عليه بكلمتين ويغضب أيضاً بسرعة.

"اقتنعت إذاً منهن أن نزوّج خديجة على ضرة، مع كل ما سيجره ذلك من مشاكل. ألم يكن الأفضل أن نزوجها لمحمود؟" رغبت منه أن يفهم عدم تقبلي بسهولة لما دبروه حتى يقف معي دون تردد فيما أريد.

"إذا كان حمودة راضي وابنه موافق، وأختنا تفضل هذه الزيجة على غيرها ليش نرفض؟".

"نرفض لأن هذه الزيجة سوف تجرّ علينا مشاكل وشربكات وصراعات جديدة مع دار السلطان أهل ليلى، وأختك لن تتهنّى وستضع اللوم علينا في المستقبل وتحرد كل يوم والثاني". قبل أن يقتنع أحمد تماماً برفض الفكرة أخبرته أنني سوف أوافق ولكن بشروط.

"إيش هالشروط؟".

"ستعرف غداً. شو رأي زوجتك، سعاد؟" استغرب سؤالي، فقلت له إن رأيها من رأي أبيها عبد الحفيظ، لأنها بالتأكيد نقلت إليه ما يجري في دارنا.

"أم فتحي غير مهتمة بهذا المشروع".

"إذاً عمك عبد الحفيظ لم يعد خايف أن تتوسع قصص زواج الاثنتين لأنك جبت لابنته ضرة. عموماً أنا سأمرر هذه الخطوبة، ولكن بشروط كما قلت لك. خليك غداً بعد الظهر قريب من الدار". وافق على ما أخبرته ونزل فوراً ليخبرهن بعدم الممانعة، ولم يتحدث عن شأن الشروط. بعد ثوانٍ كانت مريم محمود تصدح "ملكنا الدارين ياما هاهي هاهي". ولقد ذكّرهنّ أحمد أن الخطوبة لم تتم بعد، فعاد الهدوء تحت النخلة أمام المطبخ. على الأرجح أن أحمد فهم مما سمع للتو أن زوجة أبيه قصدها أنها ملكت دارنا بزواجها من والدنا وبزواجي من فاطمة، وأنها ستملك دار أهلها وأخيها حمودة بتنصيب ابنتها خديجة هناك.

في المساء كان كل شيء بانتظار الخُطّاب، وفاتحت حمودة فوراً إذا كان متأكداً من طلبه، وذكرته بأن دار السلطان قد يدفعون محمد العبد للزواج على ابنته، زينب، نكاية بزواج محمد حمودة

على ابنتهم. قبل أن يجيب حمودة تدخل ابنه معلناً عزمه على الخطوبة، وقال إن أولاد عبد القادر السلطان طلبوا منه عدم الزواج على أختهم، ولكنه مصرّ على مشاكستهم.

"على كل الأحوال أنا موافق بشروط سهلة، وسوف أعطيكم يومين لإعادة التفكير، وإذا بقيتم على إصراركم فأهلاً وسهلاً".

"نحن على استعداد لتقديم المهر الذي تريده لأختك". قال عمي حمودة ولم يكن يخطر بباله ما سأطلب منه مقابل خديجة.

"سنتفق بسهولة إن شاء الله ولن تتكلفوا الكثير في التجهيزات". تعمدت عدم لفظ كلمة مهر، لأن زواج البدل لا مهر فيه، وإنما كل واحد من العريسين يجهز أخته بما يستطيع. كان من الممكن أن أعلن نيتي طلب أميرة بدل خديجة فوراً، ولكن الخطر كان بانسحاب فوري من زوجتي وأمها وشقيقتها، وتخوف من محمد حمودة وأبيه على مبادلة أخرى فيكون محمد قد بادل أختيه بزوجتيه. في الواقع إنني لم أستوعب السبب الحقيقي لأبي السرهد في زواجه من ليلى قبل ثلاث سنوات، ولا أفهم سبب إقباله على خديجة، على الرغم من سماعي أن موسى السلطان، عم ليلى، قال لمحمد حمودة إن شقيقتي خديجة عندها دبلون ذهب، ونصحه ألّا يتركها. موسى يسعى لجلب ضرة لبنت أخيه، والسبب أن زوجته زينب، أختي حرّضته أن يساند زيجة محمد وخديجة. هو رجل شجاع وقوي وشغيل ووسيم وكان موضع إعجاب كل بنات البلد. حين تزوج ليلى كانت أمامه عدة خيارات، ولكنه اختار ابنة عبد القادر على الرغم من قلة حبتها وقصر قامتها ومحدودية جمالها. والآن يريد خديجة، وهي أطول منه ولا يمكن وصفها بالجميلة. لو كنت أصدق المشايخ لقلت إنه معمول له عمل في الحالتين، لكن

ها هو يقول الليلة بعظمة لسانه إنه يريد معاكسة أقاربه وأنسبائه، دار السلطان، وأنا أعرف أن وضعه المالي لا يسمح له بالزواج.

لم يكن إقناع عمي حمودة بالسهل، لكنه خفّف من معارضته عندما وعدته أن لا أعامل ابنته بمعاملة ابنه محمد لشقيقتي خديجة. كان متخوفاً من مناكدة أخته وبناتها لابنته، وكان يتوقع مشاكل مع أنسبائه وأن يعاملوا ابنته زينب بسوء كنوع من الانتقام. أكدت له أن أميرة ستكون لها غرفتها الخاصة في الدار الثانية، وأن أخته مريم هي صاحبة مشروع زواج خديجة ومحمد، وعليها تحمل النتيجة الآن وتقبل ابنة أخيها كضرّة لابنتها. كان الاجتماع في دار الشدوحي، عم زوجتي فاطمة، إلى جانب كراج سياراتنا بترتيب من أحمد الذي تقمّص دور أنه سيضغط في الدار من أجل عدم تعرض أحد لأميرة، وسيكون بالمرصاد. أما السمسماوي والشدوحي فتبادلا التنويه بالرخاء المتوافر الآن والقادم، وأن مستقبل البنت سيكون مضموناً. ونغم السمسماوي على فارق السن ظناً منه أن حمودة ربما متردّد من جرّاء ذلك، فقال إن العريس في عمر العروس مرتين، هي خمس عشرة سنة وهو واحد وثلاثون، وكل سنة قادمة سوف تقلل الفارق بينهما، عندما تصبح هي عشرين يكون هو ستة وثلاثين.

عندما تقبل عمي الفكرة أخذنا نشير إليه بضرورة الصمود الليلة في بيته إذا رفضت زوجته حليمة أو البنت، ونصحناه بأخذ تأييد محمد أولاً ثم إقناع أهل البيت من دون إكراه. قبل صلاة العشاء أكّد لنا أنه سيضمن هذه المبادلة من ناحية أهله، فأعطيته الوعد أنه لن توجد معارضة من أحد في دارنا، وقلت له إنني سوف أجهّز العروسين، وإن على محمد أن يسدّني بدل ذلك بالعمل عندي.

خرجوا إلى صلاة العشاء في الجامع وعدت مع أحمد مباشرة إلى البيت، بينما تمسك الشدوحي باستضافة السمسماوي حتى يعطينا فرصة الحديث مع أهل البيت.

"اتفقنا على إعطاء خديجة إلى محمد، وحسين سيأخذ أميرة، واللي بتحكي سأكسر رأسها فوراً" قال أحمد بعد تخطينا العتبة، فأقفلت الباب خلفنا. ولولت مريم محمود وهجمت عليها خديجة لإسكاتها معلنة لها أننا في فرح وليس ترحاً. لم يكن أحمد، في الواقع يفكر في أي نوع من الضرب، ولكن إعلان موقفه هكذا معناه أن نصيرهن المطاوع دوماً راضٍ بما سيجري، وأن الاتفاق تمَّ ولا تراجع عنه، والاعتراض سيؤدي فقط إلى بهدلة وطرد، وهذا يعني أن تذهب مريم محمود عند أخيها حمودة.

"ستكوني معززة مكرمة عندما تغادرين دار والدك". قلت لخديجة بعد أن ناديت عليها لتصعد إلى العلية. "سوف أكلِّفك وأجهِّزك بكل ما تريدين من حلي وملابس وصناديق، وبالطبع بأحسن أطلس يمكن الحصول عليه من المجدل. أحمد سيأخذكن غداً للسوق لشراء ما تحتاجينه". لم ترد سوى "شكراً"، والله يخلف عليك. نظرت في عينها وقلت "لا أريد أي متاعب في المستقبل. إذا كنتِ لا تريدين الزواج يمكن التوقف هنا والآن قبل إشهار الخطوبة غداً. أما إذا وافقتِ فلا تحضري كل يوم بمشكلة مع دار زوجك. محمد أبو السرهد متزوج ومخلف".

"توكل على الله". قالت وقد شمخت برأسها اعتزازاً بهذا الدعم، وكنت أعرف أنها لن تتراجع.

"والنعم بالله". قلت، وأنا أتمدد للاسترخاء، وعاودتني ذكريات إيجابية عنها كيف كانت تساعد عند الفجر في تسنيد العنب في الحواكير، وتركض في السماطة، وتجبل الطين كي تطرش

جدران البيت كل عام، وتحلب البقرات السبع، وتساعد في التنظيف خلف مائة نعجة بيضاء كلما ابتعد بها الراعي خارج الحاكورة. لم تقصر يوماً في أي عمل خاص بالنساء أو الرجال؛ فلو لم تكن عنيدة ومنحها الله بعض الحسن لكانت تساوي عشرة من النساء والرجال مجتمعين.

***

زواج البدائل

"الله لا يسامحك، الله لا يكسبك. شو بدك في كمان عروس؟ تكفيك ليلى السلطان، أم أحمد. وين بدك تحط خديجة ابراهيم؟". كانت أختي زينب منذ يومين قد عادت إلى دار أهلها على أمل إقناع أخيها محمد بالعدول عن الزواج على بديلتها، ليلى. وعندما شاهدت محمد يعود إلى البيت مع أبيها، وقبل أن تعرف أي تفاصيل أخذت تضرب محمد على صدره بينما أمها تبكي وأميرة وإخوانها يتابعون المشهد.

"وحِّدي الله يا زينب. لازم تفرحي لي ولأختك. ليلى غلباوية وحبتها صغيرة، بدنا خلفة وأولاد يا أختي، وأنت لن يضيرك أي شيء، لن يفرطوا فيك".

"محمد العبد حلف يمين إذا أنت اتجوزت خديجة على أخته أن يتزوج عليّ هو الآخر..." سكتت لحظات واستدركت "شو قصدك أفرح لك ولأختي؟" سألته وأمسكت ذقنها بيمينها كمن سيقسم أو يتوعد.

"أعطينا أميرة للمختار حسين ابراهيم بدل أخته خديجة". رمى هذه المعلومة على أهل الدار ونقل عينيه فيما بينهم. رمضان وحسن ينظران إليَّ، أختهما أميرة، وأمي حليمة أنزلت الشاشة البيضاء عن رأسها وغطت بها وجهها وهي تنتحب، وأنا مبحلقة في أخي محمد

حتى يعيد ما قال، أما زينب فأطلقت على الفور بيت شعر عفواً، وألقته بلحن: بدلنا النخلة بسخلة يا غراب البين.

"إنت يا محمد مش لاقي شغلة غير تبدل فينا بنات الناس. إذا بدك تتجوز، تمرجل وادفع مهر خمسين ليرة واشتري عروس، ليش ترمي أختك على فاطمة ذيب ومريم محمود؟ إن شاء الله يا شيخ ما تموت إلّا بعد ما يتعطل بشرك". كانت تعرف أنه لن يمد يده عليها، وتعرف أيضاً أن الأمر قد حسم. على الأرجح أن الخبر عنّي أنساها مخاوفها على وضعها الذاتي.

"المختار أكد لي أنكِ ستكونين مكرَّمة في بيته يا أميرة، ولن يعاملك كبدل". نطق والدي، حمودة، ليطمئنني وأختي وأمنا. "لن تلاقي أحسن منه في البلد يا بنتي". ثم نظر إلى زوجته وطالبها بالحديث وتهدئة زينب بعد أن عاتبها على وصف ابنة أخته بالسخلة، وهي التي ستصبح أيضاً كنته. وضع محمد ذراعه على كتفي وباشر في تقديم وعود التجهيز وبأنني سأكون أحلى عروس في كل فلسطين، وطالبني أن أتشجع وأرفع رأس أهلي وأن لا أتصرف كبنت صغيرة جاهلة، وأكد للجميع أنه سوف يكسيهم من القدم حتى الرأس.

"بنت عمتك يا أميرة عندها مشاكل في الخلفة. كل اللي ولدتهم قبل مطر وبعده ماتوا، ومطر ضعيف، والمختار الله معطيه النعمة، وإن شاء الله أنت تعطيه الأولاد، وسيحطك تاجاً على رأسه. ما تخافيش من صراخ زينب أمبارح، والكلام الكثير عن الضرايز. ضرتك هي بنت عمتك، بنت أختي، وإحنا كلنا جنبك".

"إن شاء الله خير يا أبي". كنت طوال ليل أمس أفكر في الأحداث المتسارعة، واستقر الرأي عندي بمطاوعة أبي وأخي لأن

ما يريدانه سيفرضانه، والأحسن هو غلب بالرضا من غلب بفضيحة. هكذا استمعت لأبي هذا الصباح وهدأت عليه حين شعر أنني راضية بالقسمة والنصيب. تركني وعاد إلى العمل في أدوات الزراعة للفلاحين من بربرة والقرى المجاورة.

"شوفي صفة الذهب ما أحلاها، زي صفة أختك زينب". قالت أمي وهي تنظر إلى جنيهات الذهب المتراصة والمعلقة في سلسال يربط حول الجبهة ليتدلي الذهب الاسترليني فوق حاجبي العروس. "أبوكِ كل سنة كان يشتري عدة جنيهات ويخبيها عشان نعملك صفة". لم تكن أمي بحاجة لإثبات حب والدي لي واهتمامه بمستقبلي، ولكني تمنيت لو أنهم أخذوا رأيي، أو لو وجد لي عريس من دون إثارة مشاكل للآخرين، وخصوصاً لأختي زينب. عندما حدثت والدتي بذلك ليلة أمس أقنعتني أن مشكلة زينب لا بد منها، لأن محمد سيتزوج من خديجة، وزواجي لا علاقة له بزينب، ولكنه سوف ينغِّص على ضرتي وأمها، وهما اللتان عملتا لتزويج محمد وخديجة، وعليهما تحمل مسؤولية أعمالهما، ونتيجة التدخل في أمور الرجال.

بعد العصر، عاد محمد من المجدل وقد حمل البغل بكسوة لكل أهل الدار ولقريباتنا. بعضها ملابس جاهزة، والأغلبية قماش لأثواب جنة ونار ولفستان أطلس وشلحات ملس وهي خاصة بالعروس فقط. حمل أيضاً حفايات، ومقشات رز للحوش ومكانس نخل ناعمات لتنظيف الغرف. اشترى ديمايات لإخوته وأبيه وواحدة له مع عباءة صوف وقنباز. لم يكن بخيلاً ولم تنقصه الجنيهات لأنَّ كل دخل محمد مما يبيع من ناتج الأرض في المجدل ويافا يتم ادّخاره. وكنا في البيت نعيش من أكوام الغلال والحبوب التي يحملها أبي ومحمد في مواسم الحصاد من الفلاحين في كل اللواء

مقابل ما يصنعه أبي لهم طوال العام من دقارين ومذاري وألواح دراس. وعندما ينتهي موسم إنتاج أرضنا من الخضروات التي يبيعها محمد، كان يحمل البغل إلى السوق بما يفيض عن حاجتنا مما يدفعه الفلاحون ويبيعها في غير موسمها بسعر أفضل. كان يقول إنه يسلم أمه كل الدخل من المبيعات، لكنه في العام الماضي اشترى قطعة أرض في عمودا وسجَّلها على اسمه، وقد علمنا بذلك من العبد الحطوم، فغضب أبي من تصرفه ولكنه لم يعاتبه. لكن أمي سألته آنذاك لماذا لم يستشرها، ولماذا لا يشتري قطع أرض أخرى؟ سمعته يسرّ لها أن ذلك المال ليس من بيع المحصول، ولكنه من تجارته في قطع السلاح، وهو لا يريد خلط أرباح تلك التجارة بدخل المحصول. قال لها يمكن أن تكون أرباح السلاح حراماً، وهو لا يريد إدخال مال حرام علينا. لم يكن يصلي أو يدخل الجامع إلا في شهر رمضان، ولكنه يعرف الحرام من الحلال. قصة السلاح صحيحة، وأنا لم أخبر أحداً عنه بعد أن شاهدت زوجته ليلى، أم أحمد، في السنة الماضية تخبِّئ السلاح في صندوق حفرت له تحت مربط البغل. كانوا يخافون من تفتيش الإنجليز عن السلاح، ولم تخبر زوجها بالمكان عمداً، لأن الإنجليز ينظرون في عيون الناس أثناء التفتيش، ويبحثون حيث تضرب أعين صاحب الدار.

مرت الأيام مسرعة، ولم تشرح لي أمي شيئاً عن الزواج، وسألت زينب فقالت "متخافيش، الزلمة بيعمل كل شيء، ولما يطب عليكِ متخافيش".

"شو يعني يطب عليّ، هي القصة عن قتال وبطاح؟".

"اسكتي بكرة تعرفي" قالت زينب ثم سألتني إذا لم أشاهد أبي وأمي في أي مرة.

"أشاهدهم كل ليلة يناموا جنب بعض، وأبي يشخر".

"طيب وكيف عملونا وولدونا، من النوم جنب بعض؟". إذاً هناك شيء آخر، وأنا أعرف هذا، ولكني أريد تفاصيل لأكون على استعداد، لكن زينب غيّرت الموضوع.

أخذني أخي محمد إلى دار عمي محمد أبي حسن الشيخ، وكان في دارهم ليوان كبير بثلاثة أقواس وقد امتلأ بالرجال. كنت مغطاة، وعلى وجهي قطعة من الشاش أرى من خلالها الدنيا كالضباب. قال لي في الطريق إن القاضي ينتظر في دار عمي لعقد كتابي على المختار، ولعقد كتابه على خديجة.

"مين القاضي، من بلدنا؟".

"لا، قاضي الجية، الشيخ حمدان عابد". تذكرت أن هذا القاضي هو الذي زوَّج أخي من ليلى وأختي زينب من محمد العبد. ها هو سيفعلها مرة أخرى.

"شو رأيك يا بنت موافقة؟" سألني بصوت مرتفع. لم يطلب أن يرى وجهي ليتأكد من أنا. فأجبته أنني موافقة. واصلوا الإجراءات بتسليم أبي على المختار بينما القاضي يمسك بيديهما ويقرأ على كل واحد منهما ما يقول، ومن ثم ينصت حتى يكرر ما سمع. ثم أخذ أخي إحدى يديَّ ووضع بعضاً من الحبر على أصابعي للتوقيع على عقد الزواج. بعدها بصم أبي على العقد وتبعه المختار. لقد كنا أميين، أبي أمِّي لأن المدرسة لم تكن قد فتحت أبوابها في أيام صباه، وأمي أمِّية لأن تعليم البنات كان ممنوعاً أيام الأتراك، والمختار أمِّي لأنه غادر بربرة صغيراً للعمل في يافا، وأنا منعوني مثل كل البنات من دخول المدارس لأن منع الأتراك كان لا يزال سارياً أيام الإنجليز. جاءت خديجة ابراهيم مع أخيها أحمد، وتكرر معها الشيء ذاته، فبصمت وبصم أخوها ووكيلها، المختار، وبصم

أخي محمد، هو الآخر لم يكن له نصيب في التعليم، ولكنه كافح لتعليم أخي رمضان وإن شاء الله سيدخل حسن المدرسة بعد سنة.

ثلاثة أيام بلياليها من الأفراح ونحر الخراف وتبادل العزائم. أثناء النهار يرقص الرجال ويدبكون على مقربة من النساء وأحياناً يرقصون سوية، وفي المساء يستقل كل فريق من الرجال والنساء عن الآخر. فالنساء من كل حمولة كن يحضرن من حارتهن سوياً، يتدرجن بالغناء خلف الرجال حاملات الهدايا من طحين وسكر وكعك، ثم يواصل الرجال مسيرهم إلى الليوان، وتنضم النساء إلى الأخريات، ولكن تبقى بنات كل حمولة في دائرتهن. بعد السهرة تطالب بنات كل حمولة كبيرهن، أو أحد شبابهن بايصالهن إلى حارتهن، فينشدن: "قوم بينا عدينا يا أخي فلان، ودينا لأهالينا وأنت على الحصان" يوصلهن من طلبن منه ذلك بينما يحملن الفوانيس، ويمكثن بعض الوقت للغناء في حارتهن ثم تذهب كل منهن إلى بيتها.

في اليوم الرابع بقيت الحناء على أطرافي نصف نهار، أي من الظهر وحتى المساء. فالأيدي تلفّ بالأربطة حتى تستمرّ علهيا الحنّاء لأطول فترة ممكنة، والرأس ملفوف بشاش، وأصابع الأقدام والعراقيب هي الأخرى محمية بالقماش. فليس هناك من فرصة للمشي أو استعمال الأيدي؛ استراحة لنصف يوم، ولكنها تقييد أيضاً على الرغم من الغناء الذي استمر طوال الوقت. تمردت في المساء على رغبة أمي وقريباتي بالنوم مكبلة بالحناء طوال الليل، فقمت بنزع الأربطة واغتسلت. في اليوم التالي غسلتني أمي أيضاً، بمساعدة من أختي زينب، وشعرت كأن جلداً قديماً قد سلخ عني من كثرة التلييف.

لم تتركني القريبات لحظة من الصباح، فاليوم الصمدة، ومع

العصر سأزف إلى بيت زوجي. حمام ثم تزويق بالكحل للعينين والحواجب والرموش، ورسم هلالين فوق حاجبي، وتمشيط الشعر ثم تجديله، ووضع بعض البودرة والمساحيق والحمرة على الوجه، ولصق ورق بهرجان على وجهي، حتى غدوت لا أعرف صورتي في المرآة، مع أنني كنت على طبيعتي أحلى بكثير، لكن العجائز فرضن إرادتهن، فجلست على كرسي الصمدة زي اللعبة. طبل وغناء ورقص أمامي من عشرات القريبات، وبنات البلد، كل نصف ساعة كنت أبدّل فستاناً حتى أستعرض أمامهن بعض ما أنجز خياطته مما جهزني به أخي. في يدي أسوارتان من الذهب على شكل أفعى، إضافة إلى أربع أساور أخرى، وعلى صدري عقد حبات الزيتون الذهبية وسلسال ختمة، والصفّة مربوطة فوق جبهتي. وبالطبع لبست الخاتم الذي سلمني إياه المختار يوم عقد القران. بعد الظهر وصلتْ الأطعمة مطهيّةً من دار أخوالي، دار أحمد، إذ كانت عزومة العرسان عندهم، فأرسلوا إلينا الطعام حتى لا ننشغل بإعداده عن الفرح. أكثر من عشر بواطي مصنوعة من خشب التوت ومليئة فت خبز رقاق وأرزّ ومرقة والكثير من لحم الغنم فوق الصواني.

أولاد عبد القادر السلطان وأعمامهم الثلاثة تغيبوا عن الفرح. وكان عم ليلى، رمضان السلطان، وأخوتها الثلاثة قد جاؤوا بالأمس إلى منزلنا وطلبوا من أختهم أن تجمع حاجياتها لترحل عن دارنا. رفضت الخروج في البداية، ثم حاولت التحايل عليهم بالقول إن خروجها سيقدم غرفة جاهزة لمحمد وخديجة، ولو بقيت في غرفتها لما وجدوا مكاناً لهما. لكنهم أجبروها، وقالوا طالما إنه تزوج عليكِ فالواجب أن تعودي إلى أهلك الآن، فعادت. أختي زينب حضرت إلى بيتنا قبل ذلك، إذ اشترط عليها زوجها أن لا تعود إذا فشلت في إبطال زيجة محمد وخديجة.

عند العصر جاء أخي محمد، فجلس إلى جانبي قليلاً ورقصت له مع الأخريات، ثم خرجنا في الزفة. حملني على الفرس بزواقها الوهابي، وبيدي السيف، فرفعته أمامي حتى لا يجرح أحداً، لأني كنت مغطاة، وبالكاد أرى ما يجري حولي. سار الرجال أمامي وهم يرقصون الدحية والسيادة يا سيد ويلوحون بالسيوف أو العكاكيز والنبابيت. كانوا في صفين ويتلاقون كموج البحر. من خلفي النساء تتقدمهن خالتي فاطمة حسين حاملة كانون الريحان على رأسها وهي تقفز كالغزال. مر الوقت كلمحة بصر، التقت زفتنا بزفة خديجة ابراهيم. انزلني أخي عن الفرس وتبادلت مع عروسه فرسها، فرس المختار، واستدار كل فريق بحمولة جديدة، انقلبت نغمات الأغاني إلى ما يشبه النواح، وسمعتهن يقلن: "يخلف على أبو محمد يخلف عليه خلفين، طلبنا النسب منه أعطانا بناته الاثنتين". عادت أمي وأختي وأهلي مع خديجة ليغنوا لها في دار أهلي، وأخذوني إلى دار حسين ابراهيم. ولحسن الحظ أنهم ليسوا غرباء، وأعرف كل الوجوه، وبيت أهلي لا يبعد عن بيتهم سوى دقائق. عند مدخل البيت ناولتني سعاد، أم فتحي، صحناً فيه عجين بخميرة، فخمرت لهم قوس الباب بكف يدي لأجلب الخير عليهم بدخولي إلى دارهم. في ذلك اليوم لم تقع عيني على ضرتي أو على عمتي، فلربما ذهبتا إلى دار أهلي لترقصا لخديجة ومحمد.

صدى الأغاني والطبل لم ينقطع عندما وجدت نفسي في غرفة مع العريس، فيها كل حاجياتي من كسوة وفرشات وأغطية جديدة وصندوقان من صنع أبي. سبق ذلك حضور خالتي فاطمة حسين وإعلانها نهاية الصمدة للعريس والعروس، وقالت للمحتفلات إن العريس سيأخذ العروس، فمع السلامة. وتذكّرت ما كنا نغنيه ونحن أصغر من ذلك في أعراس الأخريات: العريس أخذ العروس روحن

يا أمات..... مر الوقت ببطء وأنا أنتظر الهجوم. أخذ يتحدث عن نهاية موسم العنب والسوق، وقال إنه منذ سنوات لم يسافر ليبيع العنب في بيروت كما كان يفعل أيام زمان ويشاهد حفلات أسمهان وأم كلثوم، والسبب في تعطيل رحلاته هذه هي الحرب العالمية. سرقني في الحديث فبدأت أنظر إليه على ضوء الفانوس. وجه دقيق الملامح ورأس على شيء من الاستدارة تماماً وشعر قصير أسود، وشاربان مربّعان صغيران تحت فتحتي الأنف فقط.

"هل تريدين أن نتحدث في السياسة؟".

"أي سياسة، إحنا في ليلة الدخلة". قلت له وأنا أنظر نحو الباب.

"حاجات كثيرة في السياسة، العراق مثلاً وشو صار مع الكيلاني وحضور يهود العراق إلينا، أو زحف هتلر على روسيا. يمكن نحكي كمان عن ثورة الستة وثلاثين، هل توعيها؟".

"طبعاً أوعاها، كان عمري عشر سنوات قبل خمس سنين. شو استفدنا منها. ليش إنت تحب الحروب وتشارك في الثورات. كل حرب تلد حرباً جديدة وتقتل أولاد الناس. يكفينا همومنا بدون حرب".

"بلاش نحكي في الحرب، شوفي يا أميرة... أنا مش مستعجل، وايش رأيك أضيفك الليلة ونخلي الدخلة بعدين؟". شعرت بالإحراج وهو يطرح هذا المخرج وكأننا في أزمة، وبشيء من الإهانة أيضاً والإقرار منه بأنني صغيرة لا أعرف ما هو المطلوب. كل نساء البلد تزوّجن في سني أو أصغر، إلّا خديجة طبعاً، وإذا عرف أهلي غداً أن الدخلة لم تتم فسيظنّون أني مانعت عمداً ومشاكسة، أو خوفاً من شيء. اتخذت قراري برفض اقتراحه.

"لا يا مختار، الأحسن أن ننهي الموضوع الآن، وبعدين

بنحكي في السياسة. أنا مش ناقص بكرة يصيرن يقولن عني جاهلة وهبلة".

"على كيفك". قال، وتحولت بعد دقائق إلى أنثى تنتظر إنجاب الأولاد لتأكيد موقعها في البيت. ولم يترك المختار فرصة لسوء الفهم. بعد الاغتسال سلمني رزمة أوراق ملفوفة زي ماسورة. "هذه قواشين آخر قطعتين شريتهن في الجية، وقطعة وادي مطير في بربرة. كل قطعة اشتريها من الآن سأعطيك أوراقها، بس إنتِ شدي حالك في الخلفة".

***

حتمية الصراع

"سمعت ما حصل مع عبد الهادي يوسف؟"، سألتْ أم مطر ابن عمها الشيخ محمد مراد.

"لا لم أسمع، ولكن قصصه كلها على باب الله". أجابها الشيخ، وانتظر أن نحدثه بما نعرف. كان الشيخ أول من حضر الليلة إلى المقعد، ولم يكن المختار قد عاد من الشغل، على غير العادة، وكنت أنا أجهز النار وأغسل بكارج القهوة.

"قال يا سيدي..." قالت ضرَّتي وهي تقطف أوراق الملوخية عن عيدانها. "كان مروّح قبل يومين من الحاكورة والدنيا قبل العشا، تأخر شوية في النكاشة في عمودا. شاف في الطريق رجل ختيار تعبان من المشي فعرض عليه أن يركب خلفه على الحمار حتى يوصلة للاسفلت".

"يعني الختيار ما طلب مساعدة لكن عبد الهادي تطوع، وهذه أول غلطة".

"صحيح، يريد أن يكسب حسنة، ويمكن كان خايف واختار رفقة راجل آخر". واصلت ضرّتي القصة والتي كان يمكن اختصارها في كلمتين، ولكنها أخذت راحتها. "ركب الختيار خلف عبد الهادي على الحمار. بعد شوية شاف عبد الهادي أن أرجل الختيار تكاد تجر على الأرض، وظن أنه سحل عن ظهر الحمار، فقال له أمسك في خصري إذا خايف تقع".

"هذه ثاني غلطة، ويستاهل اللي سيجري له".

"بعد شوية صارت أرجل الختيار تشحط على الأرض، وذراعيه تشتد على بطن عبد الهادي، فعرف أن رفيقه جني يريد أن يركبه. فقال للجني أمسك في رقبتي يا ختيار شايفك ستقع. وما كاد يفك يديه عن خصر عبد الهادي حتى نطّ هذا عن الحمار قبل أن يمسك الجني برقبته، وأخذ يركض حتى وصل البلد من دون أن يلتفت وراه".

"والحمار شو صار فيه؟" سأل الشيخ.

"ولا حاجة روّح وحده على الدار بعد عبد الهادي". أجابته بنت عمه.

"عفريت ركب عبد الهادي". قلت ونحن نضحك، لكن الشيخ لم يشاركنا السخرية.

"الذي يؤمن بالرحمن عليه أن يقر بوجود الشيطان". قال الرجل بجد فأمسكت وضرّتي عن الضحك.

"يا ابن العمّ هذا صحيح، لكن هذه القصة معناها قلة عقل ودين. أحنا يا النسوان بنروح على الحواكير في الفجر وأحياناً نروح في الليل، ولا شفنا عفريت ولا قرد. فيه كلاب وضباع صحيح...".

"احمدي ربك أنه لم يطلع لك ولا عفريت".

"الحمد لله" قلنا سوياً وأكملت أم مطر بأن العفاريت لا تظهر لمن إيمانه قوي. "والنسوان إيمانهن أقوى من إيمان الرجال". سكتت لحظة واضافت "الرجال ناقصين عقل ودين".

"الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض". قال الشيخ محمد، وسمعت أنا صوت شاحنة المختار فذهبت لتسخين طعامه وتحضير الماء ليغسل وجهه ويديه. وسمعت الاثنين يواصلان الحديث.

"الرجال قوّامون على النساء، كان هذا أيام زمان، لكن الحال الآن تغير، بنشتغل أكثر منكم ونرتاح أقل، ونحبل ونلد وأنتم ربحانين الدنيا وبدكم تربحوا الآخرة".

"هذا كلام الله العزيز الحكيم ولا يتغير ولا يتبدل". لم يكن ابن عمها غاضباً من مجادلتها، ولكنه أحياناً يلحن صوته ليفرض رأيه.

"كنتم قوّامين زمان عشان الحرب والغزوات ونشر الإسلام، ولكن إحنا اللي ولدناكم، وكيف الواحد يصير قوّام على اللي صنعه؟ وبعدين القرآن قال ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما".

"مين نهر والديه هذه المرة؟" سأل المختار بعد أن دخل المنزل وسمع هذه الجملة من زوجته الأولى. قلت له إن فاطمة تقول النساء زي الرجال، وليس من أحدٍ قوام على أحد.

"اليوم صرتن زي الرجال وبكره بتصيرن أحسن منا. اللي يعيش يشوف". نشف يديه، وأضاف بصوت مرتفع لتسمعه زوجته "اليوم بنشر الدولاب الخلفي، ولو أنت وأميرة وعشرين واحدة ما عرفتن تغيرن الدولاب". قلت له الله يعينك، وقالت أم مطر: لو كانت هي وعشرون واحدة لحملن الشاحنة على رؤوسهن وأوصلنها إلى بقية المشوار. تمتم حتى لا تسمعه وابن عمها، "ما أكبر جحّتك".

"ماذا يضحككم؟" سألت أم مطر، والتي كانت قد وضعتنا تحت المراقبة منذ دخول المختار إلى البيت.

"تصورت كيف أنت وعشرين واحدة تحملن الشاحنة وتجرن، يعني زي أم أربعة وأربعين". راودتني هذه الصورة بالفعل، فقلت، سأعرضها كسبب للضحك بدل البوح بما قال المختار، فعدنا إلى الضحك من جديد. قلت للمختار إن العفريت ركب عبد الهادي

يوسف، فقال إنه سمع بما جرى، ومحمد سعيد هدّأ من خوفة ومرّجه بالزيت، وأم رزق سقته الماء من طاسة الطربة.

في الشهر التاسع على زواجنا نجحت الواسطات في إعادة كل من أختي زينب وبديلتها ليلى إلى زوجيهما. وكانت بديلتي خديجة تزور بيت أهلها بشكل يومي تقريباً، وكلما طبخت أمهما شيئاً دسماً كانت ترسل إليها كي تأتي وتأكل معهما من دون أن تشركاني معهن، وخصوصاً عندما يطبخن قدرة لحمة مع البصل في الطابون. مع ذلك كانت علاقتي مع خديجة عادية حتى لا أحرِّض أخي عليها لأنها بديلتي. وعندما عادت ليلى شعرت خديجة بأنها هي الزوجة الأولى، وأن ليلى هي الجديدة، وأخذتها نار الغيرة يوماً بعد الآخر لأن شهور العسل التسعة انتهت. صرت أسمع من أمي عن بروز عنادها، وأنها أصبحت لا تفيق عند الفجر لإتمام الشغل، ولكنها تنام حتى السابعة ولا تفيق إلّا على صراخ أبي عليها وفي وجه ضرّتها ليلى للخروج إلى الحواكير. لقد أصبحتا تشبهان بعضهما بعضاً في النوم والكسل.

بعد زواجي بأسبوع هلَّ علينا شهر رمضان، وها نحن على أبواب الشهر الكريم مرة أخرى. ومنذ زمن والنساء يسألن إذا كنت حاملاً على الرغم من رؤيتهن لبطني ضامراً وخصري يمكن إحاطته باليدين. بعضهن يسألن للاطمئنان، وغيرهن لتذكيري بنقص في تركيبتي. في دار المختار، زوّقت بيتي برسوم ونقوش، وخصصت مصطبتين للجلوس عليهما، والمصطبة الثالثة لوضع الفرشات والأغطية. كانت غرفتي مبنية من الحجر، وسقفها من الإسمنت، وفوقها العلية الجديدة التي أقامها أبو مطر بعد توليه المخترة، وتحت الغرفة وكر ومخبأ للأسلحة والذخيرة. وقبل قدوم الشتوية ساعدت أم مطر، وساعدتنا خضرا في تلييس بقية الدار بالطين

المخلوط بالتبن. كانت ضرتي تخلط وأنا أشكّل الطين مثل الكرات وأرميها على السطح إلى خضرا. وهذا عمل يهد الحيل ويتعب المفاصل، وهو أصعب بكثير من العمل في الأرض ونكش أشجار الزيتون والتفاح والخوخ والعنب. وكلما كان يظهر عليّ تعب أو تردّد، كنت أسمع الأخريات يتندرن بأني صغيرة ويجب أن لا أتعب بسرعة، وكنت أرد عليهن أن الخير في العتاقي ومن الطبيعي أن يشتغلن أكثر مني.

"صرنا على أبواب رمضان يا أميرة، وغداً عندي سفر إلى القدس، هل ينقص مطبخك أي شيء يمكن أن أحضره من هناك؟".

"لا، تسلم، الحمد لله كل شيء موجود من خيرك". تذكرت ما كان المختار قد حدثني عنه عندما سكن في يافا، والذي يستعمله الجيش الإنجليزي، فأكملت بالقول "لكن إذا شفت بابور الكاز الذي حكيت عنه في السابق، اشتري لي واحد، وخليهم يعلموك كيف بيشتغل، أحسن ما يفقع فينا".

"إن شاء الله إذا تذكرت، وإذا وجدته في القدس سأشتريه، وأجيب تنكتين كاز". لم يقل إن فاطمة تجيد استعمال البابور، وكان يحسس على بطنه أثناء الحديث لأنه كان في عزومة، فأجبروه على الأكل أكثر من طاقته، ولم يستطع المقاومة لأنه مغرم بالمفتول الذي نفش في بطنه الآن.

"سأغلي لك مرمرية". قلت ونهضت لتسخين الماء، فإذا بصوت صراخ، ثم فتح الباب، ودخلت خديجة ابراهيم والدم يسيل من رأسها. تقدمت منها بشكل عفوي لمساعدتها فدفعتني وصرخت في أخيها أن يقوم ويضربني ويسيل دمي. وقف المختار ودفعها بشيء من الحدة خارج غرفتي وهو يحاول سؤالها عما حدث.

"أخوها فشخ رأسي، مش شايف دمي؟ يا تفتح رأسها يا تطردها". لم تعد تولول، بل كانت فعلاً تعطي أوامر. على الفور باشرت بفتح صندوقي لأجمع ذهباتي وحاجياتي المهمة بانتظار المغادرة.

"ليش ضربك زوجك؟ هيك من الطريق؟".

"قال لي أروح أشتغل في أرض عمودا البعيدة، وطلب من ليلى السلطان تشتغل في حاكورة البلد القريبة. قلت له رجلي على رجل ضرتي نشتغل سوية إما في مارس عمودا أو في حاكورة البلد".

"وغير هيك شو صار؟" سألها المختار بتأنٍ وكأنها غير مبللة بالدم. هدأ بالي قليلاً وأنا أستمع لإقرارها برفض أوامر زوجها.

"شو صار ! هقشني على رأسي وصار دمي شلالة يا مختار. اطرد أميرة أو خليني أخش عليها قبل ما نطردها".

"رأسك لا ينزف الآن، روحي غسلي حالك والصبح أحمد يأخذك على غزة يخيطوا جرحك".

"ليش مقعدها في الدار، لا تحبل ولا تلد، قاعدة عشان تنبسط معاها؟". لم يرد المختار عليها، وفتح باب غرفتي وتناول الكرباج المرمي خلف الصندوق، والذي كان يأخذه معه كلما خرج راكباً الفرس لمتابعة العمال في الأرض. خرج من دون أن ينبس بحرف واحد. ثم ارتفع صوت الكرباج وصراخ خديجة.

"يعني أنت وأمك اللي تلدن ولد بعد ولد". المزيد من الضرب والولولة. شرعت الباب للفرجة، فإذا بضرتي وأمها تصرخان وتحاولان منع المختار من الكربجة، فانصبَّ الضرب عليهما أيضاً. وصل أحمد على الصراخ فسحب خديجة بعيداً، وأمره أخوه أن يأخذ الاثنتين الأخريين معه.

هدأت الحال، وخرجت لتحضير المرمرية فإذا بالبقرة قد استغلت الفوضى وفتحت باب الزريبة والباب الآخر الموصل إلى ساحة البيت، ووصلت إلى الخابية، وطبّت على الطحين. كان رأسها أبيض من آثار تناول الطحين. ناديت على زوجي ليرى ما حصل. عاينها ونادى على أخيه وتأكدا أنها ستموت الليلة.

"سآخذها عند العبد ثريا ليراقبها الليلة، وإذا شافها مودعة يذبحها قبل ما تموت". قال أحمد وهو يسحبها وهي تجعر. "العبد ثريا هو أصغر اللحامين في البلد ويمكنه السهر معها وتقرير مصيرها".

عندما غادر المختار في الفجر إلى القدس، ذهبت فوراً إلى دار أهلي، وجدتهم يفطرون بيضاً مسلوقاً وزعتراً وزيتاً وجبنة وخبزاً طازجاً من الطابون.

"عاملين حفلة إن شاء الله عشان سيلتم دم خديجة؟". كنت غاضبة جداً من محمد ولم أصبّح عليهم عندما دخلت. "تضربها وتطردها عشان يضربوني ويخربوا بيتي؟" قام أبي وأخذ يطيب خاطري، ويؤكد أنّ أبا أحمد تسرَّع.

"البقرة ماتت، وخديجة ستذهب اليوم مع أخيها إلى غزة لتقطيب جرحها. الليلة خديجة ابراهيم تنام هنا في دارها". نظر محمد إلي بعينين مبحلقتين وفم فاغر، ولم ترفع زوجته ليلى رأسها عن صحن الزيت. "زي ما بتسمع، الليلة ترجعها بالتي هي أحسن".

"وإذا ما بدها ترجع شو أغصبها؟".

"تغصبها وتبوس...". هدأت ثورتي قليلاً بعد أن أعطت مفعولها، فكلام محمد معناه أنه مستعد لإعادتها فوراً، وأصبحت متأكدة أنها ستقبل العودة بعد كل ما لاقته في دار أهلها. حدثتهم

بما فعل المختار، فخجل محمد وأخذ يهمهم أنه سيراضيها عندما تعود من غزة. حاولت أخذ تنازل آخر بأن يعدني أن لا يدعها تخرج حردانة أو مطرودة من داره، ولكنه رفض وقال إنها عنيدة وتحتاج إلى تذكير بين الحين والآخر من هو الرّجل في الدار. "يعني بدك تخلي حياتي معرضة للنكد طول عمري. إذا المختار هالمرة ناصرني ففي المرة الجاية يكون الضرب من نصيبي، وفي كل الأحوال سيبدأ النكد الآن مع أمها وأخواتها ومعها". لم يرد عليّ بأي شيء. بقيت في دار أهلي حتى تأكدت أنها عادت من غزة، فسحبت محمد إلى دار المختار، فجلس يستمع إلى عتاب وبهدلة من عمته من دون أن يتفوّه بأي كلمة، وأمسك خديجة من يدها وجرها إلى البيت وهي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى.

عندما عاد المختار بعد المغرب لم أخبره أنّ مطر عاد ليرجم الحجارة، وأنه كسر الجرة على رأسي وأنا عائدة من البئر. وكان ابن ضرتي قد رجم عليّ في الشهر الثاني من زواجي، ونهره أبوه آنذاك عندما أبلغته. لكنه ابنه الوحيد، وقد شاهد ما حصل في البيت أمس، وبالطبع سمع سخط عمتي وتحريضها، فعاد يرجم الحجارة، واكتفيت بإبلاغ أمه التي ادّعت أنها لم تحرّضه ولكنه يتصرف من رأسه.

ناولني المختار علبة قال إن فيها بابوراً جديداً، وطلب من زوج شقيقته الثانية، موسى السلطان، أن يساعد عوض الله في إنزال الراديو وبطاريته من الترك. قام موسى ونشط معه آخرون ممن حضروا حتى الآن إلى المقعد، لإنزال الراديو بعد أن سمعوا بالخبر. تصرف عوض الله كخبير، وطلب أن يساعدوه في وضع الراديو على المصطبة في الليوان، ورفع صوته وهو يحذر من يحمل البطارية بألّا يدَع ميّة النار تصل إلى ديمايته. تجمع أكثر من عشرة

شباب ورجال حول عوض الله وهو يشبك مرابط الراديو ببطارية الشاحنة التي بدت كبيرة وثقيلة، فقوّست ظهر من حملها. لكن الراديو كان أكبر منها، إنه صندوق خشب أكبر من صندوق ملابسي، وله شبك على نافذة في الوسط وزجاج في الأسفل دوّنت عليه بعض الأرقام، إضافة إلى مفتاحين في الأسفل، فصدرت أصوات خشخشة وأخذ عوض الله يحرّك في المفاتيح.

"هات مصر". قال أبو رزق وقد تربع وباشر في لفّ سيجارة.

"بقولوا لندن أحسن، هات لندن". قال أبو فتحي. لكن الراديو لم ينطق، وخبط عوض الله على جبهته وهو يعلن أنّ الراديو يحتاج إلى سلك ايريال. فتحي ومطر تبادلا بينهما تحريك مفتاحي الصوت والمحطات فانطلق صرير أخذ يعلو ويهبط حتى طلب منهما أبو فتحي أن يكفا لأنه باشر في الرد على سؤال من أبي رزق، لماذا إذاعة لندن أحسن من إذاعة مصر.

"راديو مصر أخباره عن الملك ومشاكل الحكومة المصرية". أبعد أبو فتحي ابنه ليجلس ويكف عن الاقتراب من الراديو ثم واصل حديثه. "هل تعرف أول خبر أذاعته محطة لندن بالعربي شو كان؟". سكت أبو رزق في انتظار الجواب من صاحب السؤال. "قبل أربع سنوات، يعني في سنة الـ 1938 كان الخبر الأول عن إعدام واحد فلسطيني على يد الجيش البريطاني لأنهم ضبطوا عنده بارودة، فغضب الحكام العرب عندما سمعوا الخبر، واحتجوا على تصرف الحكومة البريطانية، وقال الملك عبد العزيز إن السبب في شنق الرجل هي السياسة الصهيونية التي تحكم بريطانيا".

"وايش استفدنا، الزلمة انشنق". علق موسى على كلام نسيبه.

"استفدنا أن راديو لندن يقول الحقيقة حتى لو كانت تزعج

حكومتهم، وهو أحسن من راديو برلين". التفت أبو فتحي إلى عمه عبد الحفيظ وهو ينطق بالكلمات الأخيرة بصوت أقل حدة.

"أنا لم أسمع راديو برلين، سمعت عن يونس البحري المذيع الذي يصرخ حيي العرب. لكن بالطبع سياسة الألمان أحسن من الإنجليز". هكذا أعلن عبد الحفيظ موقفه.

"قصدك يا عم أننا جرّبنا الإنجليز ولم نجرِّب الألمان. خاف الله إن الاثنين أنجس من بعض". ضحكوا على تعليق محمد سعيد، فهو درويش لا يتحدث إلّا قليلاً في الجلسات العادية. يقولون عنه إنه هادئ لأنه يحفر آباراً ويقضي وقتاً طويلاً كل يوم تحت رحمة الانهيارات، ولهذا لا يتحدث بصوت مرتفع إلّا في جلسات الدروشة لشكر ربنا على نجاته.

أحاديث المقعد في المساء كانت تُسمع من مسافة بعيدة، ولم تكن هناك فرصة من الانشغال عنها أو تجاهل ما يقولون، وخصوصاً عند الانخراط في السياسة حيث ترتفع الأصوات حول أحداث الحرب العالمية واقتراب هزيمة بريطانيا. عرفت من زوجي أن شكل شنبه الغريب هو تقليد لشنب هتلر والألمان عموماً، وهو بالتالي لا يحب أي كلام ضد الألمان، وعندما انضم إلى الحديث هذه الليلة ذكّرهم بأن هتلر قد طالب شعبه أن يتعلم من تجربة الشعب الفلسطيني الصغير الضعيف وهو يناطح دولة امبراطورية. هزوا رؤوسهم معترفين بشجاعة شعبنا ضد الإنجليز، وقال أحدهم إن الألمان يفهمون ومحترمون ويكرهون اليهود. لكن محمد سعيد رد عليه بأن الألمان من كثرة حبهم واحترامهم لنا يرسلون يهودهم إلينا. وسط معاودتهم للكحّ والضحك أضاف عبد الحفيظ إن

الإنجليز يحبون اليهود إلى درجة إعلان وزير المستعمرات، قبل شهرين، بأن منظماتهم هنا تماثل الحرس الوطني في بريطانيا.

مرَّ شهر رمضان على خير هذا الصيف، ولا أتذكر أصعب من صيامه، لكنني كنت مرتاحة إلى الوضع في البيت، خصوصاً وأن المختار أعطاني "قوشان" أرض جديداً لـ 33 دونماً في سمسم. أخذت الأوراق في اليوم التالي إلى بيت أهلي وقرأ أخي حسن مما كتب في القوشان أنّ اسم القطعة وادي القاضي، وصاحبها الذي باعها اسمه رمضان السمسماوي، وثمنها التخميني 375 جنيهاً، لكن ثمنها الفعلي المدفوع هو 166 جنيهاً فقط، وقال حسن إنها مسجلة باسم زوجي في دائرة طابو غزة بتاريخ 30 يوليو 1942، يعني سجلها قبل أيام عندما زرنا الطبيب. تلك الزيارة غمّت بدني، فقد سمعت الدكتور يقول للمختار بعد أن كشف عليّ، إنني صغيرة على الحبل والميلاد، وقد يستغرق الأمر أكثر من عام آخر، ولا جدوى في الأدوية الآن. لم أخبر أحداً، ولم أقل لزوجي إنني سمعت وهو أيضاً لم يظهر أي غمّ، وها هو يقدم لي قوشاناً جديداً لقطعة في القرية الملاصقة لبربرة. كان شغل زوجي يتحسن في مواسم قطف العنب فيحمّل الشاحنات ويبيع في يافا وغزة والقدس وحيفا، حسب كمية الإنتاج من كرومنا ومن كروم أهل بربرة.

قبل أن أغادر بيت العائلة دخلت أختي زينب، وكانت دموعها تنهمر فوق خدّيها. المسكينة لم يهدأ بالها، ومن يوم زواج أخي محمد من خديجة على ليلى أم أحمد، ودار السلطان "مطلعين عينين زينب". أبلغتنا أن زوجها رضخ لضغط أهله وخطب قريبته بنت عايشة صالحة لتكون ضرة عليها، يعني انتقم من زواج محمد على أخته بالزواج على أخت محمد. هذه المسألة كانت متوقعة من

زمان، الجديد أن أختي زينب لم تعد قادرة على التحايل وإبعاد زوجها عن رغبات أهله بالانتقام. لكن لو أراد أخي محمد الانتقام لأختي زينب فعليه طلاق زوجته أم أحمد ليلى التي عادت أخيراً بعد حرد طويل إلى بيت الزوجية، وهذا بالطبع ما ترغب بحصوله بديلتي خديجة ابراهيم ليصفو لها الجو في بيت أهلي، لكن زينب ستدفع الثمن حينها لأن زوجها سيجبر على تطليقها كما تطلقت أخته. حملت قواشيني وقلت لزينب وأنا أغادر البيت "عودي إلى بيت زوجك، فلا خلاص من القدر المكتوب، ولا تتركي لدار السلطان أن يتهنوا بدونك، بكرة بتخلفي ولد بدل البنت اللي ماتت ويتحسن الوضع". استغربت أنها اقتنعت بسهولة أن دار زوجها أحسن لها، ولو على ضرة من الجلوس في دار أهلها، ولم تطُل حيرتي إذ قالت إنها حامل، وإن زوجها عرف بذلك ولكنه لا يصدقها، أو لم يعد قادراً على تحمل ضغط أبيه وإخوته.

لم تكن زينب الحامل الوحيدة، ولكنها الأتعس لأن هذا الحمل لم يمنع زوجها من إتمام الزواج على آمنة السلطان، فانتقل سوء نحس زينب إليَّ، فأشهرت كل من خديجة ابراهيم، بديلتي، وفاطمة ذيب، ضرتي أنهما حاملان. بالنسبة لخديجة لم يكن هناك ما يمنعها من الحمل فهي كبيرة في السن، لكن ضرّتي كفّت عن ذلك بعد أن تكرر فقدانها للأجنة طوال سنوات مضت قبل ابنها عبدالله، وتعوقت لثلاث سنوات بعده. وأعلنت سعاد، أم فتحي أنها حامل هي الأخرى وستنجب لأخ زوجي طفلاً ثالثاً بعد فتحي وندى، وهذا يعزز من موقعها في البيت في ظل عدم إنجاب ضرّتها فاطمة الخياطة. لم يهتم المختار لهذه الأخبار، وعلى الأرجح أنه كان يتوقع فشلاً جديداً لزوجته الأولى، لكنّ ما خفف من وقع وتأثير هذه الأخبار عليّ، أنّ عمي ابراهيم توفي. كان مريضاً منذ

سنوات، ولا يغادر الفراش، وكان ابنه أحمد صورة مصغرة عنه، على عكس زوجي المختار الذي كان أطول وأقل بياضاً من أبيه وأخيه الوحيد من أمه وأبيه، أما شقيقتاهما زينب وخديجة فقد اكتسبتا أوصاف عمتي مريم محمود. أنا وحسن وزينب ورمضان ومحمد أخذنا أوصاف أمي حليمة، وهي من دار أحمد وليست عَدوانية، أما شقيقاي محمود وخديجة، ولدا فاطمة حسين، فأخذا بعض أوصاف من أبي.

أقيمت لابراهيم حسين جنازة لم تشهد بربرة مثلها من قبل. تقدمها الدراويش وحملة الرايات والطبول ودق الطاسات، وسار خلفه كل أهل البلد وأصدقاء لحسين وأحمد من كل المناطق. طبعاً لو لم يكن المتوفى هو والد المختار، ولم يكن المختار صاحب سيارات وأراضٍ وسمعة طيبة، لما حضر لتشييع الجنازة وبيت العزاء إلّا أهل الميت وجيرانه، وبالطبع أهالي بربرة.

مع ميلاد الابن الثاني للمختار، عبد الرحمن، اشترى قطعة أرض الشومرة وقطعة أحمد عودة في سمسم بـ 88 جنيهاً وأعطى القواشين لضرتي. حاول أن يراضيني عندما عرفت بالأمر، ولكنه قال إن الأرض رخيصة، وهذه ليست آخر قطعة يشتريها. قلت له محتجة إنه صار عندها قواشين لأراضٍ أكثر مني بعشر مرات، ولم أصرّ على خلق مشكلة لأن الأرض تحتاج لمن يزرعها وأنا ما زلت عاقراً، ولم أحب أن يتذكر ذلك في كل مناسبة، خصوصاً وأن شقيقاته لا يتوقفن عن التلميح والتصريح بذلك بمناسبة أو من دونها، خصوصاً زينب ابراهيم التي أنجبت ولدين لموسى السلطان.

***

خراب برلين

"صاحبنا هتلر وقع في أيدي الروس. أمسكوه " صاحب الصوت هو أحمد أبو عجينة، صديق زوجي المختار، والذي أخذ يتردد بشكل شبه يومي على المقعد. لا شغل للرجال منذ زمن طويل سوى متابعة الحرب، وصار الهم والأسى يغلب على أحاديثهم لأن الألمان انهزموا. لم أشاهد ملامح الرجال في المقعد عند سماعهم هذا الخبر من أبي عجينة، ولكني أعرفهم ولا يخفى عليّ صوتهم الذي يسمع غالباً في كل أرجاء البيت، وأحياناً عند الجيران، وهذا يكفي لتخيل تأثرهم مما يقال عن الحرب وأخبارها.

"لا أعتقد أنهم أسروه، إما سيختفي ليعود ويقاوم مرة أخرى، أو ينتحر، ولكن هتلر لن يقع في الأسر". قال عبد الحفيظ بصوت حزين.

"على الأرجح كلام عمي صحيح". قال المختار وصار يشرح للحضور ما سمعه بعضهم أيضاً من راديو لندن، بأن هملر، نائب هتلر، قد كلف الكونت برنادوت السويدي، ليتوسط عند الحلفاء على قبول نصف استسلام ألماني، وهذا سيعني ضمان حياة الزعماء الألمان.

"لكن الأمريكان رفضوا الفكرة، والروس دمروا بونكر هتلر وأسروه في برلين". عاد أبو عجينة يكربج المستمعين بمصير هتلر. طوال الشهور الأخيرة ورواد مقعدنا يبررون الهزائم والتراجع للجيش

الألماني بأنها حركات ومناورات حربية، وأن الألمان لديهم أسلحة سرية لم يستعملوها. والآن والد أسعد أبي عجينة لا يريد التراجع عن قصة أسر هتلر، لأنّ ذلك يعني الوصول إلى النهاية.

"يمكن الروس أسروه، لكن سبب هزيمته فعلاً هم اليهود". قال الشيخ عبدالله، أبو فهمي، "حرضوا الامريكان ليساعدوا بريطانيا في الحرب. بدون تدخل الأمريكان كان الألمان سيحتلون كل أوروبا".

"الله يبشرك بالخير يا شيخ". كان الصوت لعمي حسان أبي عودة الذي أضاف "اليوم حركوا أمريكا ضد الألمان وبكرة الدور علينا". ساد الصمت قليلاً حتى قال زوجي:

"ضيّعنا ست سنوات الحرب بانتظار هزيمة بريطانيا ووصول الألمان، بينما اشترك اليهود في الحرب مع الإنجليز وتعلموا القتال. في أقل من سنة بعد نزول الإنجليز والأمريكان في فرنسا احتلوا أوروبا وهزموا ألمانيا وأخذوا برلين".

"الأمريكان الآن يطالبون بريطانيا باستقبال يهود المعسكرات الذين حرروهم، استقبالهم في فلسطين. ومنذ سنوات والرئيس الأمريكي يضغط على بريطانيا لإدخال 100 ألف يهودي. ولما احتجَّ العرب قال الرئيس لهم إن عنده أربعة ملايين ناخب يهودي في أمريكا وهو يحتاج إلى أصواتهم في الانتخابات". كان صاحب الصوت هو محمد علي، الذي يجلس في العادة إلى جانب والده عبد الحفيظ، وأحياناً يكون معه أخوه كمال، ومنذ أن تزوج محمد علي آمنة جبريل صار أبوها وابنه جمعة يحضران إلى المقعد بانتظام.

"طيب ما يأخذ بقيتهم من أوروبا لأمريكا حتى يصير عنده ناخبين أكثر". قال أبو أسعد.

"أو طالما هزموا هتلر واحتلوا أوروبا، يبقى اليهود في بلادهم معززين من الأمريكان". أكمل المختار رأي صديقه، الذي يشبهه أيضاً في الطول وتفاصيل الوجه. لكنّ عيني المختار أصغر وأنفه أقصر قليلاً من أنف أحمد أبي عجينة. كان الاثنان ومعهم كامل أبو نحل قد شاركوا في حملة محاربة الطرابيش الحمراء التي عمت كل مدن فلسطين. الآن يضع كبار السنّ حطة وعقالاً، أحياناً بيضاء وأحياناً أخرى حمراء، وهي أنفع من الطرابيش التركية، لأنها تحمي من الشمس والريح والرمل والبرد.

وبينما العالم في حرب، كنت مع ضرتي في حالة هدنة وسلام، وأحياناً كنت أساعدها في الاعتناء بابنها الثاني الذي نلقبه عبد حسين، بدل عبد الرحمن. صار عمره الآن ثلاث سنوات ولم تحبل ضرتي من بعده، وأنا أيضاً ما زلت من دون خلفة بالرغم من زياراتي المتعددة إلى الطبيب في غزة وتناول الأدوية. بديلتي خديجة ولدت بنتاً، أسمتها سعده، وأختي زينب أنجبت بنتاً أيضاً، زهدية. أما سعاد فقد أنجبت قبل سنتين ولداً، هو حكمت، وصار عندها ولدان وبنت. آمنة جبريل أنجبت لمحمد علي ولداً أسمته ماجد.

في سنوات الحرب كثرت الزيجات في بربرة، وصار الرجال يشتغلون مع الإنجليز في المعسكرات ويقبضون رواتب شهرية. يسرحون الصبح ويروحون بعد الظهر ويتناولون طعام العشاء عند عودتهم من الشغل. الأكل تغيّر عند عمال الإنجليز من عدس أو زيتون أو سلطة، إلى طبيخ يوضع في الطابون، خضار ولحمة أو طيور أو فتة سمن أو ملاحة. وبديلاً من باطية الخشب والطنجرة وقدرة الفخار، أصبح عند بعضهم باطيتان ومغارف خشب وصحون فخار، وصاروا يلبسون فانلات نصف كم، وجزماً، ويدخنون السجائر. وكل من لا يملك أهله أرضاً أو مطحنة أو معصرة أو

مغزلاً، أو لا يملك مهنة مثل لحام أو نجار أو حلاق، صار يشتغل عند الإنجليز لأن جنودهم منشغلون في الحرب.

أما العزاب فكانوا يغادرون الكمب ويلبسون الجاكيتات، حاملين سجائر برنجي وسبيشل يضعونها خلف آذانهم، ويقفون في طريق عودة البنات إلى البئر، أو يوم الجمعة على الطريق الذي تسلكه النساء وهنَّ راجعات من سوق المجدل. والبنت التي يضايقها واحد منهم تقول "سلاح البشط مراية ومشط". زمان كان الرجال يلبسون طاقية وعليها لفة حطة أو حتى طاقيتان حتى تتلقى الضرب بالسيف أو بالنبوت، لكن الآن هناك رجال كثر كشفوا رؤوسهم وأخذوا يمشطون شعرهم، بينما بعض الختيارية كانوا يمشطون لحاهم وشواربهم.

إنَّ الذين يشتغلون الآن مع الإنجليز هم أكثر من الذين اشتغلوا مع الأتراك، حسب كلام الختيارية. طبعاً تركيا كانت تأخذ أولاد الناس عساكر في الحروب، لكن الإنجليز يشغلونهم في الشرطة وعمالاً في المعسكرات. ومن الذين اشتغلوا في الكمب ابن الشيخ عارف، إمام الجامع، ومحمد عيد وأخوه مطاوع، وذياب العزامي وأخوه حسن، ورمضان معضه، وغيرهم الكثير. لقد صار الرجال يقلدون الإنجليز ويشترون قمصاناً من يافا أو يخيطون في البلد، واشتغلت فاطمة الخياطة وزوجة قدورة وكنتها في خياطة الملابس للرجال والنساء. أما أولاد أصحاب الأرض فكانوا لا يهتمون بالملابس، فكل واحد عنده ديماية للمناسبات، وأخرى فيها خطوط سوداء يلبسونها أثناء الشغل وينامون من التعب على الجرن ويتغطون بالقش. حتى في الأعياد، وفي أوقات فراغهم لمدة نصف نهار، فكانوا يذهبون صباحاً إلى الجامع ثم يعودون إلى العمل في الأرض أو مع الدواب بملابسهم اليومية. كذلك انتشرت الجزم قليلاً إلى

جانب الصنادل السوداء من صنع أهل غزة، فكانت تفصّل في المجدل عند منير، وتستمر على حالها لسنوات لأنها تستعمل في المناسبات ثم يعاد تخزينها لمناسبة أخرى. وقبل سنوات كانت التي تنتعل كندرة تلقب في البلد، أم كندرة، والآن صارت الكنادر للنساء لا تثير الألقاب، لكن معظم نساء بربرة لا يستعملن أي كنادر أثناء الشغل.

ارتفع أيضاً عدد مشاغل المزاود في البيوت إلى 15 مشغلاً، فكانت تغسل الصوف وتبرمه ثم يصبغ في المجدل وينسج في مغازل كقطع متوسطة تخاط إلى جانب بعضها لتصبح مزودة طويلة مزوقة بالشراشيب. كانت بربرة تبيع المزاود في أسواق يافا والمجدل وسوق الخميس في الفالوجه الذي يزوره البدو والعرب فوق ظهور دوابهم، لكن بعض أهل بربرة أخذوا يشترون مزاود أيضاً بالرغم من ارتفاع أسعارها الآن، أما الغالبية فكانت تستعمل الحصر. لقد جدد المختار في شهر رمضان الماضي مزاود المقعد، وتصدقنا ببعض القديم منها على عائلات مستورة وحشونا المساند بقش جديد.

في اليوم الأول للدراسة هذا العام ذهبت مع ابن ضرتي، مطر، ومع أخي حسن إلى المدرسة. كان مطر قد تم تسجيله في الصف الأول، بينما حسن، وعمره عشر سنوات فقد صار في الصف الثالث. أردت رؤية الفصول التي حرمنا من التعلم فيها. في المدرسة ثمانية فصول في كل منها مقاعد للجلوس وسبورة. ورأيت المكتبة وكرة أرضية فوق الخزانة. وقال حسن إنه يمكن استعارة كتاب واحد لمدة أسبوع. وهكذا، كان الأولاد يتابعون دروساً يومية في الدين والتاريخ والجغرافيا والزراعة والحساب والإملاء.

"يا حظك في الدراسة طول اليوم، صبح وبعد الظهر في

المدرسة. لا شغل في الزراعة ولا طبيخ ولا تنظيف، ولا تزبيل، وتعرف تقرأ كل الكتب والجرايد".

"يا حظك أنت في البيت، بعيداً عن فلقات الأستاذ محمد ياسين التي تسيل الدم من القدمين". قال حسن رداً على تحسري، وكنت قد تركت مطر في فصل المبتدئين، ولم يسمع في يومه الأول بما ينتظره في المدرسة من ضرب. خرجت قبل أن يتواجد الأساتذة والناظر وبقية الطلاب. لو كنت تعلمت لأصبحت الآن مدرِّسة، لكنهم يمنعوننا من التعليم ويجبروننا على الزواج المبكر، ويتوقعون أن نحبل ونلد توأم أولاد كل سنة. التعليم في بربرة قديم، ولقد كان يتمّ في الجامع ثم انتقل الأولاد عام 1928 إلى هذه المدرسة، يعني منذ سبع عشرة سنة. فمن يوم مغادرتهم الجامع نادراً ما يذهب الطلاب لتأدية الصلاة. حتى الكبار الذين لا عمل لديهم لا يذهبون إلى الصلاة في الجامع إلّا خجلاً من بعضهم بعضاً، وهم الذين يعمّرون بيت الله؛ بينما بقية الرجال والشباب فإنهم يصلّون في الأعياد وعلى الموتى.

قبل أن تفتح المدرسة أبوابها هذا العام أغلق ربنا مقهيين كانا قد أقيما في أحد الشوارع قرب المدرسة. كان الأول لأحمد أبي عدوان، ثم أقام محمد عيد مقهى آخر، وعلى الإسفلت أيضاً. مقهى أبي عدوان كان في الناحية الجنوبية، ومقهى محمد عيد في الناحية الشمالية من البلدة. وحتى يستريحوا من التنظيف وإزالة العشب والحجارة عن الأرض، احتل كل منهما نصف الشارع العام الموصل بين يافا وغزة. الزبائن يجلسون على كراسي خشب لشرب الشاي والحلبة واليانسون، ويلعبون ورق شدة على الطاولات. استمرت الأحوال هكذا لشهور الصيف من دون حوادث تذكر؛ مرة دخل إلى مقهى محمد عيد عربيد أسود ففر الشباب في كل اتجاه،

كما راقب ضبع عن قرب مقهى أبي عدوان، فتشجع الزبائن بقذفه بالحجارة، حتى جاء يوم أعمى ربنا فيه عيني سائق قادم بسيارة شحن من يافا ودخلت إلى خيمة محمد عيد، فقفز الزبائن هاربين لكن الشاحنة لحقت بواحد منهم وصادته ومات.

في يوم الجمعة التالي قال الشيخ عبدالله في الخطبة حول المقاهي، التي أغلقت، وروادها: "المعصية الأولى كلقمة تناولها جائع، فما ردت ذئب الجوع وإنما فتحت الشهية على الطعام. لكن لذة قهر الهوى أكبر وهي التي تضمن السلامة". وحتى يهوّن الشيخ على رواد المقاهي معصيتهم قال في الخطبة: "لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم".

على الأرجح أن الحرامي من دار حماد لم يستغفر ربه على ذنوبه فقطع رقبته على السكة التي مشى القطار فوقها. كان يمارس السرقة داخل القطار وقفز عندما طارده الركاب ووقع تحت العجلات. هذا ما أخبرتنا به بديلتي خديجة التي تعرفه منذ ما قبل الزواج. قالت إنها تعرفت إليه حين سمعت الدجاج والحبش يطقطق بأصواته في المساء فركضت من السطح، حيث كانت تنام، إلى الحظيرة فهرب اللص قفزاً من فوق السياج. قالت إنها طاردته ولحقت به إلى جانب نبات الصبَّار وهو راكب فوق ذكر الحبش حتى لا يهرب منه. "وقف يا ملعون أبوك والله لأقطعك". شاهدته فهرب وعادت بالحبش، ولكنها لم تخبر أخوتها آنذاك حتى لا يقتلوه. "ومن يومها كل ما يشوفني في الشارع يخفض رأسه زي الحرمة المخزية". ثم ترحمت عليه بعد أن نقلت إلينا خبر قطع رقبته الذي علمت به من زوجها، أخي محمد.

عموماً كانت خديجة لا تغيب عنا يومين متواصلين، فهي على الدوام تزور بيت أهلها، فتترك ابنتها سعده عند أمها وتذهب للعمل

في الحواكير. وكلما طبخت مريم محمود لحوماً أو طيوراً فانها كانت ترسل في طلب خديجة وأختها زينب لتنعما بالطعام الذي لا ينوبني منه سوى رائحته. فلو كان كل منا من بلد مختلف لكان أفضل، لكنها تغادر بيت أهلي وتمر بدار السلطان والشيخ سعد وتقطع الشارع فإذا بها في بيت المختار. المهم أن خديجة وزينب متأكدتان أن المختار وأخاه أحمد يعاملانهما بقسوة وينتقمان منهما بسبب إساءة زوجة الأب لهما في الصغر، وتكرر خديجة القول إنه لو أنجبت أمها لابراهيم أولاداً، لكان من السهل أن يحمياها. مع ذلك فهي تترك بيت زوجها وتأتي طوعاً على قدميها كل يوم لتنال من قساوة المختار.

"سبحان مغير الأحوال". قال المختار وهو يتحرر من ملابسه الرسمية بعد أن عاد من بيت عزاء صديقه، أبي أسعد، الذي توفي والده، عبدالله. "كان الإنجليز أقوى امبراطورية، ثم انهارت قواهم من جراء الحرب العالمية ضد الألمان، وعادوا لينتصروا على الرغم من كل المصاعب التي تحيط بهم".

"يمكن الله معهم يا مختار!"

"الله مع الكل يا أميرة، ولكن الإنجليز أباليس وكذابين وشجعان". نظرت نحو زوجي مستغربة هذا التقييم، فأكمل: ".. أباليس لأنهم تحايلوا على الأمريكان وأدخلوهم الحرب ضد الألمان، ولأنهم استفادوا من اليهود للتأثير على الرئيس الأمريكي. وكذابين لأنهم كذبوا علينا في الكتب البيضاء وفي الوعود من يوم دخّلوهم للمنطقة قبل ثلاثين سنة. وشجعان لأنهم لا يعترفون بهزيمة، وتحملوا في الحرب ما لا تتحمله الجبال".

"الله يكسرهم ويهد حيلهم". سايرت المختار في الحديث،

ويبدو أنه استمع إلى معلومات جديدة عن الحرب من بعض رواد بيت عزاء أبي عجينة.

"قبل خمس سنوات رمت ألمانيا على بريطانيا 40 ألف طن متفجرات من الجو، ودمروا لهم نصف لندن. لكن كل عام بعد ذلك صار عدد القذائف الألمانية ينقص، وعدد الإنجليزية والأمريكية على ألمانيا يزيد، حتى صار 650 ألف طن في السنة الماضية".

"الله يبعد عنا المصايب، ويكون في عون الألمان". تذكرت كيف أن صوت الرصاصة يرعب، فكيف انفجار هذه القنابل فوق رؤوس الناس وفي بيوتهم وشوارعهم. "الحمد لله إن حربهم ما وصلت بلاد العرب".

"هي وصلت مصر وليبيا والمغرب، لكنهم كانوا يقاتلوا في بعضهم، ولم يتقاتلوا في مدننا. وهذا السبب جعل العرب يقفون على الحياد، فنحن لم نقاتل ضد أي طرف بالفعل".

"وجماعة المفتي اللي دخلوا في جيش هتلر؟" سألت ضرتي زوجها وهي تصل إلى الليوان حاملة العشاء، وتبعها مطر وعبد الرحمن.

"لم يحاربوا أو يطلقوا رصاصة ضد الإنجليز، ولم يصلوا إلى أي بلد عربي أصلاً، كلهم هربوا ويتسرسبوا الآن إلى بلدانهم سيراً على الأقدام. وإذا أمسك الإنجليز بالمفتي سوف يشنقوه". قال المختار وهو يتناول الطعام من زوجته، وأضاف: "نحن بحاجة إلى أن يستفيد العرب مما لديهم في تحسين العلاقة مع الإنجليز والأمريكان الآن".

"ماذا عند العرب؟" سألت أم مطر.

"كل البنزين الذي تستعمله أسلحتهم، بنزين عربي، ومعظم

المعارك دارت في صحارى العرب. صحيح الحرب انتهت الآن، لكن حاجة الإنجليز والأمريكان لهذه الأشياء لن تنتهي".

"البنزين بنزينهم، يطلعونه من الأرض، والبلاد العربية هم حكامها، وخليها على الله". كان جواب أم مطر الجاهز على رأس لسانها.

"الإنجليز أنفسهم يقولوا، يا فصحة، إنهم بحاجة لبلاد العرب حتى بعد الحرب. ووزير الخارجية قال في الصحف إنه من دون بلاد العرب فإن مستوى حياة الإنجليز سيهبط".

"الإنجليز صاروا بعد الحرب ذنب لليهود وللرئيس هاري ترومان، وما في منهم خير". قاطعت ضرتي زوجها الذي تمتم وهو يقضم من بطيخة بعد أن تناول قطعة جبنة بيضاء:

"من أي إذاعة سمعتِ هالكلام؟ الأمريكان ضغطوا على الإنجليز لجلب اليهود لفلسطين، حتى يتخلصوا منهم، وليس لأنهم يحبونهم".

"راديو مصر قال إن بريطانيا قبلت دخول 20 ألف يهودي إلى فلسطين من الذين كانوا في معسكرات الألمان، وإن لجنة أمريكية إنجليزية زارت المعسكرات وزارت فلسطين والجامعة العربية، والتقت مع عبد الرحمن عزام". كانت أم مطر تتحدث وهي واثقة، ويبدو أنها سمعت هذه الأخبار اليوم.

***

يا ريتهم قسَّموا

"كانت الطيارة جاية فوق البحر وقبل ما تصل المجدل صاروا المصريين يطخوا عليها". قالت وهي ترتجف وسط النساء اللواتي تجمّعن للاستفسار. "بعدين لفت راجعة ورمت القنابل علينا في وسط البلد". لقد وصلت للتو مع أطفال ونساء أخريات إلى بربرة المجاورة لقريتها، الجورة، وحلّوا ضيوفاً عندنا، في بيت المختار، ثم توزعوا عند بقية عائلات بربرة. في الأسبوع الماضي وصلت عائلات هاربة من المجدل خوفاً من غارات الطائرات اليهودية، وكانت واحدة من النساء تولول "يا ريتهم قسموا".

"ليش قالت المجدلاوية يا ريتهم قسموا؟" سألت حينها زوجي، المختار.

"لأن المجدل، ويافا الأبعد منها ونحن في بربرة وحتى رفح والعوجا، تقع في الجزء العربي من قرار التقسيم". تنهد المختار وأضاف ما معناه إن يافا وحيفا وعكا والشمال كله راح لليهود قبل أن تدخل الجيوش العربية، أو تغادرنا قوات الإنجليز.

"يعني في خطر تروح المجدل وبربرة كمان؟"

"خليها على الله يا أميرة، إنت شايفة، أول ما دخل العرب من شهرين جمعوا السلاح من الناس، وكل المنطقة الشمالية من عندنا إلى يافا كان ما فيها يهود، لكن الجيش المصري وصل اسدود وانسحب إلى المجدل وهو يرفض التقدم في مناطق عربية

تماماً، واليهود يقصفون المنطقة، بين فترة وأخرى، بالطائرات. بربرة والمجدل تعجّان بالناس الهاربين من زرنوقة والقبيبة وهوج، وأهل اسدود وبيت داراس وحمامة وجولس وكوكبا، كلهم لحقوا بالجيش المصري عندما انسحب من اسدود إلى المجدل. أهل حته وكرتيا وعراق سويدان نزحوا تحت الفالوجا على برير وسمسم لأن الجيش المصري دخل الفالوجا ولم يتقدم شمالاً ليكون بموازاة المجدل في الغرب".

"لو هجم المصريون على تل أبيب كان أحسن، الطيارات لن تضربهم عند اليهود، وجنود اليهود سيحضرون من الجبهات الاخرى للدفاع".

"صدقت يا مسعود، بدل ذلك جلسوا لتلقي الضرب، العرب يحترمون الهدنة واليهود يعملون كل ما يستطيعون أثناء هالهدنة، مثلما حصل في شهر حزيران". قال زوجي لمسعود وهو يغادر البيت عصراً، لم يركب الفرس البيضاء، ولم يشغل الجيب. منذ سقوط يافا قبل شهر ونصف والمختار دائماً "زهقان ومكشر ويستعيذ بالله مما سيأتي، ويتندم على رفض الفرص والحلول السابقة، وكأننا على حافة يوم القيامة". لم يبتسم إلّا للفرس عندما كان يأخذها في جولات قصيرة على الحواكير، ولكنه خرج اليوم سيراً على قدميه.

مسعود هذا طفل سعودي عمره عشر سنوات جاء متطوعاً للدفاع عن فلسطين. وصل مع رجال سعوديين إلى بربرة قبل دخول الجيش المصري بكثير، وعندما شاهده المختار طلب من جماعته أن يتركوه عندنا في البيت ريثما تنتهي الحرب، وأصبح زي واحد من أولادنا. سألته بعد أيام من إقامته عندنا لماذا جاء إلى هنا، فقال: حضروا إلى المدرسة وتحدثوا عن فلسطين وخطر اليهود، فسألونا: من

يتطوع للقتال، فتطوعت مع بقية أولاد الصف، ووزعونا مع متطوعين أكبر في السن وحضرنا عن طريق مصر. كان أحياناً يسهر معي أو مع ضرتي، أم مطر، في العلية ونحن نحرس حارتنا في الليل. كان يسأل لماذا ينام رجال بربرة بينما نساء المختار يحرسن القرية ومعهن قنابل وبنادق. كنت أجيبه إن نساء المختار لا يشتغلن في الأرض مثل بقية السكان الذين يمنعهم الإرهاق من السهر. ولكن أم مطر كانت تحكي له كل شيء عن طبيعة البعض في القرية وإنهم ليسوا رجالاً، وكل واحد من هذا النوع همه نفسه، ولا يتَّحدون مع الآخرين إلّا في أوقات الشدة والمصائب. وأحياناً كانت تحدثه عن واجبات المخترة ومسؤولياتها، وإن الحراسة إحدى تبعاتها. كان كلامها صريحاً، والصحيح أننا كنا نعمل في الأرض أكثر من الرجال، لكن منذ بداية الحرب طلب منا المختار الاعتناء بحاكورة البيت فقط ومناوبة الحراسة من فوق العلية في الليل، وهذا أحسن بكثير من شقى شغل الأرض. ولو أننا كنا نذهب مع الثوار فإن ذلك أحسن وأحسن حتى نرتاح من العناية بالبقرات السّبع والفرس والحمارة وابنها والطبيخ والنفيخ والعناية بالحاكورة، ننكش ونزرع بطيخاً وبطاطا ونخدم دوالي العنب وأشجار الخوخ والتفاح والزيتون واللوز؛ طبعاً أنا وضرّتي لا نذهب إلى الحصاد لأن هناك عمالاً للقيام بهذا العمل وثلاثة رعيان لرعاية الغنم. لكن شغل الحاكورة والبيت يهد الحيل هو الآخر، تربية دواجن وأرانب وحمام وعمل جبنة من الحليب، والآن نوبة حراسة بين ليلة وأخرى. وبالإضافة لكل هذا هناك ابنتي البكر، عائشة، التي لم يبلغ عمرها عاماً للآن، الله رزقني إياها بعد صبر وأدوية وزيارات إلى الطبيب في غزة. المختار أقدم على الزواج مني من أجل أن أنجب له أولاداً يزرعون في الأرض التي يشتريها في بربرة وبرير

وسمسم والجية. كان المختار يأمل أن يكون ولده البكر صبياً، لكن الله رزقنا بعائشة، وسماها على اسم أمه التي ماتت وهو طفل. الحمد لله صحتي أحسن الآن، وقد أصبحت بعد الميلاد أشبه بالعود من الهزال، "الله يسامحها اللي كبستني، ودخلت عليَّ وعليها العادة الشهرية، كنت راح أموت فيها، لكني ذهبت مع أختي زينب على الدكتور في المجدل، وأعطاني دواء، وصحتي عادت".

تطل العلية في بيتنا على الحاكورة، وكذلك على الشارع العام وتفصل بينها وبين البركة حاكورة المصري. ومن الجنوب، تطل العلية على مدرسة القرية التي أصبحت الآن أحد مقرات الجيش المصري. السبب الرئيسي لقيامنا بالحراسة أن اليهود أطلقوا علينا النار أكثر من مرة من ناحية الإسفلت وهم يتنقلون في طريقهم بين مستعمرة دير سنيد، الكبنية، وبين تل أبيب، وحطموا نوافذ المدرسة. آخر مرة أطلقوا النار باتجاهنا كان يوم السبت، ثاني يوم سماعنا خبر مذبحة دير ياسين وسقوط القسطل واستشهاد عبد القادر الحسيني حيث شعر اليهود بقوتهم فأرادوا إرهابنا. وبسبب ذلك، نصب لهم زوجي ورجال من القرية كميناً وقتلوا بعضهم وتدخل الإنجليز حتى أخلينا سبيل بقية القافلة لكننا أصررنا على أخذ سياراتهم التي وضعها زوجي في كراجنا عند بقية السيارات. حفر الرجال نفقاً صغيراً تحت الإسفلت وربطوا فتحي، ابن سلفي، من رجله بالحبل وأعطوه اللغم. ولما طلت القافلة من ناحية المجدل زحف فتحي ووضع اللغم في النفق وأخرج الفتيل، وكانوا قبل ذلك قد رشوا الإسفلت بمادة الكاز، فلما اقتربوا أشعل فتحي الفتيل وسحبوه بالحبل حتى لا تراه القافلة اليهودية. انفجر اللغم ووقفت القافلة وسط الحريق، وصار الجميع يطلق النار باتجاههم. مات

مختار الكبنية وزوجته وابنته، احترقوا، لأنهم كانوا في عربة المقدمة، لكن بقية أفراد القافلة أخذوا يطلقون النار، ولم يتمكنوا من الهرب، حتى جاء الإنجليز وتوسطوا وأخذوهم من دون سياراتهم. وبعدها صرنا نخاف أن ينتقموا منا، فعملنا مناوبة حراسة أنا وأم مطر بعد أن علمنا المختار كيف نرمي القنابل إذا لزم الأمر. بعد وصول الجيش المصري لم نعد نظهر أي سلاح، وكل من عنده قطعة خبّأها. زوجي أعطاهم بارودة خربانة وأخرى جيدة مع شوية رصاص، لأنه من الصعب أن يصدِّقوا أنه لا يملك سلاحاً. سلاحنا الآن في حفرة تحت الأرض في الغرفة تحت العلية، عند الحراسة في الليل نأخذ منه، وعند الصباح نعيد السلاح إلى مخبئه.

وعند غروب الشمس جهّزنا طعام الإفطار من حواضر البيت وهو عبارة عن جبنة وزيت وزعتر وبيض مسلوق وزيتون، وعنابية مع الخبز للصغار، فقد حلَّ علينا رمضان في عز الصيف. أفطر الرجال الذين هربوا من الجورة والمجدل، ثم جلسوا في الليوان وكنت أسمع حديثهم من الشرفة في الجهة الشرقية من البيت. قال أحدهم إنه شاهد بأمّ عينه كيف فشلت طائرة يهودية في إصابة سفينة مصرية وصلت المجدل تحمل إمداداً للقوات. كان الرجل فوق تلة مشرفة على البحر يرعى قطيعه وينظر إلى السفينة المصرية. ثم شاهد طائرة تغير عليها وترمي قنبلة سقطت في البحر. تنبه قائد السفينة فأخذ يدور ويدور بسرعة وفي حركات متنوعة، بينما الطائرة تغير وتقذف وتفشل في إصابة السفينة، ثم تغادر، بعد أن نفذ وقودها، أو ذخيرتها، وهكذا أنزلت السفينة الحمولة وعادت إلى مصر. لم يصدق الحضور قصته، وقال عمي أبو عودة إن هذه السفينة مثل حمار جحا، تزوغ زوغان من بين نقط المطر فلا تبتل. لكن الرجل أعاد التأكيد عما شاهد وسط ضحك الآخرين، وقال الشيخ عبدالله

لعل وعسى أن تكون الإمدادات كافية، ومهارة الجند مثل زميلهم قائد السفينة، وعاد ليسأل الراعي إذا كانت السفينة لم تطلق نيراناً على الطائرة، فجاءه الجواب بالنفي.

"لكن كيف صار عند اليهود طيارات؟" سأل عودة رواد المقعد، وكان رجال القرية يحضرون مع إفطارهم في رمضان ويتبادلون الأطعمة ويتسامرون في الأحاديث. أجابه أخوه محمود فوراً بأن الإنجليز باعوهم إياها، لأنهم يتخلصون من أسلحتهم ومعداتهم قبل الانسحاب ويقبضون ثمنها غالياً من اليهود.

"وليش إحنا ما نشتري طيارات ومصفحات الإنجليز؟" عاد عودة يسأل.

"آخ آخ" قال الشيخ ربيع ومطّ في الآخ الأخيرة تعبيراً عن الأسى. "مليون سبب يا عودة. مصاري اليهود أكثر من مصارينا، واليهود خلقهم الإنجليز وإحنا خلقنا ربنا، واليهود إلهُم من الحرب العالمية الأولى والثانية مع الجيش الإنجليزي يتعلمون ويتدرّبون على كل شيء، واحنا ما عنا ولا طيار، والإنجليز والأميركان والشيوعيين كمان، يحسبونا في فلسطين على العرب اللي عندهم جيوش ولهم جامعة دول، ويقولوا اليهود كانوا وحدهم، قلة من الناس الفقراء بدون أسلحة ينتظرون هجوم ملايين العرب عليهم بعد رحيل الإنجليز".

"والمصريين ما عندهم طيارات؟".

"عندهم يا ابني لكن ما في عندهم بنزين". قال أبو عودة لابنه.

"امبارح قال الراديو إن جريدة الأهرام كتبت إن الإنجليز صادروا منا في سنوات الإضراب والثورة الأربع بعد الـ 36 تعرفوا كم بندقية ومسدس؟" صمتوا بانتظار أن يكمل الشيخ ربيع ما

سمع، ولكن موسى السلطان قال ستة آلاف، ثم صمت ليسمع الاجابة.

"6371 بندقية و3220 مسدساً و1812 قنبلة، لكن ما صادروه قبل وبعد ذلك غير محسوب".

"كويس أنك حفظت شوية من الرقم". قال رمضان لأخيه موسى ودعا الله أن يخرب بيت الإنجليز ويذلهم بين شعوب الأرض.

"الأميركان معنا أو مع اليهود؟" سأل سلفي أحمد، الشيخ ربيع.

"الأميركان مع اليهود وباعوهم عشر طائرات، والإنجليز مع اليهود وباعوهم 22 طائرة، والشيوعيين مع اليهود وباعوهم 20 طائرة. عندهم طيارات كثير وقوية، وإلّا كيف أغاروا من الجو على عمان ودمشق بعد أسبوعين من إعلان دولة إسرائيل!".

"لكن رئيس أميركا مع التقسيم، ويمكن يضغط على اليهود يرجّعوا المدن والمناطق التي احتلوها خارج حدود قرار التقسيم".

"في المشمش". قال أبو عودة رداً على تخمين أحمد.

"لما تقوم عمتي عايشة من القبر". قال حسن الشيخ.

"هذا الكلام يا أحمد فات أوانه". قال الشيخ ربيع وأكمل: "بعد زيارة اللجنة الإنجليزية الأمريكية لفلسطين واللقاء مع أحمد عزام في القاهرة أواخر عام 1945، اقترحت اللجنة قيام دولة مستقلة للعرب ولليهود سوياً من دون تقسيم فلسطين على أن يفتح باب الهجرة لليهود. قياداتنا والعرب رفضوا هذا الاقتراح في حينه وفي العام التالي أثناء انعقاد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن". واستطرد الشيخ من دون أن يسأله أحد عن سبب الرفض انذاك: " كان همّ كل العرب وقف الهجرة بقرار بريطاني وبالطبع منع انتقال

الأراضي لليهود، ولم يتمعن أي عربي في إيجابيات دعم أمريكا وبريطانيا لإقامة دولة مشتركة. ساد لدينا الخوف أن العالم يريد إرسال كل يهوده إلى فلسطين، وانعدمت الثقة في بريطانيا. قال الملك ابن سعود آنذاك إن اقتراح اللجنة يعني قيام دولة يهودية ستكون ضربة قاتلة ضد كل العرب وتهدد السلام في المنطقة. اقترح العرب بالمقابل قيام دولة فلسطينية يأخذ فيها اليهود حقوق الأقلية وتمنع الهجرة، وهذا رفضه الإنجليز والأميركان. وحتى في مؤتمر لندن اقترح الإنجليز قيام دولتين، عربية بحصتين، ويهودية بحصة جغرافية من فلسطين، ولكن العرب رفضوا، ولذلك، ولأن بريطانيا أضعفتها الحروب وثورات مستعمراتها قررت إعادة القضية إلى الأمم المتحدة، يعني للدول المنتصرة في الحرب". كان الجميع قد صمتوا أثناء سرد الشيخ لهذا التاريخ الموجز والحديث. بعد ذلك، فتّش الشيخ في جيوبه وأخرج قصاصة جريدة قال إن فيها ما قاله عبد الرحمن باشا عزام للوفد الأميركي حين سألوه عن تشنج العرب ضد اليهود الساميين مثلهم والخارجين للتو من الاضطهاد النازي. أخذ الشيخ يقرأ:

"أخونا اليهودي هاجر إلى أوروبا ويعود إلينا الآن بشكل مختلف. يعود كيهودي روسي وألماني وبولندي وبريطاني، يعود بأفكار غريبة جديدة تماماً. اليهود أبناء عمومتنا القدماء يعودون بأفكار امبريالية، بأفكار مادية، وبأفكار رجعية أو ثورية ويحاولون حيناً بدعم بريطاني والآن بدعم أميركي وأحياناً بإرهابهم الخاص، يحاولون اضطهادنا. لم يعد هذا هو ابن عمنا اليهودي الجيد، لذلك فلا نرحب به. إن الصهيوني اليهودي الجديد يعود ليحكم ويدعي أن لديه مهمة حضارية ضد الرجعية والأمة المتخلِّفة، وإن عناصره هي التقدمية في منطقة متخلفة. العرب يقولون له بوضوح، لا. نحن

الأمة العربية لسنا رجعيين أو متخلفين ولن نسمح لأحد بالسيطرة علينا سواء كان قوة عظمى أو أمة ممزقة".

"وإحنا تحمسنا آنذاك واعتقدنا أن العرب سوف يناصرونا ويحاربوا معنا بعد رحيل الإنجليز، وإن هزيمة اليهود مضمونة". قال أحمد وهو ينظر إلى المزودة ويعبث في شراشيبها، وكان الآخرون يهزون رؤوسهم ويمصون شفاههم.

***

عاد زوجي إلى البيت بعد ثلاثة أيام وكان جسمه قد نحل لكن عينيه كانتا أكثر لمعاناً. لم نقلق كثيراً عندما غاب لأننا علمنا أن الجيش المصري قد اقتاده إلى المجدل، وكونه المختار ونحن في حرب فهناك مبررات كثيرة لذهابه معهم. قطع صيامه وأكل واستراح وأخذنا، أنا وأم مطر، نستدرجه بالكلام أين ذهب، فقد ساورتنا شكوك أنه ربما يبحث عن زوجة ثالثة تنجب له أولاداً لأنّ الرجال لا أمان لهم.

"أنتنَّ خايفات على غيابي ولا تعرفن أنني كنت على حافة الموت".

"بعيد الشر، يموتوا عدوينك". قلت فوراً بينما ضرتي تقول "خير إن شاء الله، ما تقطع قلوبنا".

"ضابط الجيش في المدرسة أخبرني أنهم يريدونني في المجدل لأمر هام، فخرجت معهم في سيارتهم على الفور ووصلنا قبل المغرب". صمت المختار ولم ننبس بكلمة في انتظار أن يكمل. "استقبلوني بكلابشات في يديَّ، ووقف جندي إلى جانبي في زاوية الغرفة حتى يجد الضابط الوقت للحديث معي". احمرّت عينا

المختار وشهقت أم مطر، وشعرت أنا بدوار، بكت عائشة، فضممتها إلى صدري وأخذت ترضع.

"قبل منتصف الليل استقبلني ضابط بثلاث نجمات في غرفة مضاءة بلمبة كاز والنوافذ مغطاة بخشب وورق حتى لا ترى الطائرات الإسرائيلية الضوء. سجل اسمي ووظيفتي وبلدي". وسرد علينا المختار ما حدث.

"إنت عندك عربية جيب؟".

"نعم جيب وثلاث شاحنات في الكراج".

"بتعرف يهود؟"

"نعم في يهودي كان يزورنا في البلد، اسمه مانويل، لكنني لم أره منذ آخر الشتوية".

"ليه كان يزورك، وعن إيه تتحدثون؟".

"نتحدث في أخبار الدنيا، وكان مانويل كل مرة يطلب مني التأكيد أنني سوف أحميه مع عائلته في بيتي عندما تقوم الحرب، لأنه خايف العرب يذبحوهم".

عاد الاطمئنان إلى قلبي لأني أعرف أن مانويل رجل محترم، وكان يحضر معه من تل أبيب الحلويات، ومرة أحضر زوجته وكانت تغطي شعرها زي المسلمين، لكنها كانت تربطه بمنديل فوق الرأس، وليس مثل شاشياتنا البيضاء الأقرب لحطّات الرجال.

"يعني لو كل واحد منكم يحمي عائلة يهودية وين صرنا؟".

"ولا مكان، سيجلسوا ساكتين في بيوتنا خوفاً من الجيوش العربية. لكن يا حضرة الضابط، فقط مانويل طلب حماية لأنه صاحبنا ومتدين وفي حاله، بقية اليهود كما ترى يحاربون ويقتلون ونحن نرد عليهم ونحاربهم بما لدينا قبل وصول الجيوش العربية".

"شوف يا حسين، أنت متهم بالتجسس لليهود". قال المختار

لنا ما قاله الضابط المصري له، فنزل قلبي مرة أخرى، ودعت ضرتي على المصريين.

"في ناس شافوك وأنت تعطي إشارات من أضواء الجيب للطائرات حتى تعرف أين تقصف". قال المصري لزوجي.

"لكن الجيب في الكراج ولم يتحرك من شهر، والجيش في المدرسة يعرفون ذلك، وأسلاك البطارية مفكوكة".

"شو مصلحة الشهود بالكذب إذاً؟"

"لا يهمني الشهود، بربرة لم تقصف بالطائرات حتى الآن، والمجدل فيها عرب ويهود وناس هاربه من كل البلدان، والطائرات تشوف مواقعكم في النهار وتضرب متى شاءت، ولا تحتاج لدليل يعطيها إشارات من 15 كيلو متر".

"إذاً أنت خبير عسكري، تعرف المسافات، وكلام الشهود صحيح. بلدكم فلسطين مليان جواسيس وأصدقاء لليهود، وعشان كده تم تجريدكم من السلاح".

قال المختار: انتهت الجلسة عند هذا الحد، بعد ذلك أخرجوه من الغرفة ووضعوه في قفص حديد في ساحة المعسكر. في الصباح دخلت سيارة جيب الموقع وفي داخلها أحمد عبد العزيز، وهو صديق لزوجي ورتَّبوا سوياً بعض الغارات على اليهود قبل دخول الجيش المصري، لأنه جاء مع المتطوعين.

"ناديت عليه، فجاء ركضاً وهو يسأل من بعيد، إنت بتعمل إيه هنا؟ قلت له: إسأل جماعتك". قال زوجي إن أحمد عبد العزيز عاد إليه بعد فترة ومعه مفاتيح القفص، وقال له إن حظه من السماء لأن الضابط المناوب حكم عليه بالإعدام "وكانوا ناويين يطخّوه اليوم".

وقفت ضرتي على رجليها وعرف زوجي أنها تريد أن تطلق

أبيات الهيهاويّات والزغاريد لتغيظ الأعداء وتعلن أنه عاد بسلامة. لم يكن يساورنا شك من هم الذين صنعوا هذا المطب. شدها المختار من ثوبها، وقال لها: من دون زغاريد الآن. إذاً الموضوع لم ينته، فهو يحب الهيهاويات وخصوصاً عندما نصفه بذياب بن غانم ونرتجل أبياتاً مناسبة. ولو لم يمنعها من التغريد لكنت بدوري أطلقت الزغاريد، ولكانت شقيقاته وبقية أفراد العائلة قد وصلوا إلينا قبل الانتهاء من ذلك. كنت ساقول:

الحمد لله بعودة الغياب، الحمد لله بعودتك يا ذياب

عدت رافع راسك فرحان والمخترة ما تفارق العدوان.

"خليني أفش غلي وألعن أبوهم يا مختار". قالت ضرتي ذلك، وزوجي يطلب إليها أن تجلس، وفهمت هي أن له هدفاً من الكتمان، فاستحلفته بالله وبحياة عبد الله وعبد الرحمن، لم تذكر اسم عائشة طبعاً، أن يقول لنا إذا كان قد عرف من هم الذين شهدوا بهذا الكذب.

"لقد أبلغني أحمد عبد العزيز عنهم بعد أن حلفني بالله أن لا أثير الأمر ولا أخبر أحداً بذلك، لأنهم من بلدنا، ولأن أحمد يريد من أهل بربرة عملاً محدّداً ضد اليهود، وقال يكفي الكذابين أنهم سيعملون تحت إمرتي هم وجنود مصريين، ولذلك لا تتحدثن عن أي شيء". سكتنا على مضض، وكنا نفضل لو أردينا بعضهم وطردنا الباقي من البلد بعد هذه الفعلة الشنيعة.

مكث المختار ليلتين مع أحمد عبد العزيز بعد أن أطلق سراحه ومزق أوراق التحقيق، وأخبرني أن صديقه غاضب على قبول العرب بالهدنة الثانية الأسبوع الماضي، وإنه كان يخطط أن يهاجم الجيش عدة مستعمرات يهودية، من بينها كبنية دير سنيد. وقال زوجي إنه وضع خطة مع صديقه على أن ينفذها أهل بربرة لأن

الهدنة لا تنطبق علينا، وأن جنوداً مصريين باللباس المدني سيكونون على مقربة ليتدخلوا إذا انقلبت الأمور إلى ضدها، أو إذا جاءت تعزيزات إلى اليهود. في الأيام الثلاثة التالية صرت وضرتي ننام لساعات بعد الظهر ونسهر سوياً للحراسة في العلية. كان النوم ظهراً في أواخر تموز يخفّف من الحرارة ومن عطش رمضان، بينما في الليل تصل نسمات هواء غربية إلى العلية من البحر تشفي العليل وترد الروح. إنّ غالبية أهل بربرة كانوا ينامون فوق السطوح في أشهر الصيف، ولكنهم منذ انسحاب الإنجليز ودخول المصريين صاروا يحبسون أنفاسهم خلف الأبواب في الغرف الطينية الصغيرة النوافذ.

عصر اليوم الرابع بدأ الهجوم على الكبنية، وكان المختار قد أبلغ بقية العائلات عند الظهر عن الهجوم. وكان قد أقنع مخاتير قريتي بيت جرجا وهربيا قبل ذلك بيوم أن يجهزوا بعض الرجال ويخرجوا أسلحتهم ويشاركوا في الهجوم عند سماع إطلاق النار، وطمأنهم أن المصريين لن يأخذوا الأسلحة. لبس المختار بنطلون البركنز، ووضع المسدس على خصره، وبعض أقشاط الرصاص على صدره وظهره، وعلق الناظور والكاميرا في رقبته، والبارودة على كتفه، ورجع مثل أيام خلت قبل مجيء المصريين. ناولته الحطة والعقال بينما أم مطر مشغولة في الهيهاويات مع شقيقات المختار لإعلان بداية الهجوم. اتجه أهالي بربرة على أقدامهم باتجاه الشارع جنوباً إلى دير سنيد، ولحق بهم بعض الشباب من سمسم، وكان اليهود المدعّمون بجيش من الهاجناه قد هجموا على القرية قبل أسبوع، وفرّ الكثير من السكان إلى الحقول. عندما وصل الجمع إلى كبنية دير سنيد صار كل من معه بارودة يطلق الرصاص على الكبنية، فيرد سكانها من الاستحكامات على المهاجمين من

الغرب والشمال والشرق. عرفت لاحقاً أن مصريين مسلحين حضروا في الليل، وأخذوا يطلقون النار بكثافة بينما شبابنا زحفوا بقنابل ملز وقناني بنزين وكاز إلى قرب نوافذ الاستحكامات بعد أن مروا في الخنادق وقطعوا أسلاكاً شائكة، وحرقوا كلّ من في الاستحكامات وانسحبوا. ارتفع صراخ اليهود ولكنهم لم يتوقفوا عن إطلاق النار على أي شيء يتحرك. في الصباح دخل المهاجمون الكبنية، وجدوا عجوزاً وزوجها حيين فقتلوهما، ووجدوا أربع جثث لرجال، فربطوهم إلى السيارات وصاروا يسحبون الجثث فوق الإسفلت. لم نعرف عدد الذين كانوا في الكبنية وهربوا في الليل إلى كبنية سمسم، لكن عشرين مصرياً جرحوا واستشهدوا، وانتقم الناس بحرق كل المستعمرة ودام النهب فيها ثلاثة أيام، وتركوها خراباً، ولم يعد اليهود يقطعون طريق المجدل غزة. أخي محمد حمل مسدساً من دون رصاص، وصندوق ذخيرة لبندقية لم نعرف الذي أخذها، وحمل لزوجته خديجة بهارات وفلفلاً كثيراً كان مزروعاً في المستعمرة، فعملت خديجة منه المحشي، زي الكوسا والباذنجان. زوجته الأولى، أم أحمد ليلى، قالت إنه كان ضمن المحمولات صناديق نقود، ولكنها لم تشاهدها. أعتقد أن خديجة أخبرتها عن النقود من أجل إثارتها.

قبل مرور أسبوع على هذه المعركة عادت الأمور إلى سابق عهدها في بربرة، فعدنا نخفي السلاح، وشدد المصريون في المدرسة الحراسات خوفاً من هجوم انتقامي يهودي، وكل ليلة كانوا يطلقون الرصاص في الهواء، إذا شاهدوا كلباً أو ابن آوى أو أي شيء آخر يتحرك. مرَّ عيد الفطر من دون أن نشعر به، ولكن الفرحة أنني عدت أشرب الماء. لم نوقد ناراً أو لمبة كاز في القرية، حتى الختيارية صاروا يخبئون نار سجائرهم لأن الطائرة تشاهد أي شيء

أثناء الليل. نحن أيضاً عدنا إلى الحراسة في العلية. في ليلة نوبة ضرتي، بعد عشرة أيام من المعركة دخلت علينا الغرفة لتوقظ المختار.

"أبو مطر، أبو مطر، قوم يا زلمة".

"خير ضاعت البلد في نوبة حراستك، خلص". كان أحياناً ينكت بشكل مفاجئ.

"لا لسه ما ضاعت، لكن شفت من العلية أن الحرس طخ على جيب جاي عليهم، وأصيب الذي جنب السائق، وكلهم يجروا زي المجانين".

صعدنا إلى العلية بهدوء نستطلع الخبر، وسمعنا أنواع الشتائم من ضابط ينعت الجنود، واحدهم يولول أنه لم يره ولم يعرفه، والضابط يتوعده بالموت، إذا كان طلقه قاتلاً.

"يبدو أنهم طخوا واحداً منهم. الصبح نعرف ونفهم".

"الله يستر، ما بدك تروح الآن..؟" لم تكمل ضرتي سؤالها وقال لها "تابعي حراستك من دون أي حركة في العلية، لا تخليهم يشوفوك. لم يخرج أي واحد من القرية من باب الدار خوفاً من التهم، وخوفاً من الطخ من دون سؤال أو جواب".

في الصباح عرفنا أنهم قتلوا أحمد عبد العزيز. كان في اجتماع في القدس، وعاد عن طريق الخليل الفالوجة بربرة حيث تنتشر القوات المصرية، وعندما وصل إلى المدرسة طخّه جندي الحراسة، وقتله فوراً، بحيث وصل مستشفى غزة ميتاً. فتح المختار بيت عزاء لثلاثة أيام، وصرنا نذبح كل يوم ونؤمن الطعام للمعزّين من القرى المجاورة، وللجنود والضباط داخل المدرسة.

خفَّت الحرب حول بربرة ولم نعد نرى قوافل اليهود طوال شهرين بعد معركة الكبنية، وعاد الجوارنة من بربرة إلى قريتهم،

وكان الكثير غيرهم قد قضوا أسابيع في كروم عنب بربرة وأكلوا كل المحصول في المنطقة الغربية، وصار المختار يروح كل يومين إلى المجدل ويرجع بأخبار وقصص مرعبة عن يافا التي سقطت بيد اليهود قبل انسحاب الإنجليز، من أربعة شهور. اليافاوية هربوا براً وبحراً، وغالبية الموتى كانوا من الغرقى الذين رموا أنفسهم في البحر حتى يركبوا في فلوكة صيد أو سفينة إنجليزية. ومات الناس من عطش الصيف على الطرق المؤدية إلى اللد والمجدل وغزة، والذين اتجهوا إلى اللد والرملة ماتوا مع الناس في الجامع، لأنّ اليهود حرقوهم في الجوامع وقالوا للبقية، "يلا على عبدالله، شرق الأردن". طردوهم بعد أن جردوهم من الحلي والنقود، وكانوا يطلقون عليهم الرصاص ويفتحون لهم منفذاً واحداً وفي نهايته معسكر تفتيش. حملوا أطفالهم في عز الصيف والدنيا رمضان، وبعد قليل صاروا يطلقون عليهم بالمدافع حتى لا يتوقفوا، تركوا أشياءهم وموتاهم على الطريق، ثم أطفالهم. قصص زي يوم القيامة. "ما في حد من اليافاوية يريد العودة، لأن بيوتهم سكنها اليهود، واللي بقي من العرب جمعوهم في العجمي وحطوا حولهم أسلاك شائكة ومنعوهم من الخروج. المختار بيقول الشوفرية يروحوا بالشاحنات ويحملوا من حاجات الناس وينقلوا لأسواق في نابلس وجنين والخليل ورام الله. أكثر ما غم المختار هو تدمير حي المنشية الذي سكنه وهو شوفير في يافا".

تذكرت البنت من دار أبي لبن التي مرت مع أهلها علينا وهم هاربون من يافا إلى غزة. لقد باتوا ليلتين عند أقاربهم من دار أحمد ورحت مع أمي كي نسلم عليهم لأنهم عند أهلها. "كانت حلوة زي القمر، ولكن بياضها أشبه بالصفار من الخوف والتعب. خالها كان في اللجنة اللي شكلوها بقية اليافاوية، وعارف ماذا جرى من

خيانات. قالت إن الضرب بالمدافع استمر أربعة أيام وليالٍ على المنشية، ورجال جيش الإنقاذ صامدون، ولم يستطع اليهود أن يدخلوا حي المنشية المجاور لتل أبيب من الشرق والشمال". خالها قال إن هؤلاء اليهود كانوا من جماعة الأراغون، وإنهم مختلفون عن بقية اليهود؛ لقد نهبوا قطار سلاح إنجليزياً محملاً قنابل كان في طريقه من معسكرهم في الصرفند إلى حيفا. وبعد الفشل في دخول المنشية قصفوا بقية يافا ليومين وحاولوا اقتحامها، لكنهم فشلوا أيضاً مرة أخرى. في هذه الأثناء سيطر الخوف على أهالي يافا، فصاروا يرحلون إلى اللد والرملة وغزة، وركبوا البحر، وجاء دعم من جيش الإنقاذ لكنهم اختلفوا مع بعضهم بعضاً. قالت إن جماعة من جيش الإنقاذ أخذوا ينهبون بيوت ومحلات الناس الهاربة، وقبلهم اليهود نهبوا المنشية، أثاث، سجاد، صور، أواني خزف وفخار، شوك وسكاكين، كراسي وطاولات، ومصاري كانت في بيوت الناس، "واللي ما قدروا اليهود يحملوه كسروه مثل زجاج النوافذ ومطابخ وبيانوهات موسيقى، لكن معظم البيوت تدمرت من قصف الأربعة أيام". بعد ثلاث ليالٍ من النهب تدخل الإنجليز وقصفوا على الاراغون بالطائرات في المنشية وطردوهم، وشكلوا دوريات إنجليزية يهودية مشتركة لحماية المنشية من يهود الاراغون. لكن اليهود اتّحدوا بعد أيام وصاروا يهاجمون القرى حول يافا ومنها تل الريش ويازور. الناس غادروا جرّاء القصف، وجيش الإنقاذ انهارت معنوياته، وكانوا 350 واحداً مقابل أقوى فرق اليهود من تل أبيب، فصاروا يهربون وتحولوا إلى النهب مع ناس آخرين من يافا. عندما حدّثت المختار عما سمعته قال إن هذه هي اللجنة القومية، التي تضم أحد أقارب الفتاة، ولا تزال تأخذ رسوم مغادرة على من يريد الرحيل ممن بقوا في يافا؛ خمس ليرات

مقابل من يغادر يافا بالبحر، وثلاث ليرات عن العائلة المهاجرة براً، وكانوا يأخذون حاجيات أي عائلة يعرفون أنها تريد الهجرة، بحجة أنهم يبيعونها ويشترون أسلحة من ليبيا.

اليهود مشغولون في الحرب الآن في الوسط والشمال، يلاحقون جيش الإنقاذ من بلد إلى آخر، كل أفراد جيش اليهود يشاركون في المعارك هناك، وأهل البلد طوال الليل في مقاعدهم يستمعون إلى الراديو في الظلام، ويتأملون أن يدخل الجيش السوري أو اللبناني لمساعدة جماعة الإنقاذ. صاحب الحاج أمين، السيد أبو شرخ، قال: ليلة البارحة وصلت إلى المتطوعين العرب تعليمات من الجامعة العربية كي يعودوا إلى بلدانهم، لكن المتطوعين المصريين الشيوخ رفضوا العودة وتجمعوا في العريش لمهاجمة المستعمرات من هناك. أما الشيخ عارف أبو مريم فقد أرعبني عندما سمعته يقول: "بكره اليهود يخلصوا من الإنقاذ ويهجموا كلهم علينا مرة واحدة، لأنهم مش خايفين أن العرب يطعنوهم في الظهر".

***

الجيوش السبعة

"شايف يا مختار مانويل ما طول هالمرة في الزيارة، ساعتين وروّح من دون غدا".

"جاء يخبرنا أن اليهود اللي قتلوا برنادوت ليسوا من جماعة بن غوريون، ولكنهم إرهابيون يهود وتم اعتقالهم في إسرائيل".

"طيب وبعدين، هذا سمعناه في الراديو، وبكرة ابن غوريون يطلعهم من السجن". قالت أميرة لزوجها وأضافت مبتسمة بمكر "حسبته جاي يطلب الحماية زي زمان ويقعد عندنا".

"قال إنه شاهد صندوق سكاكين مكتوب عليه خاص لأهل بربرة، فقلت له الأحسن أن يعود من حيث أتى قبل ما واحد يصيبه بمكروه إذا سمعه يقول هالكلام. الملعون جاي يخوفنا أكثر من خوفنا".

"يعني الهدنة صار لها شهرين الآن، ويمكن تخرب في أي يوم لأن برنادوت مات". قالت أميرة التي كانت تتابع مع أهل البيت والكثير من الجيران أخبار الراديو كل يوم.

"الهدنة ستنتهي لما اليهود يكملوا الاستعداد لأخذ ما يريدون أخذه".

"الراديو بتاع الإنجليز قال إن برنادوت عمل خطة لدولة فلسطينية مع الأردن، ودولة إسرائيلية في الشمال على ربع فلسطين، وبشرط كمان العرب يعودوا لبيوتهم في دولة إسرائيل".

"ولهذا احتج اليهود على برنادوت، والأميركان طلبوا منه يرجع إلى الأمم المتحدة واليهود طخوه قبل ما يصل المطار. أنت مجنونة يا أميرة، بدك اليهود يرجعوا أهل حيفا وعكا وصفد واللد والرملة وغيرهم ويسلموا يافا. صاروا محتلين أكثر من نص البلد وبرنادوت يريد دولة إسرائيلية على الربع، وهم كل يوم هدنة يجلبون سلاحاً ورجالاً ويستعدّون لأخذ البقية. وحّدي الله".

"لا الله إلّا الله، الله لا يرده هالبرنادوت". قالت زوجة المختار الأولى وقد وصلت صاعدة السلم إلى العلِّية حاملة قهوة وصينية فواكه جمعتها من الحاكورة. "هو سبب البلاوي في الهدنات اللي عملها".

"العرب سبب البلاوي". قال المختار وتناول حبات مشمش في يده يتأملها.

"صح العرب، لكن هو ضحك عليهم. أول هدنة عملها بعد ما تقدمنا على اليهود.." .

"طيب، وبعدين جابوا سلاح واحتلوا أكثر من نص البلد وطردوا مئات الوف الناس، وبعدين عمل كمان هدنة، ولو كان العرب بني آدمين وعندهم مخ، كانوا استفادوا من الهدنة الثانية وسلحونا وأدخلوا جيوشهم بعد ما شافوا قوة اليهود. الآن بعد قتل برنادوت شعروا بالخازوق وصاروا خايفين أن اليهود يعودوا للهجوم وأخذ كل البلد". أعاد المختار المشمش إلى الصينية وهو يتمتم عن خيانات يتم طبخها.

"وبعدين شو العمل؟" سألت الزوجة الثانية المختار وضرّتها، بينما لا أحد من هؤلاء يأكل من فواكه الحاكورة.

"العنب ما لقطنا ربع محصوله هذا الموسم، ما في يافا نبيع فيها، ولا طريق فاتحة إلّا إلى غزة، والناس هناك، على كثرتهم،

مفلسون. قبل الشتوية بدنا نزرع قمح وشعير وخضروات، إذا استمرت هذه الحال سنحتاج إلى طعام لنا وللدواب".

"والتركات يا مختار شو نعمل فيهن؟" سألت فاطمة زوجها وأخذت تنظر اليه وتراقب صمته.

"خايفة على التركات يا أم مطر ومش خايفة على البلد ومئات الدونمات اللي شريناها وعمرناها. الله يجعلها تروح في جهنم التركات".

"الأرض زي ما إنت شايف، لا نستطيع نقلها ولن تهرب منا، والحمد لله أنك رفضت تبيع مانويل قطعة سمسم المجاورة لكبنية اليهود. لكن التركات الثلاث أحسن وضعهن عند أصحابك في غزة". قالت بصوت منخفض. واضافت "خلي الجيب عندنا".

"رأيك إذا راحت بربرة ستبقى غزة، هكذا قالت لك الفتاحة؟"، رد عليها ولم يعلق على ما قالته عن عرض مانويل لأنه متعود أن زوجتيه تستمعان إلى ما يدور في البيت، وكان مانويل قد أخبره أنَّ سكان المستعمرة توسّعوا في أراضي سمسم ومنها قطعة أرضه، فقال له المختار إنه يعرف أنهم أخذوها قبل شهرين ويرفض بيعها الآن.

"أنت قلت يا مختار إن اليهود استغلّوا الهدنة من شهرين ونازلين تسليح ليأخذوا كل البلد، والعرب نايمين. يعني كلام فاطمة معقول، إذا انسحبوا إلى غزة تكون سياراتنا هناك، وإذا صمدوا في بربرة نعيد السيارات إلى الكراج".

"والله صرتنَّ قارئات عند شيخ واحد، شو الموضوع، مين اللي ينسحبوا إلى غزة؟".

"بصراحة يا مختار". قالت فاطمة متشجعة من دعم ضرتها".. كل أهل البلد بيقولوا إذا انسحب الجيش المصري من بربرة،

فرجلنا على رجله، ولن يبقى واحد ينتظر عمايل اليهود. طردوا أهل سمسم وبرير وهوج ونجد، يعني كل الجهة شرق الشارع من غزة إلى اسدود صارت معهم".

صمت الجميع وتمدد المختار على ظهره بينما زوجتاه تحتسيان بقية القهوة، وصعد مطر وفتحي وعبد الرحمن وحكمت يتراكضون وهجموا على الفواكه بينما فاطمة تحثهم على الهدوء. كان خوفه أن يحصل في بربرة ما حدث في قرية برير، ففي ليلة واحدة قبل يوم الهدنة حضر يهود عمال ومسلحون وأقاموا مستعمرة وشنّوا هجوماً على أهل البلد وشردوهم. لقد استمع أيضاً في الشهرين الماضيين إلى المزيد من الفظائع التي قام بها اليهود قبل الهدنة، خصوصاً في مناطق الشمال إذ ركّزوا على غير عادتهم على الاغتصابات. في قرية الصفصاف التابعة لحيفا استسلم السكان ورفعوا العلم الأبيض، لكن الجند صفوا الرجال في طابور وأطلقوا النار عليهم وقتلوا الـ 160 رجلاً، ثم انقضّوا بالاغتصاب على الإناث وأجبروهن على الرحيل. وتقول الروايات إن هذا تكرر في قرى عيلبون والقرادة، ويقال إن معظم من قاموا بذلك كانوا من الذين نجوا من معسكرات الاعتقال النازية وهاجروا إلى فلسطين. وفي قرية أخرى ربطوا 56 رجلاً معاً في حبل طويل وأنزلوهم إلى حفرة، ثم شرع جند الجيش الإسرائيلي بإطلاق النار عليهم فقتلوا عشرة رجال، وحين صرخت النساء طلباً للرحمة قام الجنود باغتصاب ثلاث نساء من بينهن فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، كما قتلوا أربع نساء أخريات، وقاموا بقطع أصابع النساء بالسكاكين لانتزاع الخواتم الذهبية منها. وفي قرية الحبش تم قتل امرأة وطفلها مع 11 رجلاً، فقط حتى يرهبوا الآخرين، وقام الجنود بسلب ما لدى المواطنين العرب من مجوهرات وقطع ذهبية، كما خضعت القرية لأعمال السلب أمام

أعين سكان المستوطنات القريبة المجاورة، وفي قرية كفر برعم انتزعت أقراط النساء من آذانهن بالقوة وخرجت معها قطع من الشحم، ومثل ذلك حدث في قريتي سعسع والصالحة حيث تم قتل 94 شخصاً بعد أن حشروا داخل بيت واحد.

فكر المختار أن الثأر بين بربرة وكبنية دير سنيد، والعمليات الأخرى قبل ذلك معناه أنه لن يقبل بربراوي واحد البقاء في بيته إذا رحل الجيش المصري. تخلص من هذه الهواجس وأكّد لنفسه أن اليهود أخذوا أكثر مما كانوا يحلمون به، وقواتهم التي يحشدونها ربما تكون خوفاً من هجوم عربي يستعيد الأرض حتى حدود التقسيم. لم يكن قد حدّث زوجاته بأخبار الاغتصابات في تلك القرى، أو بهواجس الانتقام اليهودي، ولكنه تأكد الآن أنهن يعرفن تفاصيل أكثر مما يعرف هو، عبر تهويل الهاربات من القرى والمدن. قال لنفسه "البركة في راديو الشرق الأدنى الذي يشجع على الرحيل وكأنه راديو يهود وليس إنجليز".

"يا عم، الدرويش أبو نحل، أعطاك عمره، وقد غسلوه وسيصلّون عليه في الجامع الآن قبل الدفن". قطع عوض الله أفكار المختار، فأرسل فتحي ومطر وعوض الله ليخبروا بقية العائلة ويطلبون منهم التواجد في الجامع فوراً. كان الشيخ مريضاً في الأيام الماضية وجلس أهله من حوله لثلاثة أيام وهو يودع الحياة، ويبدو أنه منعهم قبل موته من العويل والصراخ.

كان الجامع مكتظاً برجال بربرة من كل العائلات، وتجمع الشبان والصبيان أمام الباب وامتلأت بهم الساحة بين الجامع ومنزل المتوفى المقابل له. لقد كان المرحوم رجلاً جليلاً يحترمه الجميع في بربرة، كما أن أولاده كانوا خير جار وأهل نخوة. حمل النعش من الجامع عبر حارة دار أحمد إلى المقبرة، وقرأ الشيخ عارف أبو

مريم على القبر أثناء الدفن وبعده. عند المغرب تجمع أهل البلد في بيت عزاء المرحوم وأضاؤا القناديل مطمئنين إلى استمرار الهدنة.

"الله يرحمه ويحسن إليه". قال الشيخ عبد الهادي الأشقر "كان شهم وشجاع وذكي".

التنويه هنا بقصة يشتهر بها الدرويش منذ زمن. فقد كان وقلة من أهل بربرة يعملون في كروم العنب المحاذية لأراضي قرية الجية، وحصل خلاف مع مجموعة كبيرة من أهل الجية واقتربت الأمور من مرحلة العراك. أرسل المرحوم من يطلب النجدة من أهالي بربرة، ثم لبس العمة الخضراء وأمسك برمحه وأخذ يلقي تعاويذ وأدعية ويدور حول أهل الجية بالرمح وهم ذاهلون حتى ضيق عليهم. رسم حولهم دائرة بالرمح ثم أخبرهم أن من يتجاوز الخط سيصاب بالجنون، وأن عليهم انتظار ساعة الغروب حتى يخرجوا من الدائرة بأمان. وصلت النجدة لتشاهد المحاصرين يستنجدون ويطلبون العفو. وافق الدرويش أن يعفو عنهم واحداً تلو الآخر، وكلما قرأ تعاويذ وقام بإطلاق واحد منهم، فعليه المرور متلقّياً بعض الضربات الخفيفة.

"ماذا حصل معكم في غزة؟" سأل الشيخ عبدالله السيد أبا شرخ الذي تواجد طوال أسبوع مضى في غزة يشارك في اجتماعات مع جماعة المفتي والهيئة العربية العليا.

"لو استمع العرب للمفتي قبل عام ما كنا في هالورطة الآن". قال أبو شرخ في صوت جنائزي يتماشى مع الجلوس في عزاء الدرويش أبي نحل، ويتماشى مع الوضع العام في فلسطين وحولها. "في أكتوبر السنة الماضية قال لهم في مؤتمر عاليه بلبنان أن يعلنوا حكومة فلسطين قبل قرار التقسيم، ولكنهم رفضوا. وكل ما وافقوا

عليه بعد ذلك هو تشيكل الهيئة العربية العليا. الآن وبعد إعلان دولة إسرائيل يرفض العرب مرة أخرى إعلان حكومة فلسطينية، والمفتي يسعى لإقناعهم".

"مين العرب الذين رفضوا ولماذا؟" عاد الشيخ عبدالله للسؤال حتى لا يتحول حديث أبي شرخ كالعادة إلى محاضرة سياسية.

"ممثلو الأردن والعراق هم الذين رفضوا، وقالوا إن حكومة بزعامة المفتي سيعارضها العالم..".

"ولأن المفتي يصرّ على الرئاسة ويرفض التقسيم بأي نوع بينما العالم وكل اللجان الدولية كانت آنذاك ترى الحل في التقسيم".

"هذا صحيح يا شيخ عبدالله، لكن المفتي أفضل من أي واحد قد يعينه العرب". قال أبو شرخ وهو صديق منذ سنوات للمفتي ويعتبر من مستشاريه في منطقة الجنوب. "لقد حاول المفتي مرتين بعد ذلك إقناع جامعة الدول العربية ولكنها رفضت، مرة في أول هذا العام، ومرة أخرى قبل أسبوعين من إعلان اليهود دولتهم. قال لهم نؤلف إدارة عامة لفلسطين تمهد لدستور وانتخابات، وتحترم حقوق الأقليات. المهم وافقوا حينها فقط على إدارة مدنية غير سياسية تدير الشؤون العامة ولا تتدخل في الشؤون السياسية العليا لفلسطين، وتأخذ بتوجيهات الجامعة العربية والهيئة العربية العليا. وتم تعيين أحمد حلمي عبد الباقي لرئاسة المجلس وعيّنوا أعضاء للمهام الإدارية الأخرى". لاحظ السيد أبو شرخ الاستغراب على وجوه المستمعين فقال بأن الحرب عادت وانشغل الجميع بها ولم تباشر الإدارة أعمالها، وبقي الأمر مجهولاً. "لذلك يطالب المفتي الآن باقامة حكومة فلسطينية، والجامعة وافقت ولكن بشرط أن تكون الإدارة السابقة هي حكومة مؤقتة لفلسطين، ويمكن أن يتم

الإعلان عنها خلال أيام، إنهم يحاولون أخذ موافقة الملك عبدالله".

"وموافقة الإنجليز طبعاً". قال عبد الحفيظ وتساءل من هم أعضاء الإدارة السابقة وبالتالي الحكومة القادمة. أخرج أبو شرخ ورقة من جيبه وأخذ يقرأ الأسماء: أحمد حلمي، جمال الحسيني، رجائي الحسيني، عوني عبد الهادي، أكرم زعيتر، الدكتور حسين الخالدي، على حسنة، ميشيل ابكاريوس، يوسف صهيون، وأمين عقل.

"أنعم وأكرم، تصالحوا مع الحسيني وعبد الهادي وأزعلوا النشاشيبي، وطبعاً ولا عضو في الحكومة من الجنوب أو من الشمال". قال عبد الحفيظ وسط إنصات الحضور ثم أضاف وهو يتحسس بيسراه ركبة ابنه الثاني، كمال "المهم يكون العرب وافقوا عليهم". وكان ابنه الأكبر محمد إلى يجلس إلى جانبه الأيمن.

"المشكلة يا جماعة الخير.." قال المختار وهو جالس إلى جانب صديقه كامل أبو نحل".. إن المفتي وجماعته يرفضون أي تقسيم، والعرب لا يستطيعون الحرب لأنهم تحت حكم الإنجليز، ولأن اليهود أقوى من كل العرب الذين دخلوا فلسطين. لن يستطيع العرب استعادة ما احتله اليهود، والعرب يعرفون ذلك وهم يصلّون إلى الربّ أن يوفقهم بالاحتفاظ بما لديهم اليوم. إنهم يعتبرون أن المفتي سيورّطهم، فإذا أصرَّ على حكومة لكل فلسطين، فهذا يعني الحرب".

"الله أكبر يا مختار، سبع جيوش عربية واليهود أقوى منهم؟".

"الميَّة تكذب الغطاس يا شيخ عارف.." أجاب المختار على شيخ الجامع وواصل بنبرة عالية حتى لا يقاطعه أحد. ".. سبعة

جيوش، واحد بيطخ أبطاله ويرفض التقدم في مناطق خالية من اليهود، وواحد نازل نهب في بقايا يافا، وواحد متفق من الأول على الحدود الجديدة، وجيشين صامدين على حدودهم، وجيش صار يقول بعد أول معركة ماكو أوامر، وجيش الجهاد ممنوع عنه السلاح، واحنا كل قرية فيها عشر بنادق مخبية عن المصريين". سكت المختار فجأة وكان ينظر إلى السيد أبي شرخ الذي يعطي برأسه علامات موافقة على ما يسمع، ثم أكمل في سياق حديث المختار.

"اليهود أعلنوا التعبئة قبل قرار التقسيم، ولما أعلنوا الدولة كان عندهم 95 ألف مقاتل ومقاتلة جاهزين، وعندهم خمسين ألف احتياط في قبرص يصلون تباعاً كل يوم، وعندهم مصانع مصفحات وقنابل وأسلحة في فلسطين، والإمداد البحري بالأسلحة والطائرات لا يتوقف. هل سمعتم عن معركة مع يهود انتهت فيها ذخيرتهم؟".

"وجيوشنا السبعة، أو الثمانية حسب المختار، كم عددها؟" قال أحد الشبان ممن يحضرون جلسة العزاء.

"17 ألفاً رسمياً، بمن فيهم مجموعة سعودية وأخرى سودانية تعمل مع الجيش المصري، وكما قال المختار هناك جيشان في الشمال لم يتدخلا في القتال ولكن للأمانة فالجيش السوري هو الذي يسلِّح جيش الإنقاذ". قال أبو شرخ وسمع من سماهم جيش النهب.

"إن شاء الله الهدنة تستمر حتى يحلّوها بدون حرب، وبكرة يصير لنا حكومة، والناس ترجع لبيوتها، وما تنسوا أن اليهود مختلفين مع بعض مثلنا وأكثر".

"ولا مختلفين ولا شيء، كلهم كذابين يا ابن العمّ". قال عبد

القادر الجالس وسط أولاده الثلاثة محمد وأحمد ومحمود، رداً على أمنية الشيخ عبدالله.

"توزيع أدوار". علّق كامل أبو نحل "قتلوا برنادوت وحطوها في ظهر جماعة صغيرة، وابن غوريون دمَّر باخرة التالينا أمام تل أبيب بعدما نزل المهاجرون واستولى على معظم السلاح لجيشه لأنه خايف من منظمة ايتسل تصير أقوى منه، يعني هو في النهاية يوحد في اليهود ويضرب المخالفين للوحدة. بدل ما تشوف خلافاتهم شوف شو عملوا في أربعة شهور، كلهم انضموا للجيش بقيادة واحدة، وعملوا أسس لبرلمان وصحف وحكومة. خلافاتهم هذه ضحك على الذقون. إذا خربت الهدنة الحالية، أو انتهت بدون تجديد، اعرفوا أن بربرة عليها السلام". سكت كامل تحت وطأة الاحتجاج والتمنيات العكسية، ولو لم يكن مصاباً بموت الدرويش لأسمعوه كلاماً أشد، ولكنه عاد وقال للجميع "إنكم مثل الأطرش في الزفّة".

"طيب إحنا الآن مع التقسيم أو ضده، زي المفتي؟" طرح أبو عودة سؤاله على الجميع من دون أن يستهجنه أحد لأنهم يعرفون صراحته، وإنه يقول ما يخطر في باله، وربما كان هذا الأمر في بالهم.

"والله شوف يا حسان.." قال أبو شرخ وسط إنصات تام من الحضور".. بصراحة لا يهم اليهود والإنجليز والأميركان والروس لو كنا مع أو ضد التقسيم، ما في حد منهم ناوي يسألنا. وكما نرى فقد احتلوا الآن أكثر مما أعطاهم القرار، ونهبوا وذبحوا من غير ضرورة، وطردوا السكان بعكس ما جاء في القرار، يعني هذه الأيام تثبت أن نيتهم كانت سيّئة من قبل، ومخططهم معروف لنا

من خمسين سنة ويقول إنهم يريدون كل فلسطين من دون شعبها. حتى إذا وقفوا عند الخطوط الحالية فذلك لا يعبر عن هدفهم النهائي، ولكنهم سيقفون لضرورات ينتظرون زوالها ويواصلون السعي لهدفهم". كان من الواضح أن أبا شرخ يريد حسم الأمر بمحاضرة يبرر فيها موقف صديقه المفتي. "بعدين لازم الكل يعرف أن رفض مقترحات التقسيم من أيام لجنة بيل قبل عشر سنوات ورفض قرار الأمم المتحدة العام الماضي، له أسباب وطنية ودينية واقتصادية. هم أقلية أجنبية تصل تباعاً بهدف تحقيق برنامج لطردنا واستعمار بلدنا، ولا يملكون للآن، بكل أموال العالم التي جمعوها، حتى سبعة في المئة من فلسطين لأننا رفضنا البيع وقاومنا الإغراءات، ومع ذلك فإن قرار التقسيم يعطيهم 55 بالمئة، يعني أكثر من النص، ويعطيهم الأراضي الأخصب، والميناء والمطار ومصادر المياه والأسماك في طبريا. يعني لو كنا في الماضي نعرف المستقبل وإنهم سيحتلون بالقوة والمذابح ما احتلوه للآن، لو كنا زمان نعرف ما يجري الآن، فذلك لا يبرر أن نقبل قرار التقسيم، لأنه أعطاهم الأكبر والأفضل، ولأن ما بقي لنا لن يؤهلنا لنكون دولة مستقلة. ولأنهم غير ناويين على السلام ويريدون بصراحة كل فلسطين لتتسع لكل يهود العالم، بل منهم جماعات تريد احتلال شرق الأردن أيضاً، وهذا سبب أحد الخلافات فيما بينهم".

"هل القرار سينزع ملكية الناس الفلسطينيين ويعطيها لليهود، ويطرد العرب من الجزء المقترح لليهود، أنا فهمت من القرار غير ذلك". قال محمد علي وهو ينظر إلى والده عبد الحفيظ حيناً وإلى السيد أبو شرخ حيناً آخر.

"القرار واضح سياسياً واقتصادياً. لو لم ينزعوا الملكية من الناس فأنهم سوف يطفشوهم..".

"صحيح صحيح يا سيدي، وكلنا ضد التقسيم وضد وجود اليهود في بلدنا أو في جيرتنا لأن نواياهم سيئة وممارساتهم اسوأ. لكن قرار التقسيم يعطيهم فقط سيطرة سياسية على 55% من فلسطين، ويعطي السكان العرب في تلك المناطق حق البقاء والعيش بأمان في بيوتهم والتصرف بأراضيهم ومساواه مكفولة في الدستور، أو يمكّنهم البيع بسعر السوق والانتقال إلى الشق الفلسطيني. يعني نصفنا يمكن أن نعيش تحت رئاسة المفتي، ونصفنا الآخر تحت رئاسة بن غوريون، ويمكن ضمن قرار التقسيم أن لا يملك اليهود أي أراضي إلّا ما يتمكّنون من شرائه. طبعاً.."

"يا ابني .." قال عبد الحفيظ مقاطعاً ابنه حتى لا يساء فهم كلامه كموافقة على التقسيم".. تقسيم أو تربيط، قبول عربي فلسطيني أو رفض، هذا كله لا يقدم ولا يؤخر طالما أننا لا نملك، كما نرى، القدرة على العمل، من قبل رحيل الإنجليز الأنجاس حتى الآن. قرار التقسيم الذي تتحدث عنه طلب من الانتداب أن يبقى في البلد ويضمن الأمن ويساعد لجنة الأمم المتحدة على تنفيذ التقسيم، لكن الإنجليز هربوا وتركونا حتى قبل الموعد". سكت لوهلة ثم خاطب ابنه الذي أكمل تعليمه في القدس بعد مدرسة بربرة وعاد يجيد الإنجليزية وتزوج فأنجب ابنه ماجد. "احكيلهم يا أبا ماجد، كيف راحت بيت داراس".

"كانت قبل الهدنة الأولى مع المصريين، مثل جارتها اسدود، لكن اليهود أرادوا احتلال كل القرى شرق الشارع فدخلوها بعد بداية الهدنة الأولى". قال محمد علي وقد اعتدل في الجلسة إلى جانب والده وكان يشير بيديه أثناء الشرح. "بعد نهاية الهدنة، التي رفض العرب تمديدها حين اقترح برنادوت ذلك، هجمت قوات سودانية على بيت داراس وطردت اليهود منها، لكن المصريين

قصفوا السودانية فهربوا من بيت داراس وعاد إليها اليهود". سكت أبو ماجد قليلاً بينما انتظر الجميع أن يفسر لهم هذا اللغز. "لقد سمعت من شاويش سوداني مصاب في مستشفى غزة تفاصيل ما حدث. قبل دخول السودانية اتفق اللواء المصري السابع معهم أن يهجموا في الليل، وإذا انتصروا وطردوا اليهود فعليهم إطلاق رصاص إشارات خضراء وحينها يتقدم الجيش المصري ليعزز الوضع. أما إذا فشلوا في الهجوم فعليهم إطلاق رصاص إشارات حمراء لأن المدفعية المصرية حينها سوف تقصف بيت داراس بمن فيها". انفرجت أسارير المستمعين وأدرك بعضهم ما حدث ولكنهم لم يقاطعوا الراوي الذي أكمل: "طرد السودانية اليهود وحرروا بيت داراس، ولكن المسؤول عن الإشارات أطلق رصاصاً أحمر، فأخذت المدفعية المصرية تدك المنطقة وهرول السودانية منها ثم أخذها اليهود في النهار بدون قتال".

"يبدو أن الله معهم من مدة". همس كامل قرب أذن صديقه المختار الذي ضغط على فخذه ليسكته وقال: "اليهود أباليس وماشيين على مخطط. في الأيام العشرة بين نهاية الهدنة الأولى التي رفضنا تمديدها، وبين بداية الهدنة الثانية، التي ركضنا خلفها، في هذه العشرة أيام وصل اليهود إلى أكثر من حدود التقسيم المخصصة لهم. يعلم الله شو حضروا من أسلحة وخطط في الشهرين ونصف الماضيات، ويعلم الجميع أن الجيوش العربية لم تقم بشيء كما نرى، لا دبابات ولا طيارات ولا زيادة حشود. إن شاء الله ما يتكرر ما حدث في بيت داراس".

"لقد صدق كلام السيد أبو شرخ". قالت فاطمة لزوجها وهو عائد مساء من ثاني يوم لعزاء الدرويش.

"ومين أخبرك بكلام أبي شرخ؟".

"كنا جالسات وراء الحيط في دار أبو زاهد، هناك العزاء للنسوان، وسمعنا كل كلمة". لم تسمع من المختار سوى كلمة، طيب، بالنغمة الاستفسارية، فأكملت: "اليوم أعلن الراديو عن الحكومة الفلسطينية. وطلبوا من الشعب التعاون مع الحكومة في غزة".

"هذه كلمة السر يا هبلة، في غزة". قال المختار وهو يتحرر من الديماية. "لو كانت الحكومة في القدس، كان الوضع غير، ولكن هناك جيش الملك عبدالله بقيادة كلوب باشا، قائد كل الجيوش العربية". عاد ليضع العباءة الصوفية السوداء على كتفيه. "الدنيا برد يبدو أنها سوف تشتي مبكراً هذا العام وشهر أيلول باقي فيه أسبوع. شو عملتوا للعشاء؟".

"حمام محشي..".

"شايفك هاجمة على الحمام والدجاج وطيور البيت هاليومين. حيرتيني، أنت متفائلة بالحكومة أو متشائمة". قاطعها ثم عاد ليخبرها بما لم يتحدث به الراديو من رفض قاطع للملك عبدالله لفكرة حكومة فلسطينية، وأن الجامعة العربية تحاول التوسط وكلّفت رياض الصلح، رئيس وزراء لبنان لرأب الصدع. "الإنجليز والعرب يكرهون المفتي على السبحة يا فاطمة".

"لكن المفتي خارج الحكومة".

"صحيح ولكن مع أول انتخابات سينجح ويصرّ على تحرير كل فلسطين. والعرب الآن خلصني وخذ عباءتي، أميركا مع اليهود، وروسيا وفرنسا وانجلترا، حتى ألمانيا صارت معهم". انطفأ حماسها، وانتظر حتى عادت بالحمام المحشي ليخبرها أن جماعة المفتي يحضِّرون لمؤتمر وطني عام في غزة أول الشهر ليعلن تأييده للحكومة الجديدة. "وكل مخاتير الجنوب والشخصيات مدعوون

ليبصموا". سألته عما دار في بيت عزاء الدرويش الليلة من أحاديث فأخبرها أنه اتفق مع كل عائلات بربرة أن يقيموا خنادق في الأماكن المفتوحة حول القرية، وخندقاً غرب الإسفلت يبدأ من شرق البركة. قبل أن يخلد المختار إلى النوم دق باب البيت من قبل الضابط المقيم في الحامية، المدرسة، وطلب منه إلغاء فكرة بناء خنادق لأن ذلك سيعيق تحركات القوات المصرية الممتدة غرب الشارع بين أسدود وغزة، وأن الخنادق ستكون معوّقات لا يعرفون بها. لم يكن هناك مجال للمناقشة، واتفقا أن يبلغ المختار أهل البلد عند الصباح الباكر بهذا الأمر.

***

"رجلنا على رجلهم"

المعلومات التي ذكرها بعض أهل الاختصاص في مؤتمر غزة كانت تفترض أن يتقدم أي خطيب ليناقش فكرة قبول قرار التقسيم لإنقاذ ما لم يضع بعد ، أو يطالب مناقشة أحد مقترحات برنادوت التي أدّت إلى مقتله على يد اليهود. لقد عدد بعض الخطباء ما وصل إلى اليهود من أسلحة، وما يصنعونه كل يوم في فلسطين، وهي كميات لا تنضب، بل إن ما جمعوه من أموال في الولايات المتحدة فقط أثناء الأشهر الثلاثة الأولى هذا العام يبلغ 50 مليون دولار، وهو مبلغ يفوق ميزانيات الجيوش العربية. وهذا كله من دون معرفة ما جمعوه بعد قيام الحرب وبحماسة إعلان دولة يهودية. وقال متحدّثون عسكريون في المؤتمر إن نقص الأموال عندنا أدى إلى تراجع عدد قوات جيش الجهاد المقدس. لكن الخطباء عموماً أكّدوا على أمرين هما: إن هذه الحكومة الجديدة تمثل الفلسطينيين، وإن حدود هذه الدولة لم تتغير. ولم يطالب أي خطيب بمجاراة الأمم المتحدة وتنفيذ مطالب قرار التقسيم العملية والإدارية على الأقل. هكذا جاء إعلان الدستور والدولة غير مطابق لبنود قرار التقسيم الإدارية، وبالطبع رافضاً لبنوده الحدودية، ولفكرة الاتحاد الاقتصادي؛ باختصار أصبح إعلان الدولة والدستور لا يسمح بالقبول كعضو في الأمم المتحدة.

انعقد المؤتمر في 1/ 10/ 1948 في غزة برئاسة الحاج محمد

أمين الحسيني، وحضرته جمهرة كبيرة من الشخصيات الفلسطينية، وساد التفاؤل لأنَّ السماء أمطرت. بعد الكثير من التكرار في الخطب، تم الإعلان عن شرعية الحكومة الجديدة، تبعها إعلان استقلال فلسطين وإقامة دولة حرة ديمقراطية ذات سيادة ضمن الحدود الدولية مع سورية ولبنان شمالاً، مع نهر الأردن شرقاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً، ومع مصر جنوباً. وشجب المؤتمر، بتصفيق حاد، محاولة اليهود إنشاء دولة في الأراضي المغتصبة، وأقرّ أيضاً دستوراً مؤقتاً لفلسطين، وكلّف مسؤول المالية بالبحث عن قرض لا يزيد عن خمسة ملايين جنيه.

قبل أن ينتهي اليوم الأول على المؤتمر في غزة انتشرت الأخبار بأن الملك عبدالله، المكلف رسمياً من الجامعة العربية بقيادة الجيوش لتحرير فلسطين، قد عقد في عمان مؤتمراً فلسطينياً آخر برئاسة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي، وأنكر المجتمعون الفلسطينيون في عمان على المؤتمرين في غزة تمثيلهم للشعب الفلسطيني. بقية التفاؤل الباقية في اليوم الثالث في غزة جاءت من توالي اعترافات عربية بحكومة عموم فلسطين، ومباشرة رئيس المجلس الوطني، المفتي، والحكومة، بالعمل على تجهيز التصدي على الأرض، لكن الدعاء المتواصل كان أن تصمد الهدنة مع اليهود على الأقل حتى موعد نهايتها في منتصف الشهر، ريثما تجري بعض الاستعدادات السياسية والقانونية، وربما زيادة الدعم العسكري العربي. ولوحظ أن المؤتمرين في غزة أو عمان لم تصدر عنهم قرارات جلية تؤيد أو تعارض تمديد الهدنة، وذلك أن الشعوب العربية وأجهزة الإعلام عارضت الهدنة الأولى فرفضت جامعة الدول العربية تمديدها، ولكنها عادت بعد عشرة أيام من الخسائر في الحرب، فقبلت بالهدنة الحالية الثانية.

هطلت الأمطار بغزارة في نهاية الأسبوع الأول من شهر أكتوبر، فانكمش أهالي بربرة كل في بيته، أو مقعد حمولته يتدفأون حول النار ويستأنسون سوياً لمواجهة المخاوف. وكلما استمر صمود الهدنة تحولت مخاوفهم إلى الناحية السياسية بسبب الخلافات العربية والخلافات الفلسطينية الداخلية. وقبل موعد أذان العشاء دخل ابن دودين إلى مقعد دار عدوان وأبلغهم إن ضابطاً مصرياً غارق في المياه أمام دار البعرة، التي تواجه كاراج سيارات المختار. سار الحضور يرافقهم ضيفهم، أبو محمد مهنا، لرؤية الغريق، فالشتاء لم يكن على تلك الصورة التي تؤدي إلى الغرق، ولا توجد بركة مياه أصلاً أمام منزل البعرة. وأمام ارتفاع الدبة، حيث يلتقي شباب القرية في العادة وتعقد حلقات الدبكة والرقص في الأيام الخوالي، يوجد منخفض بسيط تجمعت فيه مياه الشتاء التي تمددت بين الدبة والكاراج ودار البعرة ودار البرشية على الطرف الآخر المقابل. كان الضابط قادماً من المدرسة باتجاه الجامع، وظنَّ الجميع أنه ربما أراد شراء أشياء من دكان أبي عدوان أو دكان دودين، ولكن المياه قطعت عليه الطريق. تقدم إليه المختار ليساعده على الوقوف ولم تصل المياه إلى عرقوبه، بينما الضابط كان ممدّداً على الأرض.

"ألى أين تسبح إن شاء الله؟" سأله المختار وهو يحاول إيقافه عن التجديف والسباحة في الوحل.

"إلى برة البحر، إنت ما تسبحش ليه". شم المختار رائحة الخمور عندما تحدث الضابط، وعرف أنه هو الذي جاء إلى منزله لإبلاغه إلغاء قرار حفر الخنادق حول القرية.

"لو حفرنا الخنادق كانت السباحة معقولة فيها، لكن هنا في بحر البعرة فلا داعي للسباحة". أسندوه وساروا إلى جانبه حتى دار

سكيبة في الطريق إلى المدرسة حيث تركوه ليعود إلى رفاقه بهدوء ومن دون إحراج، وعادوا إلى جلستهم يتندرون ببحر البعرة.

"أنتم في عز يا بربراوية، قاعدين في بيوتكم وأرضكم وعندكم مصريين يدافعون عن البلد". قال أبو محمد مهنا، وهو شاب وقريب لمختار المسمية صديق مختار بربرة. "بلدنا خاوية الآن، لا شفت فيها عرب ولا يهود، المطر يخرب بيوتها، وزرعها غير محصود، وأبقارها نفقت ودواجنها سرحت". كان الرجل يتحسر ويتألم وهو يتحدث، فقد عاد اليوم من المسمية الكبيرة، وهو في طريقه إلى غزة حيث هرب أهله إلى هناك منذ ثلاثة شهور.

"كيف الوضع في الطريق؟" سأله المختار حتى يخفف عنه ويحوّل أفكاره.

"كل المنطقة شرق سكة الحديد والإسفلت مع اليهود، معظم القرى فارغة حتى من اليهود، لكنْ هناك تجميع لقوات يهودية بملابس مختلفة، ومدافع ومصفحات قرب بيت داراس، ودوريات بين المستعمرات. من المحرقة شرق غزة وروح شمال إلى هوج ونجد وسمسم وبرير وكرتيا وعبدس وبيت عفا وبرقة والبطاني وبيت داراس، كلها فارغة من العرب وفيها شوية يهود في الكبانيات، وتجمعات من الجيش اليهودي. والجيش المصري في أسدود وحمامة والمجدل والجورة ونعليا والجية، وعندكم في بربرة وهربيا وبيت جرجا ودمرة وبيت لاهيا وبيت حانون وغزة". كان هذا هو خط التقسيم تقريباً، وقد أعاد حديثه بعضاً من الاطمئنان والقلق إلى أفئدة البربراوية.

"كيف خرجتم من المسمية، هجموا عليكم أو..".

"يوم ما طلعنا لم يهجموا علينا، ولكنهم كانوا ضربوا قنابل

قبل فترة، عندما خرج الإنجليز واحتل اليهود معسكرهم". أجاب أبو محمد مقاطعاً سؤال حسن الشيخ، ثم استكمل ما أراد الحضور معرفته. "في أول أيام شهر رمضان حضر خسكي وشيكي من مستعمرة قطرة إلى المسمية الكبيرة واجتمعا إلى نخبة من رجالها منهم محمد مهنا وأخوه حسن. أبلغوهم أن عليهم تسليم القرية وكل قطعة سلاح فيها، وإلّا فإن اليهود سيدخلونها ولن يتحملوا مسؤولية ما سيحدث للرجال وللبنات. انتشر الخبر في القرية كالنار في الهشيم، ثم طار الخبر شمالاً إلى قرى المسمية الصغيرة، التينة، أدنبة، مغلس، تل الصافي.. كل السكان حوالى ثلاثة آلاف شخص خافوا على العرض ودبت فينا حالة من الفزع. هجرنا البيوت ومدرستي الأولاد والبنات والمسجدين وتوزعنا في كل الجهات، إحنا ذهبنا إلى غزة. جاءت الهدنة بعد أسبوع ولم يعد السكان، لأننا ننتظر نهاية الحرب، ومرّ شهر رمضان والصيف ودخل الشتاء ولم يدخل القرية عرب أو يهود، إلّا أنا وبعض من أصحاب البيوت نتسلل لاغتنام دواجن أو مواشٍ أو نستعيد بعض ما تركناه ونستطيع حمله". لكن أبا محمد لم يجلب معه أي شيء هذه المرة، على الأقل لم يرَ المضيفين أي شيء معه.

***

تسللت في الصباح من الفراش بهدوء حتى أعد الفطور للمختار. سلقت البيض وأحضرته مع الزعتر والجبنة البيضاء وبراد الشاي، ووجدت زوجي قد غادر الفراش وجلس يستمتع بدفء الشمس وهو يدخن سجائر في الشرفة الشرقية وينظر إلى الحاكورة.

"صباح الخير، دخان قبل الفطور؟" في هذه السنة صار

المختار يدخن علبتين من الدخان الأجنبي في اليوم، لكنه لم يكن يدخن قبل الفطور في العادة.

"نطفيها طالما الفطور جهز. يبدو أنك مبسوطة اليوم". لم يسأل عن السبب، فهو يعرف أن من يريد قول شيء ما فإنه سيقوله.

"مبسوطة بوجودك يا مختار". ثم نظرت في عينيه وقلت له "أنا حامل". انفرجت أساريره قليلاً، ولكن الفرح لم يشع من عينيه مثل أيام زمان، حين كان يفرح من أقل الأشياء.

"مبروك يا أميرة، عقبال ما يكونوا توم أولاد". قالها بحيادية، وسمعت بكاء عائشة تعلن أنها صحيت من النوم، فذهبت إليها وتركته مع فطوره. وعندما عدت مع ابنتي بعد قليل، كان المختار قد أشعل سيجارة أخرى، بينما عبد الله وعبد الرحمن جالسان يتناولان الفطور. صببت الشاي وأحضرت أكواباً أخرى وشاركت أولاد ضرّتي في الطعام. وقبل أن ننتهي من تناول الفطور سمعنا أصواتاً من بعيد، قال المختار إنها مدفعية من الشمال. تركنا، وارتدى ملابسه وصعد إلى العلية، ولكنه لم يشاهد أي شيء، فخرج وهو يعلن أنه ذاهب إلى المدرسة ليسأل المصريين ماذا يجري في الشمال، بينما فتحت ضرتي الراديو في الليوان.

قبل أن يعود المختار شاهدنا من العلية الطائرات تغير على قرية الجورة الساحلية وعلى المجدل. عاد زوجي وصرخ علينا أن ننزل من العلية ونحتمي في الغرف. ثم غيَّر الأوامر وطلب منا الجلوس في الحاكورة.

"اليهود يضربون بالمدفعية في أسدود وحمامة والمجدل، واحتمال يصلنا القصف في أي لحظة.." .

"والهدنة راحت في... الحمار!" قال أبو فتحي يخاطب أخاه عبر الجدار الذي يفصل بين الدارين، ثم فتح الباب وسط الجدار،

فقال له زوجي إن اليهود هجموا وطلب منه أن يحفر خندقاً أو اثنين لكل أهل البيت. يعني لستة أفراد في دار أبي فتحي وسبعة في دارنا، لأن عمتي مريم محمود كانت تعيش عند ابنتها، ضرتي.

"الراديو قال من مصر إن الطائرات الإسرائيلية تقصف المجدل والجورة".

"ما إحنا شايفين من دون بلاغ الراديو". قال زوجي رداً على زوجته ثم صمت وعاد يقول: "كيف عرفوا بهذه السرعة وأذاعوا الخبر؟". لم يجد جواباً أو مجيباً، لكن الطائرة مرت من فوقنا متجهة إلى البحر، ودوى انفجار في الحارة الغربية. ركضنا لنرى ما حدث ولم نرَ إصابات في الحارة ولكن القذيفة نزلت في الكروم غرب الحارة.

قبل العصر اجتمع رجال البلد في الجامع، وحضر قاضي قرية الجية، حمدان عابد، الذي عقد قران كل أهل بربرة، ومختار نعليا وناس من بيت طيما. قال القاضي: الأفضل أن لا نرحل، كل الناس الذين رحلوا من قراهم ومدنهم لم يعودوا إليها. أيَّدوه، وقال زوجي: يجب أن نشكِّل لجنة في كل قرية لتساعد الجيش المصري، يعني لا ينقص عليهم ماء أو طعام، وإذا طلبوا المساعدة فلا بد من أن نحمل السلاح إلى جانبهم. قلت لنفسي، يعني إذا انسحب المصريون رحنا في داهية، اليهود يخشون علينا، يطخون الرجال ويفتحون بطون النسوان. خلعت الدبلة والخاتم من إصبعي، ونزعت الحلق من أذني، وخبّأتها داخل الصندوق مع بقية أساوري وجوز الحية والعقد والشطوة. على الأقل إذا دخلوا علينا يأخذون الذهب، وذلك أفضل من قطع إصبعي أو أذني.

لم ننم طوال الليل لأن صوت القصف بالمدافع يصلنا مثل الرعد، والمختار صار يولع سيجارة من أختها، وراديو الإنجليز قال

في الليل إن المصريين خرقوا الهدنة وضربوا قافلة يهودية، واليهود فتحوا الحرب في كل الجبهات. في الصباح رمت الطائرة قنبلة وسط البلدة وانهارت أسقف أكثر من عشرة بيوت، وربنا ستر لم يُصب أحد. قبل الظهر كانت عدة عائلات قد حملت فراشها وطناجرها ورحلوا سيراً على الأقدام إلى هربيا المجاورة والتي لم يقصفها اليهود. ابنتي عائشة أصابها الجنون، ولم تعد تقبل أن أتركها، وكلما ذهبت للقيام بعمل ما تبدأ في الصراخ. زينب وخديجة ابراهيم حضرتا قبل المغرب إلى دار أخيهما، وأنا حملت عائشة وذهبت إلى دار أهلي لأطمئن عليهم. كل البيوت التي مررت بها كان أهلها يحضِّرون أنفسهم للفرار، دار الحاطوم كانت مهدومة من الطائرات وكانوا يفتشون عن حاجياتهم تحت الهدم؛ دار السلطان كانوا جاهزين للرحيل، دبله اشترت حماراً حتى يحمل زوجها لأنه مريض.

وصلت بيت أهلي أثناء حوار بين محمد ووالدي ليهدّئ من من روعه. "والله العظيم يا أبي ما أسيبك هنا لوحدك، حتى لو رميت أولادي وحاجاتي، لازم أحملك على ظهري. توكل على الله".

"الله يرضى عليك يا محمد". قال أبي لابنه، ثم رد التحية بعد أن تنبه لحضوري.

"الناس بترجع وأنتم تستعدون للرحيل؟".

"مين اللي يرجع يا أميرة؟" سألني أخي.

"المختار أرسل خلف اللي رحلوا على هربيا حتى يعودوا، لأن وضعنا في بربرة لا زال أحسن من غيره، والناس استعدوا كي يعودوا بكرة الصبح". رأيت أن بديلتي خديجة قد جهزت أشياءها للرحيل قبل أن تذهب إلى بيت أخيها. وضرّتها أم أحمد عملت مثلها، وأمي وضرّتها ذات الموال، وكان المطبخ شبه فارغ وكأنهم

لن يتعشوا في بربرة الليلة. تركتهم وعدت إلى بيتي لأجهِّز أغراضي وحاجياتي أيضاً. حضر محمد ليرافقني، فقد حل الظلام ولم يشعل أي واحد في بربرة مصباحاً. في الطريق أخبر محمد بقية العائلة أن المختار أرسل خلف الذين هربوا إلى هربيا، فتبعنا البعض إلى الليوان حيث كان الكثير من رجال العائلة قد تجمعوا، لسماع الأخبار وللتشاور. دخلنا بينما موسى السلطان يقول للحضور إن أهل الجورة ونعليا والخصاص نائمون في كروم بربرة الغربية.

"طبعاً، الناس خايفة من الطائرات، ومن هدم البيوت على رؤوسهم". قال زوجي، "اللي يفضل النوم في هذا البرد خارج البيوت وعلى الرمال فلا مانع وهو حر، لكن الهروب إلى هربيا وبيت لاهيا وغزة كلام فارغ، يعني أين سيقف الهروب في العريش في قناة السويس". صمتوا وأنصتوا إلى المختار وهو يسأل ويجيب "نحن لا نعرف أين سيتوقف القصف، والمعركة لم تحسم، واليهود يضربون من بعيد وفي كل مكان".

"واحد من جماعة الجورة في الكروم قال لي إن الجيش المصري ينسحب في البواخر من الجورة". قال موسى السلطان.

"بكرة نبعث ناس على الجورة نشوف". قال عبد الحفيظ كسباً للوقت، ونبه الجميع لضرورة البقاء في البلد "إما نبقى سوياً أو نرحل سوياً".

إذاً لا رحيل الليلة طالما أن المستمعين لم يعترضوا، ولم يظهر أي واحد منهم أنه كان جاهزاً للانطلاق. في الليل نمنا على أصوات المدافع من بعيد وأزيز رصاص في أطراف القرية من الجهة الشرقية. وفي الصباح عاد من الجنوب الذين هربوا إلى هربيا، ووصل بربرة من الشمال أناس هاربون من قرى جولس وكوكبا، وعرفنا منهم أن اليهود حاصروا الجيش المصري في الفالوجة من

جهة حته وكرتيا وعراق سويدان في الشمال والغرب، وبرير والسواركه، وإنهم قطعوا الطريق إلى الخليل. أما الذين ذهبوا إلى الجورة للاستطلاع، محمد وموسى ورمضان السلطان، فقالوا آخر النهار إنهم شاهدوا من تلة في نعليا، زوارق صيد تحمل جوارنه وتبحر باتجاه غزة، وطائرات صغيرة وكبيرة تقصف المجدل. هذه الطائرات جاءت من ناحية الفالوجة ومرت من فوق بربرة وغارت على المجدل، لكنها لم ترم علينا قنابلها اليوم.

واضح أننا كنا جالسين لشهور بانتظار نتائج المفاوضات وتنفيذ الوعود، بينما اليهود يستعدون للحرب ويرسمون الخطط لاحتلال ما يريدون من الأرض وطرد السكان. لا يوجد تفسير آخر لهجومهم في كل المناطق يوم انتهاء الهدنة. الجيوش العربية لم تكن لديها نيّات بالهجوم، وهي أصلاً الآن غير قادرة على الدفاع والصمود في أماكنها. المصريون حوصروا في الفالوجا، وسمعنا من راديو الشرق أنّ اليهود احتلوا صحراء النقب وبئر السبع وما حولها، والجيش العربي الأردني تراجع إلى الشرق. أخي حسن قال إن صحراء النقب هي نصف فلسطين كما علموهم في دروس الجغرافيا في المدرسة، وإنها تربط العرب في آسيا مع العرب في افريقيا. راديو مصر يتحدث عن النقب وكأن بئر السبع تحت سيطرة الجيش المصري. "إن شاء الله يكونون صادقين، ويا رب يصمد الجيش العربي في القدس ورام الله والجيش العراقي في نابلس وجنين".

ضرتي، أم مطر، حلبت البقرات من الصبح وقعدت على صحن الغسيل، وأنا أطعمت الفرس، وعلفت الطيور. الناس في واد وأم مطر في واد آخر. عندما شاهدت حيرتي من تصرفها في غسل الملابس، قالت ماذا نفعل يا أميرة، نغسل ونطبخ ونعيش حياتنا حتى يفرجها الله. العرب مختلفون مع بعض، والفلسطينيون يتقاتلون

مع بعض ومع العرب، وربنا غضبان علينا ومسلط اليهود ومعهم أقوى دول الدنيا ضدنا. وهذه الحال منذ زمان والله أعلم إلى متى ستدوم. وما كادت تنتهي من قول إننا سوياً عملنا المتوجب علينا وأكثر في حراسة البلد، وإذا بصوت انفجار من ناحية الدبة يزلزل البيت، وتبعه فوراً صوت أزيز وانفجار آخر جاء من جهة النثلة. لم نسمع صوت طائرات قبل الانفجار مثل المرات الماضية. وبدلاً من أن نختبئ هرولنا من باب البايكة إلى الشارع، فإذا دار فنيارة، جنب النثلة، مكومة على بعضها. جاءنا صوت الانفجار الثالث من الحارة الغربية. رأينا أن الانفجار الأول أصاب الحجر الأبيض، جنب الدبة، والذي كان الدراويش يجتمعون عنده مرتين كل عام للانطلاق إلى المواسم في غزة والمجدل وهم يقرعون الطبول ويلوحون بالرايات.

"اليهود هجموا من الكبانية ووصلوا للواد، اللي معه بارودة يسرع للنجدة". أخذ عوض الله يركض في حواري بربرة يكرِّر هذا النداء لنجدة الرجال الذين يحرسون بربرة من جهة الجنوب. هذه أول مرة يهاجمنا فيها اليهود أثناء النهار. في الماضي كانوا يطلقون النار من المصفحات وهم عائدون من تل أبيب إلى كبنية دير سنيد، الآن خرجوا وأخذوا يهاجمون بعد أن تشجعوا من القنابل التي تسقط فوق رؤوسنا والطائرات المتنوعة التي تمشط البلد. تكاثر الشباب على المهاجمين وردوهم إلى الكبنية قبل الظهر.

عدنا إلى البيت وباشرنا بتجميع ما سنحتاجه بعيداً من هنا، إذا تقرر الهروب، ريثما تهدأ الحرب. الذهبات وقواشين الأرض، وبعض الملابس ونصف الفرشات تقريباً، وجمعنا المزاود كلها لأنها غالية ويمكن أي واحد من العرب أو اليهود أن يسرقها إذا تركناها في البيت. لم نأخذ رأي المختار، ولكننا لم نجمع الكثير

من الأشياء، ولا يزال بإمكاننا المبيت هنا والأكل لأيام من دون أن نفكَّ ما جمعناه. سعاد وفاطمة، زوجتا أحمد، كان لهما السبق في الاستعداد للهروب من القصف الذي لم يتوقف بعد الانفجار الثالث. بعد الظهر سمعنا زوجة أبي الدود في الحارة تولول إن الطائرة هدمت قصر نابق، وهو في حاكورة قريبة من قطعة أرض تخصّنا، وعائلة أبي الدود يسكنون في حاكورة مجاورة لقصر نابق، وكان صغارهم لا يتركون ثمرة في حديقة القصر من دون تذوقها قبل النضوج. الآن تهدّم القصر وهرب السكان إلى بربرة.

من جهتها عايشة أبو الشيخ نقلت إلى الحارة قبيل المغرب نبأ ذبح قاضي الجية، حمدان عابد، على سكة الحديد. وهذا الأخير هو المسؤول عن كل الزيجات في بربرة، وعلى الرغم من ذلك فهو لا يستحق هذه الميتة، فقد وجدوه مذبوحاً من قبل اليهود ومرمياً على السكة. هذا معناه أنهم صاروا إلى الشرق من الشارع وسكة الحديد في أراضي بربرة الشرقية، وأنهم يذبحون من يقع في أيديهم، عن سابق إصرار، وإذا كانت الطائرات لا تنقصهم، فما بالك بالسكاكين.

قبل أذان العشاء، حملت الريح الغربية عويل ولطم أمي وضرّتها فاطمة حسين، وبديلتي خديجة، وضرتها ليلى. ولقد علمت فوراً أن والدي حمودة قد ودع الحياة. اتجهت إلى بيت أهلي وكانت أخته مريم محمود في إثري، ومعها ابنتها أم مطر، ثم تجمعت النساء وغصّ البيت بالرجال. كنت طوال الوقت أفكِّر أنه محظوظ لأنه فارق الحياة هنا والآن، وترك كل المخاوف والمشاكل لأولاده وبناته وأحفاده. كان مريضاً في الأشهر الماضية، وصار يتمنى أن تتحسّن صحته ويحمل البندقية ليموت شهيداً. لم تتحقق أمنيته، ولكنه على الأقل مات من دون احتضار طويل، ومن

دون أوجاع، وهذه نعمة، وسيدفن في الصباح إلى جانب أمه وأبيه، وهذه نعمة أخرى. أما نحن فلا ندري ماذا علينا أن نجمع، الملابس أم الأغطية، معدات الطبخ أم مخزون الأطعمة. ماذا سيحصل للأبقار والمواشي والطيور. كففنا عن الصراخ والعويل بسرعة، وكان حديث الرجال كله عن الوضع العسكري وكيف أن اليهود عادوا إلى الاستحكامات، وليس عن الآخرة. فهمت أن اليهود قطعوا الطريق على الجيش المصري عند كبنية دير سنيد، تلك الكبنية التي دمرناها وحرقناها وسحلنا موتاها ونهبنا كل ما فيها، وها قد عادت مأهولة تهاجمنا وتقطع طريق الإسفلت والسكة إلى غزة على أكبر جيش عربي. صرنا إذاً محاصرين من الشمال والشرق والطريق كان مقطوعاً باتجاه الجنوب، ولم يبقَ سوى الاتجاه غرباً نحو الشاطئ. لواء مصري محاصر في الفالوجة، وهي شرق بربرة وتفصلها عنا الحليقات المحتلة هي وشرق بربرة، وهم صامدون على الأقل ويرفضون الهروب. أما نحن في المجدل والجورة ونعليا والخصاص وبربرة وبيت جرجا وهربيا، فقد أصبحنا محاصرين إلّا من جهة الغرب، والقوات المصرية غير قادرة على الصمود. لقد باشروا التجمع والانسحاب عبر البحر من الجورة، هذا ما يتحدث به الآن كل أهل البلد، ومن يصل من بربرة عبر هربيا إلى بيت لاهيا وبيت حانون يصبح خلف خط الحصار الإسرائيلي في دير سنيد. صلى الرجال في الفجر على والدي في الجامع، ودفنوه في مقابرنا.

قبل أن نعود من المقبرة إلى بيت أهلي عرفنا أن الجيش المصري جاهز للانسحاب. واصلنا المسير إلى المدرسة لنرى أن زنوبة، أم خليل مهران، قد تمددت أمام دبابات الجيش المصري لتمنعهم من التحرك، وكانت نسوة أخريات من دار مهران وأبي

الداود قد ركبن العربات وتمنّين على الضباط البقاء. دار مهران وأبو الداود أصلهم من صعيد مصر، ولقد ظنوا أن القرابة قد تنفع في منع الانسحاب. ذهب المختار إلى الضابط ليستفسر منه، فإذا به يبكي كالأطفال ولا يفهم منه سوى التأسف وكلمة أوامر. بقيت زنوبة في موقعها وإلى جانبها طفلها خليل يحمل أخته عائشة وهما يصرخان مثل معظم الحضور. بعد قليل من تهدئة خواطر الضابط قال إن الأوامر بالانسحاب نهائية، وإن وجهتهم هي غزة في خط سير من بربرة إلى هربيا غرباً ثم على الطريق الترابي قرب كمب الإنجليز، إلى بيت لاهيا حيث توجد قوات مصرية تحمي الطريق الترابي غرب دير سنيد. وقال الضابط لزوجي إنه لا يعرف إلى متى قد يبقى هذا الطريق مفتوحاً، وإن القيادة لا تريد إيقاع قوات أخرى في الحصار كما في الفالوجة، ولهذا الأوامر صارمة بالانسحاب.

"لكن الجيش الأردني يموِّل المحاصرين في الفالوجة ويؤمّن لهم الأكل والذخائر من الخليل على الإبل، ونحن هنا لدينا ما نحتاج من طعام، وأنتم لديكم السلاح، وبالأمس دحرنا هجوم ويمكن أن نهاجم سوياً دير سنيد مرة أخرى ونفتح الطريق". كان زوجي يتحدث والضابط يحرك رأسه إلى اليمين ثم إلى اليسار رافضاً هذه الفكرة.

"الوضع معقد أكثر مما تعتقد يا مختار، لا يوجد لدينا سلاح جوي، واليهود عندهم قاذفات ومقاتلات لا تحصى، ومدفعيتهم نشطة وسريعة".

"ونحن من يحمينا من انتقام اليهود إذا رحلتم الآن؟".

"ربنا يحميكم". رد الضابط على المختار وعيونه تهطل دمعاً.

"هل أوامر الانسحاب تتحدث عن عودتكم مرة أخرى بعد الاستعداد؟"

"لن أكذب عليك يا مختار، انسحابنا غير منظم، وأنت تعرف أن ما يحتله اليهود لا ينسحبون منه. يمكنني حمايتكم طالما نحن مع بعض".

"هل تقصد أن نرافقكم حتى تحمونا؟".

"لا أطالب أحداً منكم بمغادرة منزله، والقرار لكم، لكني مجبر على المغادرة فوراً". أعطى إشارة بيده فاشتغلت محركات الشاحنات والمصفحات، وارتفع عويل أم خليل وبقية النساء، وسحبها بعض الجنود من الطريق وأخذوا يبعدون من يحاول التمسك بالشاحنات. بعضنا صار يدعي عليهم بالويل وبعضنا الآخر يتمنى لهم النجاة والأمن.

"رجلنا على رجلهم". سمعت بديلتي خديجة تقول لأخي محمد، وهي تحمل ابنها الذي أنجبته قبل شهرين وأسمته عبد الرحمن مثل ابن ضرتي الثاني. لم يكونوا أول من هرولوا من المدرسة إلى بيوتهم لحمل ما يستطيعون وملاحقة القوات المصرية إلى مدينة غزة.

"هم قدامنا وإحنا وراهم". قال عبد القادر السلطان لأولاده. "لو يبقوا فقط منظر، يمكن أن نحارب اليهود، ولكن بعد اشتراكنا معهم في الحرب على اليهود يهربوا ويتركونا للذبح. لن نقعد هنا".

"قولوا من الخصاص إذا أمسك بكم اليهود في الطريق، لا تقولوا إنكم من بربرة". أوصى جبريل مصطفى أولاده جمعة ومحمد ومحمود وأصغرهم عبد الرحمن، وهم في الطريق من المدرسة إلى البيت. سمعهم الكثير من الناس المهرولين وأثنوا على الفكرة، كون الخصاص قرية فقيرة مجاورة يسكنها عمال مياومون ولا دور لها في محاربة اليهود طوال العقود الماضية، على عكس بربرة. رفض أهالي بربرة بيع أي قطعة أرض، وحاربوا في ثورة الـ 36 ضد

اليهود والإنجليز، وقطعوا الطريق على اليهود عدة مرات، والمختار قتل مختار الكبنية وابنته وحرق مصفحاتهم ووضعها في الكاراج حتى الآن، وقاد الهجوم مع المصريين على الكبنية قبل فترة قصيرة، وبالأمس هزموا اليهود في المنطقة. أما شقيق زوجي أحمد فقد قال إنه دهس عدداً من اليهود في تل أبيب يوم الإضراب، وسار في الشاحنة الزراعية فوقهم حتى خرج من الناحية الأخرى. وبقية رجال البلد شاركوا في الهجمات والمعارك، وكل اليهود يعرفون مواقف بربرة وأهلها.

***

خريف بربرة

لن يصلي غداً الجمعة في الجامع أي بربراوي، ولن أزور قبر أبي حتى يفرجها الله. وضعنا كل ما جهزناه للهروب في الشاحنة الزراعية، حاجاتنا وحاجات دار سلفي أبي فتحي، أما أغراضنا الأخرى فكانت في غزة. ركب زوجي الجيب ومعه الأولاد، مطر وفتحي وعبد الرحمن وحكمت. دارت أم مطر في البيت بسرعة لتفقد الأشياء وتنبهت إلى حركات الفرس المربوطة في الحوش. ذهبت إليها فإذا بها تبكي ودموعها تسيل مثل بني البشر. "لا تخافي لن نتركك هنا لوحدك". قالت فاطمة لفرس زوجها وهي تربت على رقبتها بيد، وأخذت شاشيتها عن رأسها باليد الأخرى لتمسح دموع الفرس. ثم استجابت لنداء المختار "هيا بنا لا بد أن أوصلكم إلى غزة وأعود لنقل أشياء أخرى".

تحرك الجيب إلى هربيا في إثر المصريين. مكثنا أكثر من ساعة أخرى نستكمل الحمولة، وفتحنا الزريبة للحيوانات لترعى في الحاكورة، وأزلنا الحواجز من أمام الدواجن والحمام ليتحرر ويستقل في تأمين طعامه. أقفلنا الغرف، باب العلِّية وغرفتي في الأسفل، وغرفة ضرتي إلى جانبها والغرفة الثالثة لعمتي مريم والليوان وغرفة المقعد، والحمام، والمطبخ. ثم اعتلينا الأشياء المحملة في الشاحنة، أنا وابنتي عائشة، وسعاد وابنتها ندى،

وجلست فاطمة الخياطة ومريم محمود إلى جنب السائق، أحمد، الأولى سمينة بينما عمتي كانت ضامرة وطاعنة في السن. قبل الانطلاق أرسل الله بدوياً سبعاوياً صديقاً للمختار، جاء ليطمئن علينا بعد تجدد الحرب منذ عشرين يوماً. نزل أحمد من الشاحنة وأعطاه الفرس البيضاء ليرعاها ريثما تهدأ الأحوال ونعود. هذه ليست الفرس الأولى عند المختار، لكنه يحبها أكثر من سابقتها، الحمراء، بكثير ولا أدري ماذا سيقول لأحمد عندما يعرف أنه أودعها عند السبعاوي.

تنبهت لمئات من طيور الشرقرق تحوم في فضاء الحاكورة، وبعضها يقف في الهواء من دون حراك فرحة بألوانها الزاهية. جناحان أزرقان في الوسط وخطوط صفراء وبرتقالية على الأطراف، ورقبة خضراء كالزمرد. كانت تزقزق بنغماتها المميزة عن بقية الطيور. لم يكن من المفترض وجود شرقرق الآن، في اليوم الرابع من نوفمبر، فهي تهاجر في أواخر الصيف وتعود في الربيع، لكنها هذا العام ما زالت بيننا، ربما لكثرة الغلة المخزنة في البيادر والحبوب التي لم تحصد في الحقول، فأي طير عاقل يمكنه ترك هذه النعم ويهاجر. تحركت الشاحنة وجال في خاطري أن الضباع والثعالب سوف تقيم ولائم متواصلة على المواشي والدواجن، إذا لم يسبقها اليهود إلى هذه الغنائم.

طريق رملي ملتوٍ، يبدو طويلاً ومن دون نهاية، وليس فقط 15 كيلومتراً كما قال أحمد، لذلك لا أدري إلى أين يأخذنا ومتى سنصل. الشاحنة تتحرك ببطء لأن الناس يسيرون في الشارع وعلى طرفيه محملين بالفرش والصرر والطناجر والأطفال وأباريق الماء.

وبين الحين والآخر أشاهد بعضاً من سكان بربرة، ولكن الأغلبية هم أناس من المجدل وحمامة ونعليا والجية والجورة. بعض البربراوية اتجهوا نحو الشاطئ وساروا بمحاذاة الماء إلى غزة حتى لا يضيعوا في سوافي رمال بيت لاهيا. ربنا لطف بالناس أن الجو شتوي بارد وغير ممطر. في بيت حانون أوقفتنا نقطة مراقبة من جنود السودان الذين يركبون الجمال. سألونا إلى أين نذهب، فقلنا إلى غزة. لو كانوا يهوداً وفتشونا، أو طلبوا منا أن نقفز إلى فوق أو إلى تحت لوجدوا مع كل واحدة عدة قطع ذهبية. "ذهباتي خرخشن في صدري طوال الطريق بدون نط".

وجدنا فاطمة والأولاد في بيت يوسف بامية، جالسين على الشرفة يتأملون في حديقة البيت الممتدة أمامهم. في دار بامية أصدقاء لنا منذ زمن، وزوجي يعرفهم من أيام شغله في يافا حيث كان يعمل سائقاً لديهم. وكثيراً ما زارونا في بربرة، خصوصاً في موسم قطاف العنب عندما كنا نعزب في الكروم وننام تحت أشجار العنب التي تشبه كوخاً مغلقاً من كل الجوانب، وتتدلى القطوف في داخله ومن حوله. وكل ساعة تمر علينا الآن في غزة في بيت هؤلاء الناس، كان يتجدّد في نفسي السؤال لماذا هربنا؟ وإلى متى سنبقى هنا؟ فهذه الحال لا يمكن أن تستمر لأكثر من أسبوع. سكان دار بامية محترمون وكرماء لكن البيت مهما وسع، فلا يتسع لنا ولهم. مرت الساعات ثقيلة وبطيئة، لا بقر نحلبها، ولا دواجن نعلفها، ولا أشجار ننكش حولها تمهيداً للمطر. المختار يتواجد خارج البيت طوال اليوم، لا أدري إذا كان يتفحص فرص العودة أم أنه لا يريد التواجد طوال النهار والليل في بيت الناس الذين استضافونا.

سألته لماذا جاء كل الناس إلى غزة؟ هل قال اليهود إنهم لن يهجموا عليها؟ كان جوابه إن كل الساحل الشمالي من رفح إلى شمال أسدود يقع ضمن القسم العربي في التقسيم، ولو أراد الله أن يقطع اليهود الطريق شمال المجدل لذهب الناس إلى مدينة المجدل، لكن قطع الطريق جاء شمال غزة فجاء الجميع إلى أول مدينة جنوب دير سنيد، وهي غزة. في تلك الليلة قرر المختار أن نذهب في الصباح جنوباً، إلى رفح، حيث حدود فلسطين مع مصر. هكذا سنبعد 40 كيلو متراً أخرى عن بربرة إلى بلد لم أدخلها قبل ذلك.

أنزلنا الطحين ومعدات الطبخ من الشاحنة، في وسط حقل قمح لم يبق فيه سوى التبن وبعض الحطب المتطاير من أشجار لوز متفرقة. جمعنا الحطب وخبزنا على النار ونمنا في العراء حتى تمكنَّا من زرع بعض الأخشاب وإحاطتها بالمزاود وغطيناها ببطانيات وشوادر مما حملناه معنا. لم يحتج أهالي رفح أصحاب الأرض التي حططنا فيها الرحال، والتي كانت لأناس من دار أبي عيده. في الليل كان المختار يشبك الراديو على بطارية السيارة ونستمع إلى الأخبار عما يدور في فلسطين ودول العرب. في أريحا عقدوا مؤتمراً ثانياً برئاسة الشيخ محمد الجعبري، رئيس بلدية الخليل، وأعلنوا من هناك عن وحدة فلسطين والأردن، وبايعوا الملك عبدالله ملكاً على فلسطين. لم نعرف على الفور إذا كان هذا يشملنا أم لا؟ هل عبدالله ملكنا، هل نحن من فلسطين؟ التعليقات كانت أننا انفصلنا عن بقية فلسطين والتصقنا بالحدود المصرية، وطبعاً الجيش المصري هو الذي يدير شؤوننا من رفح حتى بيت لاهيا، وحكومة عموم فلسطين في غزة لا حول لها ولا قوة.

سمعنا من راديو لندن أن القوات الإسرائيلية دخلت سيناء في المنطقة بين العريش ورفح، وهذا يهدد معسكرات الإنجليز في الأراضي المصرية، ويقلق الملك فاروق أن الإسرائيليين قد يحتلون أراضي مصرية ومعها بقية فلسطين، التي يسميها الراديو قطاع غزة، وبالطبع طردنا من هذا القطاع إلى مصر. عام النكبات هذا لم ينته بعد، وراجت إشاعات أن أميركا تطلب من اليهود الانسحاب من سيناء، وأنهم انسحبوا فعلاً، لكننا عشنا بعد ذلك هجوماً إسرائيلياً على رفح، وعادوا يحاصروننا هنا. تذكرت ما قاله المختار عن الهروب دوماً خلف الحصار، وهذا سيعني أن كل اللاجئين والمواطنين في قطاع غزة سوف يهربون إلى مدينة العريش المصرية. وبينما نحن على هذه الحال المزرية جمع الملك عبدالله شمل مؤتمر ثالث في رام الله أيَّد فيه المؤتمرون قرارات مؤتمر أريحا قبل أسابيع، كما دعوا إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتنفيذ تلك القرارات. وقد صاحب ذلك جولات قام بها الملك في أنحاء من فلسطين أخذ خلالها البيعة لنفسه، وقال راديو مصر إن الحكومات العربية والأمانة العامة للجامعة العربية، أُبلغت بنتائج تلك المؤتمرات. يعني جماعتنا غرب نهر الأردن أمَّنوا أنفسهم من الضياع لأن لديهم ملكاً وجيشاً صديقاً لبريطانيا يحميهم، بينما نحن هنا محاصرون مثل جنود مصر المحاصرين في الفالوجة، ويمكن أن يطردونا إلى مصر.

راديوهات مصر والشرق ولندن تتحدث عن تظاهرات عربية، واتهامات سياسية ضد وزير الدفاع السوري أحمد الشرباتي لأن المدفعية السورية لم تضرب مواقع إسرائيلية. والتعليقات والصحف في مصر، كما تنقل عنها الإذاعات، تقول إن الأسلحة التي أرسلت مع الجيش المصري للقتال في فلسطين كانت أسلحة فاسدة وإنهم

يبحثون عن المسؤول عن شرائها. ضحكنا عند سماع هذه القصص لأن الجيش لم يستعمل الأسلحة ليعرف أنها فاسدة أم صالحة، والجامعة العربية والمفتي ينسبون هذه الكوارث إلى جلوب باشا.

انتهى آخر يوم في العام ولم ننته من المصاعب، واشتدت الأربعينية علينا وغرقنا في الأمطار والوحل. ارتفعت المعنويات قليلاً عندما سمعنا أن طائرات عربية شنت هجوماً على مطار اللد، وهجوماً آخر على مطار تل أبيب، وهجوماً ثالثاً من الجو على القدس. توقفت الهجمات وقال الراديو إن إسرائيل لم تخسر من القصف وإن جندياً واحداً مات. لم يمضِ يومان على هذه الأخبار حتى سمعنا ما أفقدنا أي ذرة أمل، فقد هاجمت إسرائيل الإنجليز وأسقطت لهم خمس طائرات بريطانية فوق سيناء وقتلوا طياراً وأسروا اثنين.

***

"يا بنت يا بنت". التفتُّ إلى مصدر الصوت، وتوقفتُ عن جمع الحطب وسط الوحل لأرى ماذا يريد هذا الرجل.

- "نعم".

- "أين زوجك؟".

- "ليش يا خوي شو بدك؟" سألته لأن جماعتي كانوا على مسافة 400 متر ويمكن أن أشير إليه ليذهب هناك إذا لزم الأمر.

- "روحي أخبري زوجك أن يذهب إلى المركز لأنهم يوزعون على اللاجئين خياماً للسكن، وحصراً ولوازم أخرى".

"شكراً يا خوي". قلت له وحملت الحطب واتجهت إلى موقعنا، وكلمة الرجل ترن في أذني بأننا أصبحنا لاجئين. تركنا

الحواكير والبيت والعلية والغنم والعز، وها أنا أجمع الحطب وصرت لاجئة هنا في نظر أهل هذا البلد المقفر.

بوادي الحنين بوادي الحنينا وبحياة النبي لا تدشرونا

دشرنا كروم العنب والتينا وجينا عبلاد فيها يلومونا

"يا أبو مطر إذهب للمركز". قلت لزوجي باختصار وأنا أُنزل الحطب عن رأسي قرب موقد النار، ومشاعري مختلطة بين قاع الحزن وإمكانية الفرج.

ـ "خير إن شاء الله، لسه ما زهقنا من المراكز والبوليس والجيش؟"

ـ "ذاك الرجل قال إنهم يوزعون معونات في المركز، فاذهب الله يعينك يمكن تأخذ حاجة تلقى عنا الريح وتسترنا من المطر، الرجل قال إنهم يوزّعون الخيم". تحرك المختار على مضض واتجه شرقاً إلى المركز. ولو لم يتحرك لوضعت اللوم عليه في أنني أصبحت حطّابة حافية القدمين.

عاد بعد ساعة وأخذ الشاحنة إلى المركز. لقد سجل هناك أنه مختار بربرة، وأن كل البلد رحلت وأنهم يحضرون تباعاً إلى رفح. بعد وهلة عاد بالشاحنة محملة خيماً وأعمدة لنصبها، وحصراً لفرشها، وتمراً وزبيباً وطناجر وبيضاً مجففاً وبصلاً ناشفاً وسمك فسيخ وعلب لحمة وحتى ملحاً وعدساً وفولاً ناشفاً.

"فرانك سجلنا وقال لي كل واحد يحضر عندي هنا أسجله وأرسله له ليأخذ مساعدات". أخذنا نبني الخيم لنا ولمن حولنا للذين سيفدون لاحقاً، وأرسل المختار في طلب البربراوية. جاؤوا أفواجاً أفواجا، من غزة ودير البلح وخان يونس، كل منهم يبلغ

الآخر أنّ المختار أعدَّ لهم كمباً في رفح لا يسكنه غير أهالي بربرة، وأن الطعام فيه من كل الأشكال والألوان.

كل من يأتي إلى كمب بربرة يذهب في اليوم التالي إلى فرانك ليسجل عائلته ويستلم المؤن، وقالوا إنه سيوزع علينا كل أسبوعين. فمن عنده نفران صار يسجل أنَّ عائلته أربعة أنفار، ومن عنده أربعة سجل أنهم ستة. أهالي العداوين أخذوا منتصف الكمب، وبقي إلى جوارهم دار أبي ضباع. أما دار يونس فسكنوا بمحاذاة الشارع إلى البحر، ودار عايش قطنوا المنطقة الغربية، تقريباً مثل توزيع الحارات في بربرة. لكن الوضع الأمني كان مضطرباً، وهناك لصوص والخيام مشرعة دوماً، والفوضى تتزايد، ولذلك قرر المختار زرع سياج أسلاك شائكة حول الكمب، وتعيين حارس مسلح يدور طول الليل في معسكر بربرة. أما الذين ظلموا حتى الآن هم الرفحية، دار أبي عيدة، أصحاب الأرض التي نزلنا فيها، والأرض الأخرى التي احتلت من آخرين مثلنا، ولم يعد بوسع أصحابها الآن حتى دخولها. أملهم الوحيد الآن أن نعود إلى بربرة قريباً، أو ربنا يرزقهم بما يعوض عليهم ثمن هذه الأرض.

انتهى حصارنا في رفح أواسط الشهر، ولكن الذين في الفالوجة لم يبق لديهم ما يأكلون، ولم يستسلموا. تحت المطر في الخيام كنا نستمع إلى الأخبار. لقد ذهب المصريون واليهود إلى جزيرة رودوس ليتحادثوا حول وقف إطلاق النار، أو عقد هدنة جديدة. راديو مصر من جهته، أكد أن المحادثات ليست للاعتراف بإسرائيل أو السلام معها، ولكن لإعلان الهدنة. ويبدو أن الجماعة يريدون وقف أي تقدم إسرائيلي على بلدهم. فكل ليلة نسمع أخباراً وإشاعات،

إسرائيل تريد إخراج مصر من قطاع غزة، ومصر تصر على فك الحصار عن الفالوجة قبل بداية المفاوضات. راديو مصر يقول إن بئر السبع تحت السيطرة المصرية، وراديو لندن يقول إن مصر تطالب بانسحاب إسرائيل من السبع والعوجا وهما ضمن حدود الدولة العربية في التقسيم. ستة أسابيع من الأخذ والرد ثم وقَّعوا على بقاء الحال كما هي، قطاع غزة مع مصر وانسحاب إسرائيلي من شرق مقبرة رفح ومن بيت حانون، وفك الحصار عن الفالوجة وخروج الجيش المصري منها، مع ضمان بقاء أهل الفالوجة في بلدهم.

وبين نهاية حصارهم لرفح وبداية محادثات رودس حمل اللواء المصري، حسين سري، حكومة عموم فلسطين والمفتي في قافلة عسكرية إلى القاهرة. كان المفتي قد رفض السفر قبل ذلك، ثم أصدر قائد الجيش حيدر باشا قراراً إلى قائد منطقة غزة بجلب المفتي وحكومة فلسطين. بعد نهاية المفاوضات في رودس وتوقيع الهدنة لم يعد إلى غزة أي واحد ممن حملوا إلى القاهرة، ويقال إنهم قيد الاعتقال. عموماً لم نرهم لاحقاً ولم نسمع عن أي زيارة لهم إلى المخيمات، ولم ينشر عنهم أي بيان أو نداء أو استغاثة، سواء الذين نقلوا إلى القاهرة، أو بقية أعضاء حكومة عموم فلسطين في الدول العربية الأخرى، أو أعضاء الهيئة العربية العليا التي كانت تنسق بين العرب من أجل فلسطين، حيث اختفوا جميعاً.

في المكان نفسه بدأت مفاوضات إسرائيلية أردنية، وقبل أن تصل إلى نتيجة وقع اللبنانيون اتفاق هدنة مع إسرائيل من دون السفر إلى رودوس، وذلك بعد شهر من توقيع مصر. المختار قال إن اللبنانيين كانوا فقط ينتظرون من سيعلق الجرس ليكونوا ثاني من

يوقع. وأثناء التفاوض مع الأردن احتل اليهود بقية النقب من بئر السبع حتى أم الرشراش على البحر الأحمر، وذلك من دون قتال لأن الجيش الأردني كان في القدس ورام الله وبيت لحم وأريحا، ولم يتوقع مثل هذا الانتشار الإسرائيلي أثناء المفاوضات. رسموا خطوط هدنة جديدة في المثلث والقدس وأطلق الأردن سراح 700 أسير إسرائيلي. بعد توقيع الأردن، اعترفت الأمم المتحدة بإسرائيل كعضو فيها، ولم يعترفوا بنا كدولة لأن بقية فلسطين صارت مع مصر ومع الأردن كما ورد في الاتفاقيات، وكما أقرت مؤتمرات فلسطين الثلاثة في أريحا ورام الله. ولم تمرّ أربعة أشهر أخرى حتى وقَّعت سوريا على اتفاقيتها للهدنة مع إسرائيل. هكذا ستحمي الدول العربية خطوط الهدنة، وإذا أرادوا إعلان حرب على إسرائيل فسيكون عليهم الاتفاق بعد استعداد طويل. يبدو أن بقاءنا بعيداً عن بربرة سيطول ويطول، ولا أدري لماذا يفعل الله بنا ما فعل وسيفعل؟

بعد ثلاثة أشهر من ولادتي هيجر في الخيمة، انسحب أفراد الجيش العراقي من نابلس وجنين وطولكرم في سبتمبر، وعادوا إلى العراق، بعد أن سلموا المواقع إلى الجيش الأردني، ولم يكن مطلوباً منهم عقد اتفاقية هدنة. وكل يوم تزداد هيجر جمالاً، كونها بيضاء اللون بعينين زرقاوين، مثل أمي حليمة؛ فهي تبتسم لكل من يحملها، وصار المختار يقضي معها بعض الوقت عندما يكون ساكناً في خيمتي أسبوعاً بعد الآخر. أعتقد أنه لا يهتم الآن إذا كانت ولداً أم بنتاً، فلم يعد لدينا ما يحتاج إلى الفلاحة. ضرتي أم مطر من جهتها أنجبت أيضاً ولداً ثالثاً أسمته خضر، وبديلتي خديجة أنجبت يوسف، في الخيام مثلنا.

وبينما كانت مفاوضات الهدنة دائرة طوال العام، كنا نتسلم كل أسبوعين مخصصات غذائية، وتوافرت بعض الأعمال للناس في بناء عنابر ضخمة لتخزين المعونات، واشتغل آخرون في بناء مدارس، وعيادات طبية وحمامات، ومراحيض عامة في أنحاء رفح التي توزعت فيها عشرات المعسكرات للاجئين، بينما بقي المواطنون في رفح الغربية بعيداً عن هذا الانفجار السكاني. أقيمت أيضاً معامل طوب وقرميد لبناء بيوت لنا بدل الخيام، وتم تمديد مواسير مياه إلى معسكر بربرة ومعسكر الفالوجة شمالنا، لقد ضايق اليهود أهالي الفالوجة بعد انسحاب المصريين وطردوهم، فجاءوا إلى رفح. أما النساء والفتيات فكنَّ يذهبن إلى خزانات المياه ليملأن الجرار والعودة بها إلى الخيم، كما كنا نفعل في بربرة. لكن لا تشابه ولا شبه، بين ما كنا فيه وما صرنا عليه.

قَدر علينا الخلاق
جينا ودشرنا الأرزاق
شربنا علقم ما بنداق
في الخان بنشحد طحين.

لم تعترف الأمم المتحدة بنا كدولة، ولكنها اعترفت بنا كمشكلة بانتظار الحل. هكذا أصدرت الأمم المتحدة قراراً بتشكيل الأونروا لإغاثة وتشغيل اللاجئين، والإشراف على المخيمات في غزة والأردن وسوريا ولبنان، حيث هرب الناس في كل اتجاه ما عدا الأراضي المصرية. وبعد أسبوع أصدر بن غوريون قراراً بأن القدس ستكون عاصمة لإسرائيل بداية من أول يوم للعام 1950، وهذا تحدٍ للأمم المتحدة التي تقول بأن القدس مدينة دولية. المهم أن وكالة الدعم لنا طوال العام الماضي صارت وكالة دولية توفِّر لنا كل المستلزمات. انتشرت المدارس والمصحات والأطباء، ووزعوا

علينا بطاقات مؤن تحمل اسم المستفيد وعدد أفراد عائلته، نحملها عندما نذهب لاستلام المؤن، أو لزيارة طبيب. أقامت الوكالة لنا بيوتاً من البلوكات الإسمنتية بأسقف من القرميد المحمول على خشب، وصار عندي بيت مؤلف من ثلاث غرف ومطبخ وحمام، وله باب يؤدي إلى بيت أم مطر الأكثر اتساعاً والذي يحتوي على غرفة للجلوس وموقف سيارات وحديقة واسعة. كان بيتي في البداية شبيهاً به، ولكن المختار اقتطع منه جزءاً وأعطاه إلى أحمد نمر أبي ضباع، ليتوسع به عن بقية إخوته الذين قرروا الزواج، ولم تعد حصتهم تكفي لثلاث عائلات، وبدلاً من أن يبحث لهم عن مكان آخر في طرف المعسكر أعطاهم المختار من داري ليحافظ عليهم كجيران هنا كما كانوا جيراناً في بربرة.

كل الناس كانوا يذهبون إلى أعمالهم والأولاد والبنات يذهبون إلى المدارس في الصباح وبعد الظهر، وصار أهالي رفح يبيعون منتجاتهم الزراعية في الأسواق، ومن لا يملك نقوداً من اللاجئين صار يبيع ما يزيد عن حاجته من المؤن. صار البيع والشراء أمام مركز التموين مباشرة. ملابس مستعملة يوزعونها علينا فيبيع الناس ما لا يلائمهم منها، من علب لحمة وسمك وطحين وسمنة وفسيخ وزبيب وتمر وكل شيء صار يباع للتجار أمام المركز. المختار قال إن هذه الحال مزعجة ومخزية، وإن مسؤولي الوكاله أخبروه أنها ستتغيّر. طالبوا بمعلومات جديدة موثقة عن أعداد العائلات، وصاروا يراقبون من يبيع، ثم خففوا الكميات على الجميع وجعلوا التوزيع كل أسبوع.

المختار استلم شغلاً مع الأونروا، صار يقود باصاً لنقل المدرسين والمدرسات وموظفي الوكالة بين مدن ومخيمات قطاع غزة، وسلفي أبو فتحي اشتغل في المجال نفسه. يسرح من الفجر

على الشغل، ويعود بعد الظهر، يتناول الغداء ويذهب إلى مقهى إدريس في الشارع المؤدي إلى البحر. هناك يلعب ورق الكوتشينة مع مخاتير ورجال من أصدقاء أيام بربرة، ومع شباب كبروا في بداية الهجرة. وقبل المغرب تذهب هيجر إلى المقهى وتمسك بيد والدها فيترك الورق ويعود معها إلى البيت، ليجد أننا أشعلنا الموقد وجهزنا أباريق القهوة السادة لاستقبال من يحضر من العائلة وأهالي بربرة. وبعد عامين ونصف على ميلادها أخذ ربنا أجمل وأذكى بنت يمكن أن تخلق، أصابتها الحصبة ولم يتمكن أطباء الأونروا من الحفاظ على حياتها.

***

عودة الإرهاب

"قلت لك، إذا كل واحد أكلها حلوة مثلك فلن يكون لدينا جبنة".

"لكني أحبها قبل التمليح، أعطني حصتي الآن". لم أكن لأتراجع أمام المقاومة الضعيفة لأمي وخصوصاً ضعفها إذا تعلق الأمر بإطعام ابنها الأول. ولم أكن لأطلب منها معاملة خاصة لو كان معنا شخص آخر. جلست بالقرب منها في العريشة وهي تحول لبن عنزتنا إلى جبنة بيضاء يعشقها أبي بعد التمليح ويتناولها مع شرحات بطيخ وبعض الخبز في المساء.

"لو أنك ولدت قبل الهجرة، أيام البلد والأرض والبقر والخيل، كنت شبعت جبنة حلوة". ابتسمت وهي تناولني قطعة جبنة أخذتها من الحصيرة. "إنت تأخرت في الحضور".

اقتربت منا فجأة طائرة أخذت تكبر بسرعة، وغطت الشمس حتى كادت تلامس قمة شجرة الكينا في وسط المنزل، وقبل أن أطرح سؤالاً أو أسمع تفسيراً من الوالدة فرقع صوت مدوٍ، وفقدت السيطرة على نفسي. قفزت، وطارت الجبنة من يدي، انقلبت أمي وكأنَّ ريحاً دفعتها، وأفلتت الجبنة من الحصيرة التي كانت تضغط الماء بواسطتها، ولم أسمع ما كانت تتمتم. قفزت العنزة إلى الخلف وقطعت الحبل الذي يشدها إلى جذع الشجرة وركضت في المنزل بجنون. كلبنا، الجراح، انسخط في الأرض على بطنه

وتمددت سيقانه في الجهات الأربع ولم يصدر عنه أي صوت. عندما عاد إليَّ سمعي كان صراخ الجيران يعلو من كل جهة. سمعت أمي تسمي عليَّ باسم الله وتؤكد أنها لم تشاهد مثل هذه الطائرة من قبل، وأنها تختلف عن الطائرة التي أغارت عليهم في بربرة قبل ثماني سنوات. عاد أبي من المقهى إلى البيت محاولاً تشغيل الراديو على البطارية، محرّكاً الإبرة بحثاً عن محطة أخبار.

"قامت الحرب، يا فاطمة، يا أميرة، وين الأولاد؟ قامت الحرب". ربما سمع أبي خبر الحرب من مذياع المقهى، فقد ألقى بهذه المعلومة والتحذير لنسائه قبل أن يتكلم الراديو. "خفت من الطيارة؟" سألني ولم يكن بحاجة إلى جواب. "متخافش". قال وهو يستمع إلى الراديو ويبحث في الصناديق عن أوراق وصور ويمزقها، بينما يحاول بث الطمأنينة بالادّعاء أنها أوراق قديمة لا لزوم لها. لكني أعرف إحدى الصور، كانت له في بربرة وهو يضع المسدس على جنبه ومشط الرصاص فوق كتفه وكاميرا ومنظاراً على رقبته. وكانت في الصندوق صور لمصفحات إسرائيلية متفحمة. في اليومين التاليين رفضت الخروج من تحت السرير إلّا لقضاء الحاجة. وطاوعتني أمي بإحضار الطعام إلى مخبأي هذا، ورفضت الانصياع لطلبات أبي بالخروج ولم اهتم باتهامات الجُبن التي وجهت إليَّ.

"إطلع، علينا الهروب من هنا، الطيارة تقول أخرجوا حتى لا تموتوا تحت الأنقاض". كان صوتها مرتعباً، واستجبت لأمي. تسللت من باب المنزل لأنظر في الشارع، فإذا بطائرة مثل جرادة حديدية ضخمة تقترب ببطء وتقول: أنا أكلمكم من الطائرة. اهربوا بأرواحكم فوراً. جيش الدفاع سيقصف البيوت. عندما أصبحت على مرمى حجر عدت راكضاً تحت السرير، وعندما استدارت واتجهت

غرباً خرجت لأراقبها من الخلف ثم استدارت جنوباً باتجاه مخيم يبنا.

حملت أمي أخي رؤوف على ذراعها وصرَّة كبيرة من الأشياء على رأسها، وحمل أشقائي عبدالله وعبد الرحمن وخضر ما أصبح جاهزاً للنقل، وأمسكت أختي عائشة بثوب أمي وغادروا المنزل يتبعهم الجراح.

"تعال أمشي" قالت أمي.

"مش جاي معكم. سآتي مع خالتي".

"اتركيه سيلحقنا مع فاطمة". قال أبي وأكد لها أنه سيوصلهم ويعود إلينا لحمل بعض الأشياء.

أشعلت خالتي النار في الطابون وعجنت وخبزت كل الطحين الذي عثرت عليه في البيت. نفذت ما قالت لي بالبحث عما يؤكل من جبنة وزيتون وملح وزعتر. بدأ القلق يهزني من طول بال خالتي وعدم تلمس أي ملامح للخوف في وجهها، بل كانت تنظر إليَّ وتضحك مطالبة أن لا أخاف مثل الآخرين. بعد ساعات، وقد اقترب العصر، حملت ما حصدنا على رأسها بعد أن لفّته بعدة بطانيات، وأمسكت بيدي وغادرنا بعد أن أغلقنا كل الغرف وأبواب المنزلين.

"أين سنذهب يا خالتي؟".

"إلى البحر. كل الناس ذهبوا إلى البحر".

"سنصل قبل الليل!".

"أنا خليتك معي عشان تحميني وتساعدني. نصل في النهار طبعاً. خمسة كيلومترات نقطعها في ساعة".

وصلنا نصف الطريق عند دوار رفح الغربية من دون

استراحات، اللهم أن خالتي كانت أحياناً تحتاج إلى يدها لتثبيت الحمولة على رأسها، فكنت أمسك بثوبها. ينتابني الخوف أن نفترق عن بعضنا. فالناس قد سبقونا والجميع يهرول غرباً. مقابل الجميزة تجاوزتنا شاحنة مليئة بالبشر، على جناحها الأيمن تعلق خالي حسن، وفي الكابينة كانت زوجته مع نساء أخريات. صرخ علينا إذا أردنا أن يأخذنا معه، فأشارت إليه خالتي أن يواصلوا طريقهم، ولم تكن الشاحنة على أية حال قد تباطأت.

"ياله يا خالتي نسرع، كل الناس فاتونا".

"خليهم يفوتوا، على إيش مستعجلين. الشط كبير ويسع الجميع. لو نبقى في الدار وتتهدم على رؤوسنا أحسن من هالبهدلة". إنها تتحدث بهدوء من يعرف بالغيب ومطمئن على المصير، وتشدني إلى الخلف كلما حاولت جرها إلى الأمام.

"آخ، لو كانت معنا فرس والدك الآن، لحملنا عليها وحملتنا".

نظرت إلى وجه خالتي فإذا بالدموع تنهمر فوق خديها. سحبت يدها مني ومسحت وجهها. تذكرت قصة الفرس التي سمعتها من والدتي، وسألت خالتي إذا كانت حقيقية. قالت من دون أن يتهدج صوتها إن الفرس بكت بالفعل يوم الهجرة، قبل ثمان سنوات، وإنها لم ترَ شيئاً كهذا من قبل.

"كانت خايفة من اليهود يذبحوها؟".

"الله أعلم يا خالته، خايفة من اليهود، أو نتركها لوحدها، أو خايفة ناخذها معنا بعيد عن بربرة، نبعدها عن العز إلى القشل. بكت ولكنها لم تتكلم، وما كان علينا نخليها تبكي". ثم ساد الصمت بيننا.

قرب دكانة أبي عيدة وعلى مرأى من البحر لحق بنا قريبنا

وجارنا عوض الله وأخته مريم وزوجته. اتجهنا يساراً واحتللنا موقعاً في بطن تل الرمال المشرف على البحر من الغرب ومزارع المواصي من الشرق. عاد عوض الله بعد قليل ببعض البصل الأخضر، وساعدته في حفر جورة أسفل التلة لجمع مياه حلوة نسبياً، وأحضرت مريم حطباً وكوعنا خلف الرمال نأكل ونشرب محتمين من برد تشرين ومن رياح البحر. الطريق من دوار رفح الغربية حتى دكان أبي عيدة توحي بأن الإنسان يسير في بحر بلا ماء بين الكثبان الرملية الصفراء الجرداء. وعلى الشاطئ مياه كثيرة، ولكن يتوجب أن نحفر في الأرض للعثور على ما يمكن شربه من مياه نصف مالحة.

في صباح اليوم التالي سمعنا صوت إطلاق رصاص، نظرت باتجاه دوار البحر فإذا بسيارة جيب مسرعة تجتاز الدوار وتواصل المسير عبر الرمال ثم عبر الأمواج، خلفها نصف مجنزرة إسرائيلية توقفت عند الشاطئ وواصلت إطلاق النار على سائق الجيب الذي بقي في كرسيه لحظات ثم جرفته الأمواج خارج مركبته. ترحمت خالتي على الرجل، وبعد أن عاد الهدوء طلبت من عوض الله أن يتجول ويسأل عن المختار. عاد في موعد الغداء حاملاً بعض حبات الجوافة وأكد أن جماعتنا ليسوا على البحر. قضينا أسبوعاً على هذا المنوال، وتحول الوضع إلى ما يشبه رحلة جماعية، وانفرجت الأسارير قليلاً مع شيوع خبر أن الأمم المتحدة قررت وقف القتال. وفهمت من عوض الله وهو يحدث خالتي أن الفرنسيين والإنجليز يستعدون للانسحاب من قناة السويس. "إحنا بدنا اليهود ينصرفوا كمان". كان تعليق خالتي التي قررت أننا تبهدلنا كفاية وأمرت بالعودة إلى منازلنا في المخيم.

في منتصف الطريق شاهدت عبد الرحمن يقفز من فوق الجميزة

الضخمة على الأرض ويركض باتجاهنا. أخبر أمه أن أبي وضعهم في منزل أصدقاء له قرب الجميزة وهو يذهب كل يوم إلى المخيم ويعود في المساء. "طيب إحنا مروحين، لما يجي أبوك قله إحنا في الدار". في ذلك المساء التقينا جميعاً في البيت وتبادلنا الأخبار، واكتشفت أن إقامتهم كانت معززة بالطعام والشراب، فبالغت، وخالتي ساكتة، إننا كنا نشوي الطيور والسمك كل ليلة.

لم تهدأ أوضاع البيت على مدار شهور الاحتلال الستة. صحوت ذات ليلة على حركة في البيت والأهل وبعض رجال الجيران ينقلون مياهاً ساخنة إلى خارج المنزل. "شو الموضوع؟" سألت أبي حين مر من أمام فراشي، فقال إن شاحنتنا ولدت سيارة صغيرة، وطلب مني أن أنام، فنمت. لم أعرف لاحقاً ما حصل تلك الليلة، لكني عرفت أن اليهود كانوا يبحثون عن فدائيين كانوا يعملون بإمرة مصطفى حافظ، وهو ضابط مصري. كان على الفدائي إذا قتل يهودياً أن يحضر إثباتاً، أذناً مقطوعة، أو يداً، أو أي عضو. كان الفدائيون من الشبان الذي طردوا من قراهم قبل سنوات قليلة، ويعرفون كل الطرق والمخابئ والجغرافيا التي لم يكن اليهود قد تعرفوا إليها. أحد الفدائيين الذين لم يحالفهم الحظ في العودة كان من بربرة، والملقب بأبي العدس، وهو من الذين سكنوا مخيم الشاطئ في غزة بعد الهجرة.

ذات يوم اشتد نباح الجراح، ودخل أخي خضر البيت ركضاً معلناً أن دبابة يهودية في طريقها إلينا. قفز الجراح على الدبابة، فأطلقوا عليه الرصاص وسقط أمامها فداسوا بالجنزير على ساقيه الخلفيتين. ولولت أمي وخالتي وبعض النّسوة عليهم وقمن بسحب الجراح إلى البيت بينما الجنود يطلقون النار فوق رؤوسهن. أخذوا والدي معهم بعد أن فتشوا المنزلين ودار عمي أيضاً. قال أبي بعد

أن عاد من التحقيق، إنهم يبحثون عن شقيقي عبدالله وابن عمي فتحي وخاله كمال. كان عمي قد هرَّبهم قبل ذلك في سيارة الإسعاف التي كان يقودها، وأوصلهم إلى أطراف سيناء حتى يهربوا إلى مصر.

تحسّرت على الجراح كثيراً، فلا هو مات ولا هو قادر على الركض. أصبح كسيحاً يسحب نفسه بالاعتماد على ساقيه الأماميتين فقط ويجر بقية جسده المحطم من جنازير الدبابة. بعد مداولات عديدة قال أبي "أحسن شيء نعمل فيه زي خيل الإنجليز". بعد شهور من غياب الجراح عرفت أن الإنجليز يطلقون النار على خيولهم الجريحة. لم أزعل من قرار أبي، وبقيت أتذكر الجراح طويلاً وكأنه حصان، وكان شقيقي عبدالله بالفعل يضعني على ظهر الجراح فيركض بي وكأنه حصان.

ذات صباح صحونا من النوم فإذا باليهود قد غادروا قطاع غزة. في الشوارع وجدنا سيارات جيب وشاحنات بيضاء تحمل جنوداً بقبعات وعيون زرقاء. لاحقاً حضر إلى جانب الكنديين جنود من البرازيل سحنهم أشبه بالعرب، ثم جاء هنود يعتمرون عمامات زرقاء ولهم لحى طويلة سوداء. هكذا تعرفنا على قوات الطوارئ التي احتلت القطاع وسيناء وأقاموا معسكرات لهم شغّلوا فيها الكثير من الناس، ومنهم خالي أبو أحمد الذي لديه خبرة في العمل مع الإنجليز في بربرة، أيام الحرب العالمية الثانية.

استتبّ الأمن وخفَّت كثيراً عمليات الفدائيين في فلسطين لأن قوات الطوارئ أقامت سياجاً من الأسلاك حول القطاع وأخذوا يراقبون الحدود. على الأرجح أن الناس فقدوا أيضاً بعض الأمل الذي كان يملأ قلوبهم بالعودة إلى ديارهم التي طردوا منها قبل ثماني سنوات، فبدل أن نستعيد بلادنا المفقودة، احتل عدونا بقية

بلادنا، ومعها احتلّ جزءاً كبيراً من أرض أكبر بلد عربي، وعانى الكثيرون من الناس أثناء شهور الاحتلال الستة. وبالطبع لم تعد مصر تدعم رسمياً أعمال الفدائيين من قطاع غزة، كما فعلت بين سنوات الثورة 1952 والعدوان والاحتلال الثلاثي عام 1956.

بعد وهلة صارت القوات الدولية جزءاً من الحياة اليومية، واكتشف الصغار الذين كانوا يركضون خلف جيبات الجنود أن البيرة التي يلقون بها إليهم، ليست بيرة بالفعل، وإنما يبولون في العلب بعد احتساء البيرة ويلقون لمن يركض خلفهم بهذا الإنتاج. لم نشاهد أي دولي يفعلها في الجيب، ولكن هذا ما ساد بين الصغار والشباب. الاكتشاف الآخر عاد به بعض الشبان الذين كانوا يبحثون عن غنائم وسط أكوام زبالة الدوليين، الرابش. مجلات أجنبية خليعة أكثر من أي خلاعة، ونساؤها من أشكال لم نرها في الواقع أو في السينما أو في الخيال. كان الجنود من دون نساء، ولكن كان بوسعهم الذهاب عبر حدود بيت حانون إلى إسرائيل في أي وقت أرادوا.

لقد أنحزنا بسرعة إلى جنود البرازيل والهند، كنّا نحترمهم ونحييهم بينما نشتم الكنديين ونرجمهم، وفي مباريات كرة القدم التي كانوا يقيمونها في المزارع شرقي رفح، كنا نشجع الهنود، بل اشتركنا ذات مرة إلى جانبهم في ضرب الكنديين. كان السبب اختلافاً على ضربة جزاء أنتجت هدفاً، ورفض الهنود الهزيمة وفكّوا الأحزمة وانهالوا على الفريق الآخر، ونحن ندعمهم تهليلاً وركلاً، حتى حضرت النجدة من معسكرهم القريب فطاردونا إلى وسط المدينة.

وبإلحاح من أمي، المتلهفة على تعليمي، سجلني أبي في مدرسة خاصة، أو بالأحرى روضة تمهيدية قبل بداية الدراسة

الابتدائية التي كانت ترفض قبول من هم دون الست سنوات. في الروضة شعرت بأن معظم المشاركين أكبر مني سناً، ما عدا ابن عمي، بشير. جلسنا على الكراسي وأمامنا طاولات، وعلى الجدار سبورة. أصبحنا نردد خلف المعلمة ما هو وارد في الكتاب: رأس رؤوس، رجل أرجل، وهكذا نحفظ المفرد والجمع حسب ترتيب الأبجدية. بعد أيام أصبحنا نغني في الطريق إلى البيت راس روس، حمير تيوس، نط الفار على الفقوس. ثم اكتشفت لماذا أطلق بعضهم على روضتنا اسم مدرسة أم كلسون. رأيت بعضهم يرمي بعض الأشياء عمداً عندما تمر المعلمة إلى جانبه، فينحني لاستعادة ما فقد ويلقي نظرة سريعة تحت فستان المعلمة. اكتشفوا أنها تلبس كيلوت مودرن، لا يشبه ملابس أمهاتهم، تحت الفستان القصير، إلى الركبة، فدشنوا المدرسة بهذه الصفة. لم يكن يخفى عليها ما يفعلون، أحياناً تتجاهلهم، وأحياناً أخرى ينال المتطفّل ضربة مسطرة على مؤخرته.

هل كان الذكور أكثر جرأة من الإناث؟ بالتأكيد لا. في السنة التالية على الهجرة من فلسطين أقيمت مدارس للتعليم بإشراف وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، الأونروا. مدارس للبنات تدرسهن معلمات، ومدارس للبنين على الشاكلة نفسها. تعليم إلزامي من سن السادسة حتى الخامسة عشرة، أي في المرحلتين الابتدائية والإعدادية. أما التعليم الثانوي فكان بإشراف الإدارة المصرية وللجنسين أيضاً، ولكنه غير إلزامي. هكذا وجد منذ بداية الهجرة طلب على الإناث المتعلمات ليصبحن معلمات للصغيرات، وارتفعت قيمتهن بامتلاكهن لمصادر الدخل فأصبحن متحررات في القول والفعل ويلبسن فساتين حتى الركبة وقمصاناً بنصف كم، كما أن بنات المدارس كن يلبسن مراويل إلزامية موحَّدة الشكل

والقماش، وكلها حتى الركبة. لم يكن هناك أي تكتّم، ولم يعد الأمر لاحقاً يثير أي إنسان، خصوصاً وأن سكان مخيمات رفح وقطاع غزة جاؤوا من مناطق ريفية حيث الإناث يشاركن فيها الذكور في كل الأعمال.

تعلمت أن أسير في وسط الشارع في مخيمنا، وخصوصاً وقت القيلولة، وذلك بعد أن نجحت فتيات باختطافي داخل بيوتهن، وكن يكبرنني كثيراً في السن. أصبحت أسير في الوسط وبحذر للنجاة من التقريص والبوس والعض الذي ينهال عليَّ. يبدو أنهن تحدثن في الموضوع، ولأني لم أفاتح أحداً بالأمر شاكياً منهن، أصبحت هذه هواية لبعضهن. لم يكن هناك أي جدوى من شكوى كهذه، بل إن أبي كان يضحك عندما يزجني في مواقف مشابهة. أثناء عمله كسائق على باص لوكالة الأونروا ينقل المعلمين والمعلمات بين مدارس القطاع، تعوَّد أن يأخذني معه. وفور دخول المعلمات الباص يبدأن الهجوم عليّ تقبيلاً وقرصاً، لم يكن أبي يصدق أنهن يقرصنني لأنه يشاهد التقبيل فقط ولا يعرف ماذا تفعل أصابعهن. لم أرغب في رفض الذهاب معه لأنني كنت مغرماً بفطور فتة الحمص لدى مطعم يزوره أبي في غزة، ولا أمانع في أن أتغدى الكباب والمشاوي واللبن، وأيضاً كنت أحب التنقل معه لقضاء الأعمال الأخرى بين رحلتَي ذهاب وإياب المدرسين والمدرسات والأطباء. هكذا قرّرت ذات يوم أن أحمل موساً كباساً لأهددهن وأردعهن. وقبل أن أتمكن من استخدامه، وسط ضحكات من الجميع، يكون قد تم تقبيلي، فيصبح خدايَ أحمرين من العض، وكذلك جانبيَّ من القرص.

تخلصت من ذلك الاضطهاد النسوي عندما دخلت إلى المدرسة الابتدائية للتعلم على يد الشيخ يونس والأستاذ منذور وغيرهما، فلم يعد بوسعي مرافقة أبي أثناء مواعيد الدراسة، خاصة وأنّ المعلمات

لا يتنقّلن بالباص أثناء الإجازات الدراسية حيث كنت أرافق أبي، لكن بعض بنات مخيم بربرة واصلن المحاولات للإمساك بي فترة أخرى من الزمن.

***

يقع دكان خالي رمضان على الطرف الشمالي الشرقي من مخيم بربرة، وفي مقابله شرقاً يوجد مخيم الفالوجة، ودار الشيخ يونس. كان شيخاً أكثر مما هو مدرس، يلبس الجلابية ويهذب لحيته ويلبس طاقية كل يوم جمعة. ذات خميس رصدت أمي عند دكان خالي، فطلبت منها أشياء رفضتها، غضبت منها ولعنت الدّين، وفشلت هي في الإمساك بي لأخذ نصيبي على هذا الفلتان اللفظي. انتهت القصة بعد دقائق، لكن توابعها فاجأتني يوم السبت عندما دخلت الفصل وفتحت كتاب الدين في انتظار الشيخ يونس الذي دخل وأقفل باب الفصل على غير عادة.

"إنت، تعال اطلع عند اللوح". طلب الشيخ مني وهو يشير إليَّ بإصبعه ويقف قرب الباب. لم يخطر شيء ببالي سوى الرعب أن يطلب مني إلقاء آيات لا أحفظها عن ظهر قلب.

"شايفيين هذا الولد يا أولاد؟" هزوا رؤوسهم لأنهم يعرفونني بالطبع، فنحن سوياً في النصف الثاني من العام الدراسي الأول.

"هذا سبّ دين أمه في الشارع ورمى عليها حجارة". يا للهول، فإذا كان قد رآني يوم الخميس، فبالكاد كنت تحكمت في ضبط بولي داخل سروالي، وارتجفت ركبتاي لثوانٍ.

"شو نعمل في من يسبّ دين أمه في الشارع يا أولاد؟" جاءه جواب من عريف الفصل بكلمة واحدة، فلقة.

"لكن يا أستاذ كلنا بنسب دين أمنا وبعدين بنتوب". تشجعت في هذا الدفاع وأنا أعرف النتيجة لأن العريف تحرك من دون أوامر وتقدم إلى اللوح، ثم أمر الشيخ تلميذاً آخر من الأشداء بالمساعدة. بطحوني، ووضع الشيخ الفلقة في قدمي، ولف التلميذان عصاتها حتى قرصني حبلها، ورفعوا قدمي إلى مستوى يناسب الشيخ للضرب المريح.

قضيت بقية النهار جالساً على ديسك الدراسة، وعدت إلى البيت متكئاً على الجدران ومرتكزاً على كعبيّ. كانت معظم الضربات قد تركزت على المنطقة الوسطى من القدمين، فتورمت واحمرّت وازرقّت. وجدت أمي تنتظر على زاوية البيت إذ من غير عادتي التأخر على الغداء.

"شو صار لك، مالك بتعرج؟".

"الشيخ يونس ضربني". لم أكن بحاجة لأي تفاصيل أخرى. انطلقت صاعدة في الشارع، ولم تتوقف عند دكان أخيها، ولكنه شاهدها وتبعها. تابعت الموقف وأنا أسير ببطء خلفها. عندما وصلت كانت قد باشرت في الحديث مع الشيخ بينما خالي يحاول التهدئة.

"إنت مجنون أم ماذا؟ كيف تورم رجلين الولد بضرب هبل؟" حاول أن يرد عليها ولكنها واصلت حديث الواثق من نفسه "إذا حضر المختار وشاف ابنه على هذه الحال، شو تتصور حيصير معك؟ سيعطيك مكافأة؟".

"الولد سب الدين في الشارع، وهذا يحتاج إلى تربية..." . قال بصوت من استدرك جريمته ويسعى للاحتماء بالله والدين، ولكن أمي لم تعطه فرصة ليكمل.

"إذا ما سب دينك أنت، وما سب الدين في الفصل

والمدرسة، شو شغلك فيه؟" أمسكتني من كتفي وعاودت تخاطبة: "إذا بتحلف يمين الآن أن لا تمد يدك عليه طول عمرك فسوف أعتبر هذه المرة سماح، وإذا لم تحلف الآن أمامي سوف أرسل لك الآن من يعطيك فلقة مماثلة، شو رأيك؟". تدخل خالي وأكَّد لها أنه سيأخذ منه الوعد الآن بعدم التعرض لي، وأومأ الشيخ بأنه سيفعل، فغادرت أمي وقد حملتني على خاصرتها. "شايف سب الدين شو بيعمل؟".

"شايف وحاسس، ولكنه سيرى كيف سأكسر دارهم بالحجارة؟" قلت لها بروح الانتقام والتشجع مما سمعت. أقنعتني بالسكوت لأن الأمر قد يتطور ويعرف أبي بالفلقة وسببها فيضربني من جديد. وتذكرت توصية أبي لمدرس أخي خضر، "إنت اكسر وأنا بجبر". وهذه رخصة مفتوحة للضرب طلباً للعلم الذي أصبح هدفاً منشوداً يعوض الناس عما حل بهم من نقم بعد النعم.

***

مصارعة العمّات

غالبية المدرسين أثناء المرحلة الابتدائية، في بداية الستينيات، كانوا لطفاء جداً ويتحلّون بصبر ووعي فيما يتعلّق بمهنتهم، والكثيرون منهم كانوا من خريجي معاهد تعليم، أو فازوا بدورات تأهيل تنظمها وكالة الاونروا. ذات يوم أعطانا الأستاذ منذور درساً حول تركيب الكلمات ونظم الشعر وتأليف الكتب، وبالتالي نشأة المخترع واشتهاره. كانت الساعة التي سبقت الاستراحة، فخرجت في إثره طالباً المزيد من الإيضاح.

"أرغب أن أكون مؤلفاً، فما الذي يتوجب عمله." سألت الأستاذ منذور وهو في طريقة إلى غرفة المدرسين حيث يدخنون السجائر.

"الطريق أمامك طويل، وعليك أن تبدأ بالقراءة وكتابة مواضيع وتحسين الخط والإملاء..."

"ولكن أريد التأليف الآن." قلت له وكنا قد اقتربنا من حاووز الماء في وسط ساحة المدرسة.

"ماذا تريد أن تؤلف الآن، قصة أم شعراً؟".

"أريد تأليف كلمات". صمت الأستاذ وأخذ يستمع إلى شرحي وأسئلتي فيما إذا كان ترتيب أحرف وربطها مع بعضها بعضاً يعني اختراع كلمة جديدة. أفهمني أن الكلمة تعبّر عن شيء، واجتماع الأحرف كيفما كان لا يخلق كلمة، بل نحتاج إلى اختراع ثم نعطيه

الاسم. اقتنعت بطول الطريق فتركني وواصل المسير إلى غرفة المدرسين بينما عدت إلى الحاووز وشربت الماء من أحد صنابيره المتعدّدة.

طوال الطريق إلى البيت في ذلك اليوم وأنا أفكر في الكبد المقلية مع البصل وزيت الزيتون لأنها كانت من الأطعمة المفضلة لديّ، وقد طلبت من الوالدة في الصباح أن تجهزها لي في ذلك اليوم. سمعت صراخاً في البيت، فدفعت الباب لأرى عمتيَّ، زينب وخديجة، متكومتين فوق أمي، هذه تشدها من شعرها، وتلك تعض كتفها، مع كلام وتهديد ووعيد بالطرد من البيت. رميت الشنطة إلى جانب صنبور الماء وسط الحوش، وفي أقلّ من ثانية كانت مكنسة قطف البلح تنهال عليهما.

"خلصي المكنسة منه بربق جلدي". استنجدت خديجة بزينب فابتعدت هذه عن المعركة لتلاحقني. تشجعت أمي بزوال أسمن الأخوات عنها واستدارت تصد وتضرب بينما أنا أراوغ عمتي بين أعمدة العريشة وأوزِّع أثناء الكرّ والفرّ الضربات إلى الأخرى. كان بوسعهما بالطبع الإمساك بي لو وحّدن الجهود، ولكن ضرب والدتي بالنسبة لهما شيء، والمسّ بي شيء آخر سيعني أن والدي سوف يسخطهما سخطاً. كانتا تعرفان ذلك تماماً. لا أدري متى وصلت شقيقتي عائشة من المدرسة، واشتركت في المعركة، فأصبحنا ثلاثاً ضد اثنتين. الآن تغيرت الصورة، فعائشة مقاتلة شرسة حسب تجربتي معها، خصوصاً إذا أمسكت بيديها بشعر الخصم، أو أطبقت أصابعها على أي مكان في الجسد، أذن، ذراع، خصر، بطن، فحينها لا مجال أمام خصمها سوى الصراخ ورفع الأيدي طلباً للرحمة لأن المقاومة ستعني المزيد من الضغط. انتهزت الوالدة تغير ميزان القوى وأقفلت باب المنزل من الداخل، ودار صراع

داخل الحوش وتعطل وصول أي نجدة من الخارج. وكلما اقتربت واحدة من الباب لتفتحه طلباً للنجاة كان أحدنا يفشل محاولتها، حتى تكومتا على الباب وأفلتتا من بقية الانتقام.

في المساء ساعدت أبي كالعادة في تجهيز النار والقهوة في عريشة بيتنا الثاني، وبعد أن هدأ دخان النار حملنا الكانون الحديدي إلى داخل غرفة الديوان، فالدنيا شتاء والجو بارد لا يسمح بالجلوس في الهواء الطلق كما هي الحال معظم العام. امتلأ الديوان بالزوار اليوميين من عائلات بربرة، أو بالأحرى من أغلبية الختيارية الذين ولدوا في بربرة وهاجروا كباراً، بالإضافة إلى أقلية من الأصغر سناً. كنت الصغير الوحيد الذي يحضر معظم الليالي على أمل الاستماع لقصص حسن الشيخ عن الزير سالم وكليب وعنتر وعبلة. كان يعجبني دوماً سماع قصة الزير سالم وكيف حمل الأسد قرب الماء. "من يأكل حمير العرب عليه حمل القرب".

دخل عمي أبو فتحي مُحمر الوجه، وقبل أن يحتل مجلسه صفعني على وجهي بشدة وبشكل مفاجئ بينما كنت أجلس إلى جانب أبي الذي نظر إلى أخيه ولكنه لم يقل شيئاً. "قوم أطلع برة جاي تنقل كلام إلى دار حمودة". صرخ عمي بينما كنت أستعد للمغادرة وقد أصابني الذهول والخجل. على باب غرفة الديوان واجهتني زوجة أبي بضحكة صامتة عريضة فيها شماتة وتشفٍ.

"هذا شغل عماتك". هكذا استقبلتني أمي فور دخولي غرفتي في بيتنا، كانت تنظر من النافذة المطلة على البيت الآخر، حيث الديوان، وبالتالي راقبت الحدث وربما شاهدت وسمعت أشياء أخرى. "خالك أبو أحمد طلّق عمتك خديجة، وعماتك اشتكين لأبي فتحي عن الضرب الذي أصابهن اليوم". لم أكن قد تنبهت إلى عدم وجود أحد من دار أخوالي في الديوان. خالي أبو أحمد

هو الوحيد الذي كان يشارك في ليالي الديوان، لكن أخوالي حسن ورمضان ومحمود كانوا يفضلون البقاء في البيت مع أولادهم وزوجاتهم. لم أهتم كثيراً لكلام أمي لأنّ فؤادي كان يغلي غيظاً من عمي وعماتي، وغضبت كثيراً جرّاء سكوت أبي عن الصفعة الرنانة على خدي. دخلت السرير من دون أن أخلع ملابسي، وغطيت رأسي باللحاف ونمت على ترانيم الوالدة ضد الحسد ودعواتها إلى الله كي يحميني من الخصوم وشر بني آدم.

صحوت باكراً لأجد الشاي والخبز الساخن والجبنة البيضاء في انتظاري. "أبوك اليوم رايح مع عمك يجيب لي ورقة الطلاق". قالت ذلك، وملامح العبوس والأمل، تبدو على وجهها، فشعرت بأن من واجبي حمايتها.

"ولا يهمك، مش رايح يقدر يطلقك، ولن يقترب منك إنسان". لم تعلق هي على كلامي، وخرجت أنا فوراً إلى الشارع إذ سمعت صوت الستروين، وبالتالي فإنّ أبي كان يستعد للذهاب إلى غزة. اعترضت الطريق أثناء رجوع السيارة من الكاراج، فتوقف المختار ونزل.

"تيجي معانا إلى غزة اليوم؟".

"شو رايح تعمل إنت وأخوك في غزة؟" كان يتحدث بلطف وأنا أجيب بحدة ضارباً عرض الحائط بكل القيم. قبل أن يجيب أطلقت تهديدي الأول: "إذا طلّقت أمي فلا ترجع على الدار، راح أحرق الدور وأكسر كل الدنيا".

"يا ملعون راح اشلَع أذنيك." قال عمي وقد نزل من الستروين راكضاً فإذا بحجر ينطلق مني ويصيب صدره. ركضت قليلاً حتى لا يمسكني، ونهره أبي أن يعود إلى السيارة. استكملت الستروين الرجوع للاستدارة، وقبل أن تنطلق شرقاً أصابتها رشقات حجارة

أخرى، وانسحبت تتهادى ببطء. كان عمي يشتم ويتوعد بماذا سيفعل عندما يعود، وأبي صامت، وأنا أرد إليه التهديد بأكبر منه وبصوت مجلجل.

عدت إلى البيت وقررت البقاء في المنزل، ولم تلح أمي عليَّ في الذهاب إلى المدرسة. مع الضحى قطعت الصمت وسألتني ماذا سأفعل إذا حضرت عمتي خديجة وأولادها اليوم لطردنا من البيت مقابل طرد خالي لها من بيته.

"الشاطر فيهم يقطع العتبة، قلت لك لا تخافي". واصلت الغسيل في صحن أبي عشرين الفخاري. أحاطته بساقيها وفركت الملابس بالصابون ثم فركت القماش بين يديها وهي تضغط على كل جزء منه وكأنه رقبة أحد خصومها. غادرتها لدقيقة إلى غرفة الوالد حيث خزانة الملابس. أخرجت المسدس وأعدت الجراب إلى الخزانة بعد أن جهزته بسبع رصاصات. عدت إلى العريشة وجلست قرب أمي وحرصت على مواجهة باب المنزل في حين وضعت المسدس تحت سروالي. من الأسهل طبعاً لو وضعت حزام المسدس على وسطي كما أفعل بانتظام أمام مرآة الخزانة أثناء تقليد أفلام الكاوبوي، ولكنها سوف تصادر السلاح مني لو شاهدته، ولم أرد إشعارها بأي توتر من جهتي. طوال اليوم لم يفارق المسدس حزام سروالي، ولم يفارق نظري باب المنزل. عادت الستروين، ولم يُعلن عن وصول أي ورقة طلاق، ولم يعتد أي من الخصوم على حرمات البيت، ولحسن الحظ، فقد كنت عازماً على إطلاق النار أولاً ثم الحديث فيما بعد. أكثر ما كان يغيظني في الأفلام أن الممثلين يكثرون من الكلام أثناء اللحظات الحاسمة فتنقلب الظروف ضدهم.

"قوم لأبوك، أنه ينادي عليك". قالت أمي عندما تجاهلت

نداء المختار من المنزل الآخر. "قوم يا ابني عيب، روح شوف شو حيقولك".

"تعرف أنك كسرت الزجاج الأمامي للستروين اليوم؟". كان سؤاله خالياً من أي تأنيب.

"خسارة، كنت أصوب على رأس أخوك".

"طيب بدك تساعدني في تجهيز القهوة؟".

"لا خلي أخوك يبعد عن نسوانه ويجي يساعدك".

"لكن أنا أطلب منك أنت تساعدني". قبل أن تنتهي مقاومتي سألته ماذا فعل في الطلاق، فقال إنه لم يكن يريد الطلاق، ومشاكل عمتي وخالي لا تهمه: "وأنت كبِّر راسك وما تحطه في رأس النسوان". انتهى الأمر وقررت المساعدة بتفسيخ الحطب بالبلطة.

"رقبة مين اللي قطعتها الآن؟" سألني المختار وقد قرأ ما كان يدور في ذهني كلما قطعت جذعاً.

"إنت عارف وأنا عارف".

"شو رأيك نقطع حمامتك في الصيف؟" سؤال مرعب، فكل الذين يحدث لهم ذلك يتحدثون برهبة عن التجربة. صمت قليلاً، فأكمل المختار: "خطبنا لأخيك مطر رفقة بنت أبي رفيق، والزواج في الصيف، والأحسن نعمل طهورك معهم".

"خلي أخوي يتزوج، وأنا يمكن أن أعمل طهوري قبل ما أتزوج".

"يا جبان". قال المختار وهو يكيل بكرج قهوة في بكرج آخر، كما يفعل كل يوم قبل أن يبدأ في غلي قهوة جديدة تستمر طوال المساء قرب الموقد. "أبو أكرم، الحلاق يده خفيفة، ولن تشعر بألم". أخذت أفكر في الهدايا والنقوط التي سأحصل عليها من

الأقارب، ولكني أيضاً تصورت كيف سأسير لأيام وأنا أمسك بمقدمة الجلباب حتى لا يحتك في الحمامة التي قطع رأسها.

"يمكن الحلاق يقص شوية من رأسه!" ضحك أبي بصوت عالٍ من مخاوفي وأكد أن أبا أكرم لم يفعلها مع أي واحد حتى الآن. كنت متفهماً لضرورة الطهور، فكل الرجال يخضعون لذلك، كما أن القلفة الأمامية تتسبب بوجود أوساخ في داخلها، وهي تحتاج لعناية فائقة عند الاغتسال الأسبوعي. وبالطبع لا يوجد خيار آخر، ولا أدري بالضبط لماذا فتح والدي هذا الموضوع الآن مع أنّ أخي مطر، عبدالله، لم يحضر من قطر حيث يعمل لدى شركة نفط هناك. لم يكن مطر قد شاهد رفقة لأن أهلها يعيشون في خان يونس، وهم من دار أحمد في بربرة ولا يفسحون المجال لمشاهدة بناتهم، لكن خالتي أم مطر شاهدتها، وأمي تعرفها لأن أهالي دار أحمد هم أخوالها، وكانوا يزورونها في الأعياد، وبالتالي وصلت الأوصاف إلى عبدالله.

مرت شهور تم خلالها الصلح بين عمتي وخالي. اقترب اليوم الموعود فصار التواصل بين رفح وخان يونس وبقية العائلة في غزة، على أشده. زيارات بالتناوب، وكسوة العروس والقريبات تتطلب التنقّل بين محلات القماش والذهب والملابس الجاهزة، وأوجه جديدة للوسائد والفرشات لجلوس المدعوين، وبالطبع حجز "الجناكي" للرقص وهزّ البطن ليلة الصمدة. بالنسبة لي، حصلت على جلبية جديدة، وملابس عادية لن أتمكن من استعمالها لعدة أسابيع.

خرجت زفة العريس من دار خالي أبي أحمد صعوداً إلى الشرق ومن ثم إلى الشمال حتى دكان خالي رمضان، ثم غرباً حتى منزلنا، أي كانت جولة حول مخيم بربرة. الرجال يرقصون الدبكة

والدحية والسيادة أمامنا، بينما مطر وأنا نجلس على الكراسي، نتحرك قليلاً إلى الأمام مع صفوف الدحية، ثم نجلس لنشاهد كل البلد تدبك، وينهي موسى السلطان الأمر برفع العكاز إيذاناً بتحرك آخر. النساء كنَّ خلفنا، يحملن كوانين فيها ورود، وصواني طحين فوقها رياحين ويرقصن. كن يتبادلن حمل الكوانين لإظهار البراعة بالرقص بينما الكانون على الرأس، ثابت، وبقية الجسم تتمايل. كانت لهن أغانيهن المتناسقة مع رقص الرجال، وأحياناً يشترك الجنسان في النغمات نفسها. وتصاعد الحماس عندما أمسك أبي بالعكاز وأخذ يتحنجل أمام ولديه. لم يكن قد رقص أو دبك منذ مغادرة بربرة. أخواته وزوجتاه صدحن بالهيهاويات المشبعة بالمديح. وقبل أن نصل إلى البيت، هرب مطر من الزفة لأنه كان يرى في كل هذه التقاليد شيئاً لا يتناسب مع الحياة العصرية التي يخوضها، ولأن الناس يحتفلون بأنفسهم أيضاً وليس بالعرسان فقط، فقد استمرت الزفة بالزخم نفسه حتى أوصلوني إلى البيت.

هدأت الحركة في بيتنا بينما استمر الغناء في منزلنا الآخر المجاور. حضر أبو أكرم، وتواجد رجال البلد في بيتنا، وجاء خالي أبو أحمد، وأخي عبد الرحمن. الأول جلس على كرسي وأجلسني في حضنه، والآخر جلس على الأرض بيني وبين أبي أكرم، الذي فتح علبة تحتوي الأمواس والكلابات والمقصات وأشرطة التجليخ. أمسك أبو أكرم بحمامتي يقدم ويؤخر في القلفة، وضغط خالي عليّ بخفة، بينما تظاهر عبد الرحمن أنه يساعدني في إبقاء ساقيَّ متباعدتين. فجأة وضع الحلاق شيئاً أشبه بالمقص داخل الجلدة، وبدأ الألم، واشتد الإمساك بي وارتفع صراخي. البلاء جاء على شكل الكلابة التي أمسكت بالجلدة من خلف المقص وتركها أبو أكرم متدلية بثقلها دون أن يسندها إذ أصبح عليه تجهيز

الموسى لقص الجلدة من أمام الكلابة. تمنيت لو أغمي عليَّ من هول الألم. ارتفع صراخي وبالمقابل، صعّدت النسوة في بيتنا الآخر من نغمات الغناء والطبل. أعاد الحلاق ما تبقى من الجلدة إلى الخلف بعد أن نزع الكلابة، ثم رش على القطع ما يشبه القهوة المطحونة، وحملوني إلى فرشة أعدت خصيصاً بين الجدار والمدعوين الذين باشروا بدفع النقوط لي شخصياً. بعد وهلة، تكومت إلى جانبي أنواع من الحامض والحلو والبذور والفستق والحلقوم والمشروبات الغازية. وعندما حان موعد التبول واجهت معضلة جديدة تسببت لي بأوجاع وآلام كثيرة جرّاء التورّم الحاصل.

***

في الصف الخامس الابتدائي، ولسبب لا أعرفه، نقلوا الكثير من فصولنا إلى مدرسة "جيم"، وهي بعيدة عن "ألف" وعن وسط رفح وعن البيت. هذا كله لا يهم كثيراً، ولكن مساكن البدو تفصل بين طريقنا وبين المدرسة الجديدة. والبدو ليسوا لاجئين وليسوا مواطنين أيضاً. لا يستلمون معونات غذائية من الأونروا مثل اللاجئين، ولا يملكون أراضي زراعية مثل المواطنين. إنهم يخبزون طحين القمح والشعير ولا نقود معهم لشراء الطحين الأبيض الذي يصلنا مجاناً "هدية من شعب الولايات المتحدة". تجربتي الأولى في هذه الجغرافيا كانت يوم تأخرت في الذهاب إلى المدرسة، ولم يكن حولي الأقارب والزملاء. أحاط بي أولاد البدو، ورفضت تسليمهم سندويش الجبنة البيضاء المدهون بالفلفل الأحمر المخروط والمخلوط بزيت الزيتون. النتيجة كانت ضرباً وتهديداً بإفلات (تربيح) كلابهم لتعضني، وبالطبع ضياع السندويش. عرفت أن

أمثالي يمرّون بالتجربة يومياً ويقولون إن البدو يغمسون خبزنا الابيض بخبزهم الأسمر.

"كم رغيفاً تأخذ إلى المدرسة؟" سألتني الوالدة وهي مندهشة مما أصبحت أحمل في حقيبة الكتب كل صباح.

"المدرسة بعيدة وأنا بجوع كثير". كذبت عليها، أو هكذا تأملت. كنت خجلاً من الإقرار إنهم يأخدون طعامي كل يوم، وخائفاً منهم ومن كلابهم إذا لم أحمل الخبز إليهم.

"لكنك تأخذ الخبز حافي، ولا تحمل معك حلاوة أو جبنة أو فاكهة". فكرت أنني لو حملت فاكهة وعثروا عليها فإن ثمن المرور سيصبح باهظاً. لم أعلِّق على كلام الوالدة، ولم تكن هي بحاجة إلى تعليق. في ذلك اليوم سألني أخي خضر ما الذي يحدث معي في المدرسة، فأبلغته بكل شيء. خضر كان أيضاً في هذه المدرسة، ولكنه يكبرني بأربع سنوات، ولم أكن أعرف حتى ذلك الحين أنه ينظم ويتزعم عصابة. علاقتنا حتى تلك اللحظة هي أن يُحمِّلني شنطة كتبه كلما رآني قبل الانطلاق إلى البيت، ولا أدري أين يذهب، على الأغلب لمعاكسة البنات. وحاولت أمه، خالتي، مراراً جرَّ رجلي في الكلام لأخبرها أين يذهب، ولكنها لم تصل معي إلى نتيجة.

"اليوم لا تعطيهم شيء". أمرني خضر وأعطاني عصا لأضرب بها من يعترض طريقي أثناء اختراق المنطقة بأقصى سرعة.

"لكن الكلاب أسرع مني". قلت له وكأنني غير مهتم أو خائف من أولاد البدو، والمشكلة هي كلابهم فقط.

"توكل على الله، واعمل ما أقوله لك ولن يحدث شيء". قال بثقة أبطال الأفلام مثل فريد شوقي، أو رشدي أباظة، بالرغم من تشابه ملامحه مع محمود المليجي، الشرير الخاسر دوماً. ومهما

يكن فلا مجال الآن للخوف، ولا بد من عمل شيء ضد هذا الإذلال اليومي.

كانوا متجمعين للحصول على المؤن مني ومن غيري. وعندما توقعوا توقفي الطوعي، كالعادة، ركضت بأقصى سرعة وتمنيت لو كانت لي عين خلفية. انطلقوا في إثري، وبعد ثوانٍ نظرت إلى الخلف فإذا بخضر وعصابته قد خرجوا من بين الأزقّة واعترضوا طريقهم بالعصي والبوكسات، وعرفت أنَّ بعضهم كان متسلحاً بفرجار غرسوه في أكثر من خصر. انتصرنا، ولكن كيف سنعود إلى البيت بعد دوام المدرسة؟ لم يتركونا حتى نشك لحظة فيما يجهزون من انتقام لتمردنا، فقد أسمعونا التهديد عبر أسوار المدرسة طوال اليوم، وهذا بالضبط الذي سهَّل مهمة حشد كل التلاميذ للمجابهة. وزَّعت الأدوار أثناء الاستراحة وعرف رواد القسم الإعدادي كيف سيحمون أطفال الابتدائي.

عندما انتهى اليوم الدراسي حافظ بعض الأقوياء على باب المدرسة مغلقاً وتجمهر الصغار في الخلف وبين الأكبر منهم، وتسلَّح كل واحد بما عثر عليه من حجارة أو عصي أو مساطر أو فراجير، وبالطبع بالحقائب التي نعلقها في العادة في الرقبة والكتف. فُتح الباب وخرجنا كالفيضان نصرخ ونلوح بالحقائب بينما الأكبر منا يشتبكون من حولنا بمن يعترض الطريق. كل ذلك دون توقف بالطبع. لم نواجه حواجز في اليوم التالي، ولا أدري أي جهات تدخلت في تهذيب مسيرة يومنا الدراسي، لكني كرهت مدرسة "ج" ومنطقتها. لم يمر الكثير من الوقت حتى عدت إلى مدرستي الأولى، ثم انتقلت إلى قسمها الإعدادي.

***

حمير غزة

لم يمر أسبوعان على بدء الإجازة الصيفية حتى تعكَّرت الأجواء في البيت. عائشة ترفض وتحاجج ضد فكرة تزويجها، وأمي تبدو مقيدة بين موافقة أبي وضغط العادات من جهة، وبين رغبتها في مناصرة ابنتها وإعفائها من تجربة الزواج المبكر من جهة أخرى. من المبالغة القول إن أبي كان موافقاً عن طيب خاطر. سمعته يسأل عائشة عن السبب الرئيسي للمعارضة، فأجابت أمي: "البنت صغيرة، وبدها تكمل تعليمها".

"ليست صغيرة، تزوجتك وأنت أصغر منها، أما التعليم فيمكن أن نجد له حلاً".

"أيام بربرة غير هالأيام يا مختار، والحل هو الاكتفاء بالخطبة وتأجيل الزواج حتى تكمّل توجيهي". قالت أمي وهي تنظر إلى عائشة الغارقة في البكاء. أنا متأكد أن الوالدة لا ترغب في زواج الأقارب، وتكره الزواج المبكر.

"الرسول عليه الصلاة والسلام، تزوج عائشة ابنة أبي بكر وهي أصغر من عائشة حسين".

"إذاً سألتم الشيوخ في الموضوع". قالت أمي، وأكملت: "لو بحث الشيخ في سيرة عائشة زوجة الرسول لوجد أنها لا تحبذ زواج الصغار، كما أن الرسول شيء مختلف عن بقية البشر، ولا يمكن أن تُظلم عنده زوجة أو تُساء معاملتها". استغربت هذا

الحديث من الوالدة لأنها كانت أمية، ولا تناقش في الدين، وعلى الأرجح أنها افترضت أن زوجة الرسول لا بد وأن تمانع زواج الصغار.

ـ "توكلي على الله، من يسئ لابنتي سوف أقطع رأسه".

كانوا يتجادلون وعائشة تبكي حظها العاثر، ربما أرادت زواجاً بعد غرام، أو أنها تريد بالفعل إكمال التعليم؛ فنشاطها المدرسي مشهود له واندفاعها للتعليم كان ينعكس في أقوالها وأفعالها، فهي تريد أن تصبح طبيبة.

"البنت تريد إكمال تعليمها". قال أبي لأخيه في المساء بعد أن جمع هذا أهل البلد للتوسّط في الأمر.

ـ "التعليم كويس ويمكن أن تواصله من دار عمها حتى تنهي التوجيهي". أجاب أبو زاهد، زوج الأربع نساء، بالنيابة عن عمي.

ـ "الزواج لا يسمح بإكمال التعليم، بكرة بدها تشتغل في دار عمها وتحبل وتخلف وتروح على المدرسة". قال خالي أبو أحمد من دون أن يظهر إذا كان يؤيد أو يعرقل خطوبة ابن عمي حكمت على أختي عائشة.

"قصد أبو أحمد إن التعليم لا يسمح بالزواج، يعني المتزوجات ممنوع يدخلن الفصول مع البنات". جاءت هذه الفتوى، الصحيحة هي الأخرى، من أبي الباسط، الأستاذ محمد حسان، أصغر أبناء حسان، عم أبي. يبدو أن حكمت كان يعرف حجم المقاومة لفكرة الزواج الآن، فأرسل أمه لتخبر أباه أنه يهدِّد بإحراق نفسه ويتوعد بأشياء أخرى إذا تم الرفض.

ـ "الولد سيسبب لنا مشاكل مع الناس والله أعلم ماذا يفعل بنفسه، الله يخليك يا أبا مطر مشي الموضوع وسنفعل كل شيء من تعليم وغيره". كان عمي ينظر إلى أخيه مباشرة، وبدا وكأنهما تحت سحر المجتمع والعادات، فهز أبي رأسه وزغردت أم فتحي،

أم العريس حكمت، وعلى الأرجح أن عويل عائشة ارتفع إذ كانت عيناها متورمتين عندما رأيتها بعد ذلك. حكمت من الجيل، أو بالأحرى من الشلة، التي رفضت التعليم وتعلقت بالسيارات. تعلم قيادتها، وأصبح يقود ما تيسر من الموجود عند عمه المختار، ومثله فعل أخي عبد الرحمن، وأكثر من عشرة بربراوية من جيلهما.

عُقد لحكمت على عائشة، وفي بحر أسبوع تمَّ العقد لعبد الرحمن على عائشة مهران. كان شقيقي في جلسة مع أصحابه يتحدثون في شأن الزواج، فتطور الحديث بينهم وقال عبد الرحمن إن بوسعه الزواج من أي واحدة في رفح، وشاء القدر أن يطلق أحدهم مراهنة بأن أخي لن يتمكن من الزواج من عائشة مهران كونها أعطيت لأحد أقاربها. كان الرهان أن تتم الخطوبة في مجال أسبوع، فأقام عبد الرحمن الدنيا لأمه ولأبي، كما فعل حكمت، وتمت القسمة والخطبة، وتزوجوا في عرس واحد. كانوا كلهم من مواليد بربرة التي طردوا منها قبل 16 سنة، ولم يغيروا أو يبدلوا من عادات الزواج المبكر.

لم يتغير شيء في تصرفات عبد الرحمن بعد الزواج، اللهم أنه ينام لفترة أطول في الصباح الآن. وفيما يخص مغامراتنا المشتركة فلم أكن دوماً الضحية الغريق أو المصاب والجريح. وكلما اشتقنا إلى رحلة فما عليَّ سوى العثور على مخبأ مفاتيح الشفرليت في ذلك اليوم. كان الوالد يذهب إلى عمله في السيارة الستروين، البطة، أو اللاندروفر، حسب طبيعة مشواره في ذلك اليوم، ويخبِئ مفاتيح السيارات الاخرى. الشفرليت، موديل 1956، تستهلك الكثير من البنزين، ولكنها ناعمة سريعة تكاد تقفز كالحصان إذا ضغطت على الدواسة بقوة. الوالد كان يقول إنها بحاجة إلى خزان وقود يسير خلفها، ولكننا كنا نملؤها من المحطة على حساب

الوالد من دون أن يشعر عندما يدفع الفاتورة كل شهر. مشوارنا المفضل هو السفر إلى الحدود الشمالية، على مسافة أربعين كيلومتراً من رفح. كنا نركن السيارة جانب سلك الحدود ونتبادل بعض الحديث مع دوريات الدوليين. حفرة بعرض أقل من مسطرة في الأرض على الإسفلت وفوقها سلك بارتفاع متر، وفتحة في السلك أمامها براميل لمنع السيارات من الاجتياز. هناك لا ترى أي إسرائيلي، ولكن نرى حاووز الماء إلى جانب المدرسة وبيتنا في بربرة. دقيقتان في الشفرليت ستوصلاننا إلى بلدتنا، أو ربع ساعة على الأقدام تكفي للعودة إلى الجنة التي زرعها الأهل في أذهاننا. علينا الاكتفاء بالنظر وأخذ بعض الصور إلى جانب السيارة ونحن نشمر أذرع القمصان فاتحين الأزرار لإظهار العضلات. الوضع الأمني هادئ جداً، فلا توجد عمليات فدائية منذ نهاية العدوان الثلاثي، والاهتمام الأساسي بالنسبة إلى الناس هو تعليم الأبناء والبنات ليحصلوا على وظائف داخل قطاع غزة أو في دول الخليج التي تستورد مئات الشبان كل عام الذين يحضرون في الصيف لزيارة الأهل والتبجح بما يوجد في دول الخليج وينعدم عندنا. كل شيء هناك أكبر وأحسن، ولديهم سيارات وبيوت فخمة، وعندما يعودون بالطائرة يفتحون النوافذ ويرمون الفضلات على الناس من تحتهم. إذاً الوضع الأمني مستقر، ومصر بالطبع تمنع أعمال التسلل إلى فلسطين المحتلة، وهكذا لم يكن هناك أي ممانعة من القوات الدولية لو ارتكزنا على السياج الحدودي لالتقاط الصور.

لحسن حظ أختي عائشة أن خالي حسن تمكن من الوساطة لها بأن تكمل دراستها الثانوية على الرغم من كونها متزوجة. لقد اشتغل خالي مع الأونروا منذ عام 1953، وكان يملك شهادة الثانوية. واصل الدراسة والتدريس حتى ارتقى إلى درجة ناظر مدرسة ثم

مفتش تعليم. وعلى الرغم من أن نطاق تأثيره كان في الأونروا، إلّا أن علاقاته التعليمية سهلت لأختي أن تواصل تعليمها الثانوي التابع للحكومة المصرية. كان عليها أن لا تخبر أحداً أنها متزوجة، وأن توصي معارفها بكتمان الأمر، وأن تجتهد، وبالطبع أن لا تحمل حتى تنهي الثانوية العامة.

***

مع بداية عهدي بالتعليم الإعدادي، باشرت السلطات المصرية حملة التجنيد الإجباري لبناء جيش التحرير الفلسطيني التابع رسمياً إلى منظمة التحرير الفلسطينية. في طابور الصباح، وبعد التفتيش على الأظفار ونظافة المناديل القماشية، صاروا يعلموننا كيف نقف، استرح، استعد، ونضرب الأرض بالإقدام أثناء تغيير موقع القدم ووضع الأيدي خلف الظهر في استرح، ثم على الجانبين في استعد. وعندما يُرفع العلم فعلينا تحيته، ثم نشيد بلادي بلادي. ومن يتغيب عن طابور الصباح يُحاسب كمتغيب طوال اليوم.

في هذه الأثناء كان المخاتير يسجلون أسماء الشبان فوق الثامنة عشرة والذين لا يدرسون، إذ سيتم ضمهم إلى صفوف الجيش الذي أُقيمت له معسكرات وخيام في الكثبان الرملية بين رفح الغربية والبحر وفي العديد من مدن قطاع غزة ومخيماته. علموهم على كيفية استعمال الأسلحة الرشّاشة، ولكن يمنع إخراج أي سلاح من المعسكر. أصبح لدينا، إلى جانب سيارات القوات الدولية البيضاء، سيارات جيش وجيبات كلها من صنع سوفييتي، تجوب الشوارع بلونها الكاكي. لا أدري لماذا أطلقنا على جيشنا منذ أيامه الأولى لقب "جيش حليمة"؛ كنا نقصدها سلبياً ولم يحتج كبير أو صغير.

شباب جيش حليمة شعروا بقوة الكلاشنكوف، وافتخروا بكفاءة التصويب على الأهداف، وأصبح حديثهم ماذا سيفعلون في تل أبيب عندما نحتلها.

كل الذين تعلموا قيادة السيارات، والذين قضوا أيامهم في المقاهي، والذين كرهوا الدراسة، جندوهم في الجيش، ومن ضمنهم أكثر من عشرة من عائلتنا وغيرهم عشرات من بربرة، من بينهم أخي عبد الرحمن وابن عمي حكمت. أما خريجو الجامعات فقد وضعوا نجمة أو أكثر على أكتافهم. لم يكن لجيشنا تسليح غير الكلاشنكوف والقنابل اليدوية، إذ لا مدافع صغيرة أو كبيرة، لا مصفحات أو دبابات.

وبقيادة مدرس الرياضة، الأستاذ أحمد أبي هاشم، انشغلنا في تدريبات أشبه بالباليه، استعداداً لعرض ضخم سيقام في أستاد رفح ويحضره رئيس المنظمة أحمد الشقيري، وقيل لنا إن الرئيس عبد الناصر سيحضر أيضاً. مئات الطلاب كان عليهم الانتشار في شكل هندسي متحرك فوق أرض الاستاد بينما يرقصون ويلوِّحون بأقمشة ملونة حيناً ويقومون بإخفائها حيناً آخر. في هذه الحالة كان علينا أن ننشد أيضاً "البرتقال البرتقال يا رب بارك في البرتقال. . . ". بينما انشغل الآخرون في الإعداد للانتخابات التشريعية لأنه تقرر إقامة مجلس تشريعي منتخب ليشرف على منظمة التحرير، مثل برلمان. حضر أعضاء من الحزب الشيوعي إلى منزلنا ومعهم الدكتور حيدر عبد الشافي، أرادوا أن يساعدهم المختار على كسب أصوات في رفح. تناولوا عندنا طيور الفرّي (سمان) مشوياً، وحصلوا على وعود، ثم أرسل معهم الوالد من يتجول في المخيمات ليحادثوا الناس بما يريدون. مرشح بربرة للمجلس كان الشيخ خليل (عزوم) عدوان، وبالفعل نال أحد المقاعد المخصصة لرفح.

عند انعقاد الجلسة الأولى لاحقاً حضر كمال عدوان من قطر لمراقبة الوضع، وهو من مؤسسي حركة فتح التي لم تعلن عن نفسها آنذاك، وكانت حركتهم تعارض قيام منظمة تحرير بقرار وإشراف عربي. آنذاك تعرفت على كمال، ورافقته في عدة جولات وزيارات إلى الأقارب داخل غزة، منها زيارة إلى خالته التي كانت عجوزاً صغيرة الجسم تعيش في بيت أثري في غزة القديمة. كنت وإياه فقط، ورفضت خالته أن تجلس معنا إلى الزغاليل المحشية بالرز. ألحَّ كمال عليها بالجلوس ولكنها رفضت وتركتنا. نظرنا إلى بعض ولم نعد نتمالك أنفسنا من الضحك لوقت طويل. بالكاد أنهينا زغلولة واحدة وشربنا الشاي ثم ودعناها وغادرنا حواري الحارة سيراً على الأقدام.

***

في المرحلة الإعدادية لم أعد أقايض الطلاب الفقراء ببعض النقود مقابل كوبون الطعمة. الطعمة أو المطعم، هي مؤسسة أخرى للاونروا وتعتني بإطعام الأطفال الفقراء وتوزع عليهم كوبونات في المدارس ليأكلوا وجبة ممتازة كل يوم. الأكلة المفضلة، بالنسبة لي، كانت الكفتة، وقد فشلت كل محاولات تقليدها في البيت. كنا نصل من المدرسة ركضاً إلى الطعمة بين السنتيشن والمستشفى، وهناك يحل الهدوء والنظام ونصطف في طوابير. نستلم ملعقة وسكيناً وصينية معدنية فيها عدة فجوات مختلفة الحجم، ثم توضع لنا الكفتة وصلصتها في تجويف، والرز في التجويف المجاور، ويعطينا طباخ ثالث سلطة ورابع يسكب لنا حلواً أصفر اللون بطعم البرتقال. كنا نسير باتجاه الكراسي والطاولات الإسمنتية ونتناول

الوجبة ثم نسلم الصينية والملعقة والسكين قبل أن يُسمح لنا بمغادرة المبنى، وعندما يشك الحارس عند الباب في أحد فإنه يقوم بتفتيش جيوبه بحثاً عن السكين والملعقة. لم تكن زياراتي بالفعل كل أسبوع، ولكني تمنيت ذلك.

الأونروا وفَّرت في تلك المنطقة أيضاً الحمّام، وهو واجب أسبوعي فرض على طلاب الابتدائية. عشرات الدوشات إلى جانب بعضها بعضاً. فكان الطلاب يخلعون الملابس ويستلمون قطعة صابون صغيرة ويراقبهم الأساتذة ومدير الحمّام أثناء الاغتسال للتأكد من التلييف والصوبنة لكل المواقع وخصوصاً الرأس، علماً بأن طلاب الابتدائية، والإعدادية، كانوا يحلقون الشعر على الصفر كل أسبوع. غالبية التلاميذ في المرحلة الابتدائية كانوا بملابس رثّة أو مرقعة. ومن كانت أمه ماهرة فمن الصعب ملاحظة رثيها للملابس، أما الأمهات الأخريات فكانت رقعهن بقماش من لون آخر. هذا كله انتهى مع دخول الإعدادية. لم ألبس المرقّع في السابق، ولكن قلة من زملائي لم تكن أمامهم فرص أخرى لإخفاء فقرهم حتى عندما دخلوا المرحلة الإعدادية. أما البنات فكنَّ أفضل حظاً من الأولاد، في قضية اللباس، إذ لديهن زي مدرسي موحَّد يمنح فرصة عدالة أفضل. لكن الفقر لا يمكن إخفاؤه مهما كان اللباس الخارجي. البنات من العائلات الغنية، أو ذات الأصول، كنَّ على شيء من الثقة ويضحكن دوماً مما يحول ملامحهن العادية إلى شيء مميز، بينما الجميلات الفقيرات فكنّ يحتجن إلى خبير ليرى أن لديهنّ جمالاً يختبئ خلف العبوس والقنوط.

جمال وغنى أم تعاسة وفقر، مواطن أم لاجئ أم بدوي، مدني أو فلاح، ذكر أو أنثى، كبير أو صغير، كنا نشترك في الكثير من الأشياء. على الجهة المقابلة من مقر الاونروا لتسليم المؤن، يوجد

دوار، وخلفه يبدأ سوق الخضار ممتداً حتى الحاووز ومتجهاً إلى الغرب حتى بداية معسكر بربرة عبر معسكر عاقر. الدوار يحتل منتصف الطريق بين رفح الشرقية والمخيمات الغربية. كل الناس عليهم المرور يومياً عبر الدوار، وبالتالي مشاهدة موقف كارات الحمير، حمير إناث وحمير ذكور بالطبع، فالمساواة كاملة بينهم في سحب العربات وتلقي الضرب والشتائم إذا خذلته العضلات. بالطبع هناك بشر يجرون عربات خلفهم، ولكن لا توجد أنثى بشرية واحدة أمام عربة تسحب خلفها أكياس الطحين وغير ذلك مما يوزع على اللاجئين كل أسبوعين.

أبو علي كان لا يمل من استعمال حماره في الشؤون الثقافية. وعندما احتل المدرسون مكانهم في المجتمع ولبسوا البدلات وربطات العنق، اشترى أبو علي ربطات من المؤن وذات ألوان فاقعة. في المساء يسحب حماره النظيف جداً إلى الشارع. يضع على ظهره بردعة مطرزة ومشرشبة ويعلق ربطة عنق في رقبته ويسير به ذهابا وإياباً أمام المقاهي التي يتجمع في داخلها المدرسون. أحياناً يقف أمام المقهى مع حماره ويناقش معه وهو يفتح كتاباً ويمثل وكأنه يسمع من حماره ويرد عليه. بالطبع الموقف يشد الصغار والكبار عندما يشاهدونه؛ بعضهم يعتبره مجنوناً ويتأسف على ما أصابه، وغيرهم يضحكون إذ لا يخفى عليهم مقصده. وعندما انتشر راديو الترانزستور وأصبح الجميع يسيرون وهم يضعون الراديو قرب آذانهم حتى لا يفوتهم خبر، علّق أبو علي راديو في رقبة حماره.

***

استتباب الأمن

صيف 1965 شهد ثلاث حفلات زواج في معسكرنا، وكنا لا نزال في شهر تموز/يوليو، وأمامنا شهران من العطلة المدرسية واحتمالات الأفراح الأخرى سواء منها زواج أو طهور، وبالطبع يتمّ استعراض الصبايا لزينتهن، والعرائس والنساء عموماً لمجوهراتهن، من عقود وأساور وحلى، وكلها من الذهب الذي يزيّن أذرع بعضهن في هذه المناسبات، ويعاد إلى مكانه في الصندوق بقية الوقت. الأمن الغذائي فوق العادة، فشكراً لجهود الأونروا، والمتعلمون تخرجوا ويتابعون أشغالهم ويتزوجون. الأمن مستتب بفضل تواجد الشرطة وصرامة الأحكام العشائرية وتأثير البنية الاجتماعية التي تحمي الجار والعرض. السرقات بسيطة ومن بعض الأطفال، باستثناء حرامي البط الذي كنا نعرف أنه متحالف مع شخص مغامر في مخيمنا. كان يحضر على الموتورسايكل عبر الأزقة مسرعاً، ويميل على طيور البط التي تسرح خارج البيوت، فيخطف واحدة ويضعها في كيس خلفه. شكله مخيف، له لحية طويلة، وجسم قوي، ويميل لونه عموماً إلى السّواد. كذلك فإنّ دراجته ضخمة وصوتها يلعلع، خصوصاً بعد الخطف والهرب خوفاً من الحجارة. صاحبات البط فشلن في رصده، ولكن صالح أبا ضباع اعترض طريقه، فخطفه بدل البط وعاد صالح بعد ساعات

متورم الجسد، ولكن الحرامي أقلع عن زيارة الحي خوفاً من انتقام أكبر هذه المرة.

"ماذا حصل؟" سألت خالي أبا أحمد وهو على رأس الشارع حيث مدخل منزله.

"حرامي نطّ على دار أبي العراج في الليل ومسكنا أثره". أجاب خالي وعاد يساعد في قياس بالمتر ويفتش الأرض مع الشرطة بينما والدي يقف مع ضباط حول وعاء غسيل مقلوب بالقرب من دار أبي العراج مقابل دار خالي.

"هل عرفوا السراق؟" سألت عايشة رباح التي وقفت على زاوية الشارع المغلق مع عشرات من العجزة والصغار.

"عارفينه لكن المهم الإثبات". رفضت البوح بأكثر من ذلك.

حضر كلب الأثر وشم طبعة حذاء اللص التي عاينها بدوي يعمل قصّاصاً للأثر ووضعوا فوقها وعاء الغسيل مقلوباً. تحرك الكلب غرباً، وسار الركب خلفه، وانعطفوا يساراً ثم في ثاني دخلة على اليمين. اتضحت الصورة، فهم متجهون إلى دار ابن بلدنا صاحب حرامي البط.

في المساء حضر والده وبعض أقاربه إلى الديوان ومعهم المسروقات وسلموها لأبي.

"اطمئنوا". قال والدي لأهله عندما سأل والده إذا كان الاتفاق قائماً والحكومة لن تتدخل. يبدو أبو محمود أكبر من سنه بكثير، وجهه لطيف ومألوف، رأس مستدير وشعر أشيب، كتفاه منحنيتان وصوته منخفض، مؤدب ويحترم الصغار والكبار، لكن أحد أبنائه عفريت ولا يجاريه أحد في الكذب والدجل الفائق، وبالتالي يجر المشاكل دوماً على أهله. للأمانة هناك من هو منافق

أكثر منه، ولكن هذا لا يؤذي الناس، ومن أشهر ما قال إنه خرج يودع أخاه في الطائرة ولم يسارع بتلبية نداء الطيار بمغادرة الزوار. حلقت به الطائرة، وفوق البحر فتحوا النافذة فقفز، وعاد إلى البر سباحة.

"يبقى في الكتيبة سته شهور بدون إجازة. إذا شوهد خارج الكتيبة سيتم فتح القضية وتقديمه لمحاكمة وسيعتقل. هذا أفضل ما تمنكت من الاتفاق عليه مع الحاكم". قال المختار وهو يحصي المسروقات ليراها بقية حضور الديوان قبل أن تعاد إلى دار أبي العراج الذين منعوا من حضور هذا اللقاء تجنباً للتوتر. كان جيش التحرير الفلسطيني قد تشكل منذ أقل من عام، وطبقوا نظام التجنيد الإجباري على شباب قطاع غزة فقط. حرامي بلدنا كان من الجنود الأوائل في الجيش، لكنه واصل هوايته في الإجازات الاسبوعية حتى الآن.

في الليلة التالية انخرط الجميع في تفاصيل ذلك الحدث وكيف قفز الحرامي عن الجدار بينما أهل البيت في حفلة زواج. بعد يومين، عاد حديث رواد الديوان إلى شؤون أخرى، لكن في مساء اليوم الثالث لاحظ الجميع الغمّ على وجه والدي. لقد ثبت أن الذين خطفوا تاجر الذهب وقتلوه في غزة هم واحد من أولاد أبي سنينة، البدو، وابن بلدنا، البربراوي، ابراهيم الذي يقطن مع أهله في مخيم جباليا.

"كيف عرفوهم؟" سأل ابن عم أبي، حسن الشيخ، وقبل أن يعطيهم والدي الإجابة سمعت اختلاطاً في الأقوال، أنّ الحكومة لا يخفى عليها شيء، المصريون أولاد حرام شطار، وحبل الكذب قصير... هذه القضية شغلت الناس منذ أسبوعين، الشباب معجبون بنجاح اللصوص في الاستيلاء على الذهب، والكبار خائفون من

العنف الذي استعملوه في قتل الرجل الذي تيتمت عائلته. لكن الجريمة حصلت في غزة وبالتالي ضاعت بسرعة بين مشاغلنا هنا.

"المصريون ما عرفوا شيء. واحد من الدوليين أعطاهم رقم السيارة".

"طلع دولي يعرف عربي، شوف الله ما بينام". قال عبد الهادي تعليقاً على كلام المختار.

"الدّولي ما بعرف عربي، لكنه قال إنه شاهد السيارة المرسيدس وهي تلقي بجثة القتيل قرب معسكرهم، وإن رقم السيارة هو واحد بالإنجليزي، وثلاثتين بالإنجليزي مقلوبات، يعني 144 بالعربي". سكت أبي وعرف الجميع السبب الإضافي لغمّه؛ فالسائق من بربرة، لكن هذه السيارة كانت تخصّنا وباعها أبي قبل عامين، وهي ورقمها لا يخفيان على أحد كونها أول سيارة مرسيدس تصل إلى قطاع غزة.

"الله لا يعينك يا ابراهيم على هالعملة اللي عملتها". قال أبو خلف وقد أتمَّ لف سيجارة.

"الله أعلم شو راح يعملوا فيهم الآن". قال حسين السلطان وهو يناول أبا خلف جمرة نار يحملها بالملقط ليشعل سيجارته.

"راحوا فيها مؤبد بالتأكيد". جاءت الإجابة من خالي أبي أحمد.

"والله الإعدام قليل عليهم". قال أبو رزق بعد أن تنحنح وبصق بلغمه من أثر الدخان العربي الذي لا يفارق أصابعه.

"الحاكم العسكري العام حدد الحكم بالإعدام على من تثبت عليه التهمة، حتى قبل أن يعثروا عليهم". كان من الواضح أن المختار لم يبح بعد بكل ما يعرف، وشرح الورطة التي يجد نفسه فيها. "الأصول تقول أن يأخذ أهل القتيل حق قتل القاتل أو

السماح عنه. لكن الحكم العسكري لا استثناء فيه". انخفض صوت المختار وهو يشرح أن صديقه كامل أبا نحل جنَّد بعض الأعيان وذهبوا لاستعطاف الحاكم العام في غزة، يوسف العجرودي، لتخفيف الحكم، فأخبرهم أن الإعدام سيتم في السرايا فجراً بعد يومين. "وزاد الحاكم الطين بلَّة أنه لازم نحضر تنفيذ حكم الإعدام شنقاً في السرايا".

"إنت عملت اللي تقدر عليه، هذه قضية لا يمكنك فيها تخفيف أحكام، بعدين أحسن عند الله أن الحاكم رفض الوساطة حتى لا يكون دم المقتول في رقبة أي واحد". هذه الحكمة جاءت من أبي زاهد بعد أن استمع طوال الوقت وهو يجهز الشيشة التي يحملها معه كلما حضر إلى الديوان. لقد كان قليل الكلام ونحيف الجسم، لا يغيِّر من لباسه التقليدي، وعادة ما يضع العباءة فوق كتفيه لتغطي الديماية وتعطيه الدفء. أما أولاده فقد كانوا يشبهون أمهاتهم الأربع، فبعضهم نحفاء وطوال القامة، وبعضهم الآخر قصار وممتلئون.

***

"العدو المتعلم خير من الصديق الجاهل".

"لكن العدو المتعلم، ذكي وقوي ويمكن أن يتغلب عليك، بينما الصديق الجاهل يمكنك التحايل عليه". قال حسن البدرساوي مقاطعاً أستاذ الفلسفة، وهي إحدى المواد الجديدة التي نتعلمها في أول ثانوي.

"إنت عربجي وخيالك ضيق، خليك ساكت لما الدرس ينتهي". حسن صاحب جثة ضخمة، ومن الشجاعة أن يوجه الأستاذ أبو

شلوف له هذا التوبيخ خصوصاً بعد أن أصبحنا نتدرب على إطلاق النار وفك وتركيب البندقية التشيكية.

"العدو يا شباب، يكون في العادة بعيداً عنك، وهذه حسنة. ولأنه متعلم فهو لن يغدر بك بأسلوب جاهلي، ويمكنك توقع أفعاله، ولديه قانون يلتزم به". كان الأستاذ أبو شلوف يوزع نظراته بيننا، ثم سلط عينيه على حسن وأضاف: "أما الجاهل فلا تأمن شر الاقتراب منه ولا الجوار، فهو كالنار خطرها يتعاظم كلما كانت قريبة. إذا أحبك الصديق الجاهل فإنه يحملك ما لا تطيق، وإن عاشرك أذاك، وهو عند الجوع سبع ضار، وعند الشبع فظ الأخلاق...". سرحت عن حديث الأستاذ وتذكّرت أفعال الشيوخ في الولائم وسوء جيرتهم.

"هل يمكن أن يكون الشيوخ، بعض الشيوخ، جهلاء؟".

"نعم يمكن، وبين الشيوخ المدعين للعلم تجد أجهل الجهلاء من سلالة أبي جهل. ما الذي خطر ببالك لتسألني هذا السؤال؟".

"والله يا أستاذ تذكرت بعض أفعال الشيوخ في الولائم، وأظن أن حديثك ينطبق عليهم". طلب الأستاذ أن أسرد على زملائي شيئاً من تلك الأفعال، فقلت إنني شاهدتهم في الولائم يخفون قطع اللحم تحت الرز ثم يتناولون اللحوم من وسط الباطية ومن أمام غيرهم فيأكلونها ثم يعودون لما أخفوه فيما بعد.

"يعني مثل الحيوانات الضارية بالضبط. فمن منكم يريد أن يجاور واحداً كهذا في وليمة؟".

"يمكنني أن أبلع الطعام أسرع منه وأن أستعيد ما دفنه". قال حسن وضحكنا، سواء لأسلوبه أو لانضمامه إلى صفهم.

"لن تستطيع مجاراتهم، لديهم خبرة، ومنهم من يأكل

بملعقتين، واحدة طالعة والثانية نازلة". قال يوسف موسى، قبل أن يستعيد الأستاذ ضبط الفصل من الضحك.

"بعد عدة سنوات سيكون بعضكم حميراً برخصة، وآخرون من حزب أبي جهل، وغيرهم يصلون مثل الحراذين، وقلة منكم قد تستعمل نسبة دنيا من مزايا المخ". هكذا تنبأ الأستاذ أبو شلوف مستقبلنا.

في وليمة أقامها محمد سعيد، أبو يوسف بمناسبة زواج ابنه حسن، حرص على أن يلتف الشيوخ مع بعضهم على باطية، وأكثر لهم من اللحوم كونهم من أصحابه، شيوخاً ودراويش. وبعد أن اختفت اللحوم تحت الأرز وفي البطون، أخذوا يديرون الباطية لتناول ما هو مدفون لدى غيرهم. كانوا يعرفون حيل بعضهم بعضاً ويدعون أنهم يمزحون حين يقولون إن الكرة الأرضية تدور هكذا، ثم يدير أحدهم الباطية. وقبل أن يكفّوا عن التهام الطعام يبدأون بالتترع بصوت مسموع، ويرفعون الصوت بإضافة "الحمد لله" على التتريعة، وليس لأنه انتهى من الطعام.

بالطبع ليس كل الشيوخ على هذه الشاكلة، فمنهم من هو أسوأ، وتحديداً الفئة التي تصنع الأحجبة وتعالج بالقرآن. فآخر حجاب وقع بين يدي وقرأته كان عبارة عن ورقة مكتوب عليها بشكل متكرر عبارة "يا سعدية حبي حسين". بالطبع قرأ الشيخ التعاويذ وهذه الآية أو تلك وهو يكتب هذا الحجاب ثم يقوم بلفّه ويخيط عليه قماشة ويرهب صاحبه بعواقب الأمور إذا فتحه. أعدت الحجاب إلى صاحبه وقلت له: هذا كلام يشبه ما يكتبه الصغار على جدران المراحيض أو على جدران البيوت في الشوارع. "محمد يحب سعده" "فاطمة تحب محمود". "... في مؤخرة

فلان". تضايق حسين يومها مني لأني فتحت الحجاب، أو بالأحرى لأني أطلعته على بساطة ما جاء فيه.

لقد نجحت منذ عامين على الأقل في منع الوالدة من زيارة الفتاحة في مخيم هوج التي كانت تزورها أسبوعياً وفي الأزمات وتصحب معها أختها، زينب، أم صبري. كلتاهما لديهما ثقة كاملة في الفتاحة. كلما قلت لها إن هذا الأمر نصب ودجل، كانت تؤكد لي إن الفتاحة عرفت أشياء لا يعرف بها أحد. "الفتاحة يا أمي تتحسس الأخبار، وتعرف القصص، وصارت تعرفك من كثرة الزيارات وسحب الكلام، وغيرك من المخيم يزورها وتحصل منهم على التفاصيل..." . لم يكن ذلك يثمر غير تعليقات مثل "وإنت إيش خسران!" "طيب طيب بطلت أروح". ولكنها لم تمتنع فعلاً إلّا بعد ضغط إضافي لأنني هددتها بأنني سوف أبلِّغ المختار.

الفتاحة ترى ذاتها كشيخ بالمؤنث، كون الإناث ممنوعات من المشيخة، فإنهن يرتزقن مباشرة من رؤية المستقبل. وأحياناً يتورطن في تقديم نصائح ذات نتائج كارثية، كالتي نصحت بنت عمتي العاقر بأن عليها إنفاق كل نقود زوجها أولاً بأول لأنه يريد الزواج من غيرها من أجل الإنجاب، ولهذا عليها أن تبقيه فقيراً. أعطتها أيضاً أحجبة وعملت عملاً يمنع زوجها من الإقدام على تلك الخطوة. ولأن رزق الهبلان على المجانين، فإن صفقات العمر تأتي للفتاحات حين يعجز عريس عن الدخلة على عروسه، وهذا معناه أن هناك من عمل له عملاً يربطه. تبخّر الفتاحة البيت والعريسين وتقرأ عليهما من سورة ياسين، ثم تطرد العريس وتختلي بالعروس تسألها عن تفاصيل محاولة النكاح، ثم تشرح لها ماذا وكيف وأين تفعل، وبالطبع تُحل العقدة. لقد تزوج في مخيمنا شاب على باب

الله من بنت خاله الصغيرة، وهي أيضاً على باب الله، ولم يكن يعرف أن عليه أن يدحمها بعد أن يلج قضيبه. ناما متجاورين ولم ينتصب بالطبع حتى أفرجت الفتاحة عنه وفكت رباطه ولعنت السحر الذي كان يقيده.

لا يوجد إنسان يمانع في قراءة الفنجان، ولكن الأمر لا يتعدّى المزاح لدى الأغلبية. ففي كل عائلة تجد أنثى أو أكثر تقرأ الفنجان، وعندما تكون حاضرة فإن الجميع يقلبون فناجينهم على الصحن لتأخذ بقية القهوة مجراها فتظهر الصور: "أمامك طريق طويل مفتوح، في واحد هناك واقف لك وقصده سيّء، وهذه صفطة أوراق، يعني جاي لك قبضة كبيرة. وهكذا خليط من المزاح والتمني لأن القارئات من القريبات ولا يخفى على أي واحد ما يفكر به الآخرون".

صباح كل جمعة تسيل المياه من تحت الأبواب إلى الشوارع لأن المتزوجين يغتسلون، بعضهم لأنه يريد أن يصلي الجمعة، والأغلبية لأنهم تعودوا الاغتسال بعد المضاجعة ليلة يوم الراحة الأسبوعية. لقد ساد اعتقاد أن النكاح يتعب الرجال، وبالتالي فالأفضل ممارسته يوم الخميس. لم يكن الحديث في شؤون الجنس شيئاً محرماً. وكان حسين السلطان متسلطاً على بضعة رجال في المخيم إذ يصيح كلما مرَّ بهم يوم الجمعة: "كم مرة طخيت الضبع الليلة؟". فتلحقه الشتائم واللعنات كردّ تعود عليه. يوم الجمعة تعرف من مجرد النظر إلى وجوه المتزوجات من منهن نالها نصيب ومن لم يرزقها الله. فإذا كان وجهها أحمر ومتفتحاً والابتسامة العريضة على وجهها من دون أي سبب، فهي من الفائزات.

***

نكبة فنكسة...

لا يمكن الادّعاء أنني غادرت قطاع غزة بالمصادفة، وذلك قبل أربعة أيام فقط من بداية حرب حزيران 1967. فعشية الإقدام على امتحان السنة أولى ثانوي، في مدرسة بئر السبع الثانوية للبنين، أكثرت الوالدة في الإلحاح على المختار أن يجهِّز لي تصريح زيارة لدخول مصر لأغادر البلاد في أقرب فرصة. لم تكن لتفكر في خروجي قبل الامتحان، فالحياة مقدسة، ولكن التعليم، بالنسبة إليها، على درجة الأهمية ذاتها وخصوصاً تعليم ابنها الأكبر. لقد عاش القطاع آنذاك فترة طوارئ وتدريبات عسكرية وتعبئة نفسية للسكان. سيارات تبث من مكبرات الصوت الأغاني الوطنية والخطب الرنانة وتجوب المدن والمخيمات في الليل والنهار استعداداً لحرب بدت شبه أكيدة للجميع، ورأتها الوالدة قادمة لا محالة فقررت إبعادي عن الخطر المباشر إلى عالم المجهول. كانت تكرِّر بالسليقة ما فعلته والدة سيدنا موسى (وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ). وعندما أصبحت آخر شاحنات الوالد العشر جاهزة للسفر إلى مصر، طلبت الوالدة أن يتأخر رحيلها حتى أكمل امتحاناتي.

ابنة عمي، إرهاب، كانت تنتظر السفر أيضاً للحاق بوالدها الذي كان يشرف على عمل السيارات في الربوع المصرية. لقد

كانت تصغرني بأربع سنوات، وهي البنت الثانية في دار عمي أحمد، أبي فتحي، وأطلقوا عليها هذا الاسم لولادتها أثناء العدوان الثلاثي على قطاع غزة ومصر والذي أرهبنا آنذاك.

انطلق بنا أبو الديب في المرسيدس، الفطساء، عبر سيناء حيث الطريق تعج بالمركبات العسكرية، وأرتال المدرعات تشاهد على الجانبين وبمحاذاة البلدات المتناثرة في شبه الجزيرة، أو بالأحرى على الطريق الساحلي الذي يربط رفح، عبر العريش، مع مدينة القنطرة على قناة السويس. لا يمكن أن يشعر إنسان مع أبي الديب بالخوف أو الضجر، فهو ضخم الجثة، ولديه كرش معتبر يثبّت بواسطته مقود السيارة التي يمتلك ربع ثمنها، كما أنه لا يكفّ عن الحديث حتى لو كانت روايته تدور حول قصص تراثية، أو غناء مواويل وعتابا. أكلنا سمكاً مشوياً في بئر العبد، وكباباً على الفحم في العريش، وطاجن خضروات بلحم الخروف في القنطرة، حيث توجد بضعة مطاعم صحراوية على الطريق لخدمة المسافرين. نقلتنا المعدية عبر قناة السويس، وبعد أربع ساعات أخرى، قاومنا فيها النوم على الرغم من التخمة، كنا في أمبابة بالقاهرة أمام الكاراج الذي تقصده سيارات المقاولين الفلسطينيين. في ذلك الوقت كانت سياراتنا تعمل في جنوب الصعيد، في دشنا وقنا والأقصر وفي سد أسوان. ومعظم المقاولات كانت لإنشاء طرق جديدة. لقد فتح الرئيس جمال عبد الناصر الآفاق أمام اقتصاد غزّة بقدر المستطاع. سيارات صغيرة تخدم التجارة والسياحة، وشاحنات من غزّة حديثة تعمر في السد العالي وتشارك في إنشاء الطرقات المصرية. جامعات مصر فتحت أبوابها للطلاب الفلسطينيين بالمجان، ومن لا يريد الجامعة من حملة الثانوية كان بوسعه أن يعمل مدرساً في ربوع مصر براتب إثني عشر جنيهاً، خلال فترة الستينيات. بالطبع لا يُنسى

أن قطاع غزة أصبح منطقة تجارة حرة بين العدوان الثلاثي وحرب حزيران، وخدم أيضاً الكثير من المصريين الذين كانوا يحملون من غزة إلى مصر البضائع المستوردة مثل المعدات الكهربائية والترانزستورات وقمصان النايلون.

صباح الاثنين كنت مع أبي الديب في الطريق إلى حي أمبابة. وبعد جهد كبير اجتزنا كوبري الجلاء بواسطة الشاحنة، حيث شاهدنا الناس في كل مكان وليس على الأرصفة فقط، فسمعنا أن الحرب قد اندلعت، والأخبار تتطاير من الأفواه إلى الآذان: جيشنا على مشارف تل أبيب، الأردن احتل القدس الغربية، سوريا تقصف المستوطنات وقواتها أخذت طبريا وتتقدم باتجاه حيفا.

"راحت علينا يا أبو الديب".

"الله يستر من العواقب". رد الرجل بصوت منخفض على تعليقي العفوي ونحن ننطلق بعيداً عن وسط المدينة والكوبري في طريقنا إلى الكاراج ومن ثم إلى الصعيد. توقفت عن الكلام لأنّ تعابير سحنته لا تشجع على المتابعة، ولم أعرف إذا كان متخوفاً من هياج الحشود والحوادث التي تحصل مصادفة، أم لأنه كان يعرف أشياء لا يعلمها كل الناس. لكن ما دار في ذهني آنذاك هو تشوق الشباب لخوض غمار الحرب، أو بالأحرى توعدهم لما سيفعلونه عند اقتحام مدن فلسطين المحتلة. لا أدري إذا كان تشوقي للانتقام كرد فعلٍ على ما فعلوه بنا أو للحصول على غنيمة. لم يكن معنا راديو في الشاحنة، وتلقفنا الأخبار، التي كانت كلها مشجعة، من الاستراحات في الطريق الطويل حتى دشنا.

وصلنا دشنا في حالة تأرجح لمشاعرنا بين صعود صوت أحمد سعيد في المقاهي، وتوجس أبي الديب بين محطات الاستراحة. كان يتحدث عن عمليات الفدائيين وتدمير إسرائيل لطائرات سورية

قبل بضعة أشهر، وقال إن إسرائيل أثناء حرب 1956 بحثت في قطاع غزة عن الفدائيين الذين نفذوا عمليات عبر الحدود قبل ذلك العدوان. كنت أعرف عن أولئك الفدائيين من أحاديث المقعد وما يُسر أبي إليَّ به.

على مائدة العشاء تجمع السواقون وبعض الفلسطينيين الآخرين ممن كانوا أيضاً يعملون هناك. تحدث عمي عما كان يسمع طوال النهار من إذاعة لندن، فلم يكن يثق في أي إذاعة عربية، وطلب من الجميع عدم تكرار الأخبار أمام المصريين. لكن في مساء اليوم التالي سمعت رجال دشنا على المقهى يناقشون ما سمعوه من راديو إسرائيل عن تدمير سلاح الجو المصري واحتلال القدس الشرقية. لم تطل فترة التعذيب الإخباري إذ حُسم الأمر في اليوم التاسع من الشهر حين أعلن الرئيس جمال قراره بالتنحي، ولم يعد سراً سقوط سيناء والضفة والجولان. لكن الوجوم صاحب كل الوجوه لأسابيع تلت، وكان الرئيس قد تراجع عن قرار التنحي استجابة للتظاهرات التي انطلقت في القاهرة.

أصبحت أرافق السيارات منذ الفجر إلى الجبل، خلف نجع أبو مناع البحري، حيث نحمل الزلط ونوصله إلى الطريق الجديد قيد الإنشاء لتحسين تواصل قرى الصعيد مع بعضها ومع القاهرة. وبعد أسابيع قليلة أصبحت أتولى قيادة الفطساء قبيل فترة الظهر بينما كان أبو الديب يُطيل من فترة استراحته وينام في ظل عريشة صغيرة في المحجر. في المساء اعتدت على أن أضع الديزل على جلدي وصرت أنام كالميت. في دشنا يمكن أن يكون هناك مليون بعوضة لكل بني آدم. صيفها حار ورطب ولا يمكن معه استعمال أي غطاء للحماية من أسراب البعوض. ابن عمتي، محمد موسى، أطلعني على سر الديزل منذ الليلة الثانية، وقد فضلت هذه الوصفة على

تورم الجسد من البعوض. هذه الحال وطيبة أهالي الصعيد وكثرة أبناء بربرة وفلسطين من حولي، أبعدني عن التفكير المتواصل بما آلت إليه أحوال الأهل في قطاع غزة. أحياناً كانت زوجة عمي الثانية، فاطمة، تُذكرني بأن قلب أمي يتقطع الآن خوفاً عليَّ. لم تتوافر لدينا في الصعيد أي فرصة للتواصل مع الأهل أو الاطلاع على أي خبر خاص بهم، أو إرسال أي شيء عنا. لقد غلب العام على الخاص وتقطعت بنا السبل وأصبحنا مثل قطرة ماء في نهر النيل الحاضن لدشنا.

قبل مغادرة الصعيد، بعد ثلاثة أشهر من الإقامة، بدأت التأمل في حياة الناس هنا. لباسهم واحد وموحد، يصعب عليّ اتخاذه كمقياس لتمييز متوسطي الحال من الأغنياء، أو القاصرات من البالغات ومن النساء، خصوصاً من الخلف. ومهما قربت أو بعدت مسافة المراقبة، فلباسهن أيضاً متشابه. فقط إذا مررت على واحدة من الترع الثلاث التي تتمدد بموازاة النيل شمال البلدة، أو على النهر والترعتين جنوباً، فقد تلمح أنثى تغسل ملابس العائلة وقد أحاطت اللجن المخصص للغسيل بساقين تظهر ركبتاهما، حينذاك يمكن للخبير تخمين سنها. كما يمكنك إلقاء التحية على أي أنثى من بعيد ومن دون التفات، وستردّ عليك التحية بمثلها. في البلدة لا تكف عن سماع تبادل التحيات، وفي المقهى، خصوصاً عند المساء، تشعر بأنك وسط طنين خلية نحل. بعضهم معمّم، وبعضهم الآخر يضع لفحات صوفية فوق كتفيه في عز الصيف، أو يستغني عنها بجلباب يضعه فوق كتفه، مثل الأعيان في فلسطين وعند البدو حين يضعون عباءاتهم فوق أكتافهم. بالمصادفة عرفت في الأيام الأخيرة قبل السفر إلى القاهرة أن الكثير من السكان في الصعيد

أقباط، بمن فيهم بعض الذين كانوا يُحملون سياراتنا بواسطة المعاول.

طيبة وفقر مدقع لم أشاهد مثيلاً لهما حتى بين فقراء مخيمات قطاع غزة. هناك يحصل اللاجئ على مساعدة عينية كل أسبوعين من وكالة غوث اللاجئين، طحين وسكر وأرز وسمن وعلب سردين وزبيب وملابس مستعملة. وهنا خبزهم شمسي، يعيش رغيفه لأسبوعين أو ثلاثة إذ يصبح في اليوم التالي على صنعه مثل حجر مستدير، فيكسر العمال عند كل وجبة بعضاً منه، ويغمسونها في شوربة ماء تسبح فيها بعض حبات الفول، ويتناولون البصل والجرجير كخضار طازجة. لكن حجم معول الصعيدي يفوق بثلاث مرات معول الفلسطيني. إنهم ليسوا كسالى على الإطلاق، ومع ذلك أتعجب من تكدسهم على مسافة لا تتجاوز أربعة كيلومترات على كل من ضفتي النيل. بعد ذلك تتمدد صحراء جبلية تسعى فيها الأفاعي والعقارب. وبين هذا الأصفر وذاك الأخضر اشتركت بعض سيارات الفلسطينيين في مقاولة بناء الأعمدة الحديدية الضخمة استعداداً لنقل كهرباء السد العالي إلى العاصمة. أما شقة دار عمي في دشنا فقد كانت تضاء بالفوانيس الكازية على عكس الشارع الرئيسي الترابي في دشنا حيث انتشرت لمبات كهربائية على الأعمدة أو في زوايا البيوت.

وبدفع من الآخرين نجوت من مصير التحول إلى سائق شاحنة، إذ اتفقت مع عمي، وبدعم مطلق من زوجته فاطمة، أن يؤمن لي مصروفاً شهرياً لأعود إلى القاهرة ومواصلة دراستي الثانوية. لم ترزق فاطمة بأطفال، وكانت تلقب بأم ابراهيم كونها تبنّت معنوياً ثاني أبناء أختها، وخامس أبناء ضرتها، وكلاهما إبراهيم. وكانت

أيضاً تدلعني كثيراً في سنوات الطفولة في رفح، وتسهر على راحتي في دشنا قدر الإمكان.

في العاصمة انتظرتني حرب بيروقراطية معقدة، حيث وضعت التسهيلات للفلسطينيين الذين تقطعت بهم السبل. أما بالنسبة إلى التلاميذ أمثالي فقد أنشئت إدارة شؤون الوافدين في وزارة التربية والتعليم. هناك تكتب إقراراً بوضعك الدراسي وتتعهد بصحة المعلومات وتحمل النتائج إذا ثبت العكس لاحقاً. بعد ذلك تراجع لأيام، وتتسلم تحويلاً إلى مدرسة في الحي الذي اخترت السكن فيه. في هذه الأثناء كان لا بد من تحويل ورقة تصريح الزيارة إلى جواز سفر، ولهذه الغاية فلا بد من زيارة إدارة شؤون حاكم قطاع غزة. لقد كانت قصة سهلة، إذ هناك أقارب لي يعملون فيها. صورتان شمسيتان من إحدى الكاميرات ذات القوائم الخشبية المنتشرة أمام الإدارة، تقدم مع طلبات كثيرة تملأ بالمعلومات، مرفقة مع التصريح، ثم انتظار أسابيع ريثما تتسلم "وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين. الجمهورية العربية المتحدة". وفي داخل الوثيقة الزرقاء إذن بالسفر إلى كل الدول العربية. التعقيد الحقيقي يأتي بعد كل ذلك لأنني أصبحت وافداً وأحتاج إلى إذن إقامة يتم ختمه على الوثيقة، وهذا الإذن يحتاج إلى أوارق ثبوتية من المدرسة ومن إدارة الحاكم ومن أقرب قسم شرطة حيث تقيم، ثم طوابير طويلة في المجمع وسط القاهرة، قبالة مبنى الجامعة العربية. وحين تصل آخر النهار إلى الموظف يخبرك بنقص في الأوراق أو بضرورة شراء دمغة، فتذهب إلى المكتب المختصّ فإما أن تجده مغلقاً أو أنه ينتظر وصول طوابع. كذلك، لا بد من تجديد هذه الإقامة كل ستة شهور، وهذا التجديد يحتاج لمدة أسبوعين، والذي يريد أن يسافر إلى خارج مصر فعليه أخذ تصريح بالعودة إليها قبل السفر، وهذا

الآخر مرتبط زمنياً بمدة الإقامة. لقد نمت ذات مرة ليلتين في قسم شرطة القصر العيني لتخلفي عن تجديد الإقامة.

إنها فترة تضارب لا ينجو منها إنسان إلّا برحمة من الله والكثير من دعاء الوالدين وكثرة الأقارب في القاهرة. هزيمة نفسية، إذلال بيروقراطي، تصبر على دراسة لم تصل حتى التوجيهي، بحث دائم عن سبل إيصال المصروف، متابعة أخبار الفدائيين في الأردن وثورة في النفس، هذا إلى جانب تشنج الهرمونات في عز فترة المراهقة وفي أكثر عواصم العرب انفتاحاً. تقمصت دور طالب الجامعة عند الذين لا يعرفونني وخصوصاً عند استئجار الشقق؛ شكلي الخارجي يساعد أحياناً على تمرير هذا الادّعاء، ولكن بعد أيام كان الأمر ينكشف. تعرفت على أعضاء من رابطة الطلاب الناصريين، وهي رابطة كانت تعمل في دول أوروبا كجزء من الذين تعاطفوا بأشكال عدة مع التوجهات الناصرية. لقد كان بينهم ابن عمي فتحي الذي ولد في بربرة وتعلم في مدرستها ثم أكمل تعليمه في رفح ونال شهادة في الهندسة من بلغراد، يوغسلافيا. ومنهم أيضاً مفلح السويركي الذي يدرس الطب في القاهرة، والعشرات غيرهم. لكن المرجع الأيديولوجي هو أحمد صدقي الدجاني، أبو الطيب، الذي يتحدث بالفصحى على الدوام. دارت الأحاديث في المقاهي حول مقررات مؤتمر قمة الخرطوم، وقبول قرار 242 الذي يتحدث عن مشكلة لاجئين. جماعة فتح كانوا ضد القرار ويسعون لتوحيد قوى الفدائيين خارج إطار منظمة التحرير الفلسطينية. الناصريون كانوا أيضاً مع بداية العمل الفدائي المسلح ولكنهم لا يعارضون السياسة الرسمية المصرية. في المقابل لم تمنع الحكومة المصرية حركة فتح من تجنيد الشباب، بل أمكن إقامة مخيمات تدريب للشباب والأشبال الفلسطينيين، وسمحت لمؤتمر يُعقد على

أرضها ضم الفصائل المعارضة لمنظمة التحرير. كان البلد بحاجة إلى كل ما يساعد على التئام الجراح، ولم تكن البيانات عن استمرار المناوشات والقصف عبر القناة تروي عطش الناس، ولا الإعلان عن تلك العمليات في عمق سيناء والتي يقوم بها أفراد من جيش التحرير الفلسطيني أُعيد تجميعهم في مصر وأرسلوا خلف خطوط العدو.

في الثاني من أبريل عام 1968 تناولت العشاء في منزل عمي أبي سمير بمنشية البكري، وهو بالأحرى ابن عم أبي، ولكنني وإخوتي نلقبه بالعم. وأم سمير هي أخت فاطمة، أم ابراهيم. ثم جنحت بعد العشاء لزيارة ابن خالة أمي، حسن سعيد، في حي الزيتون القريب من المنشية. وحسن هذا ممن توظفوا على أساس شهادة الثانوية العامة بإثني عشر جنيهاً للتدريس في القاهرة، لكنه قرَّر أن يدرس أيضاً في كلية الألسنية، أي اللغات. المفارقة، التي كان يتندر بها أهل بربرة في رفح، أن حسن يتأتئ أثناء الكلام، وخصوصاً إذا تشنّج قليلاً، فقد يغيب الحرف من الكلمة عن أخيه لثوانٍ طويلة. فكيف إذاً سيصبح خبير لغات إنجليزياً وفرنسياً! أتذكر الحاجة ثريا عندما كانت تشتكي لأمي بأن حسن لا يكمل تناول نصف البيضة عندما تقليها له. لم تتغير نحافته وإن كان ظهره تقوس قليلاً، وبقي على عدم إقباله على الطعام. قدّم لي الشاي طازجاً وشاهدت لديه في المطبخ شاياً يُعاد تجفيفه ليستعمل مخلوطاً مع الجديد مرة أخرى. لم يفت عليه تذكيري بما أعرفه عن فقدان السكر والشاي في البلد. إثر ذلك، ارتفع الضجيج القادم من جهة شارع طومانباي، ورفض حسن أن ينزل معي لاستطلاع الأمر، فهو من هواة الانعزال.

قادتني أذني إلى تجمهر أمام كنيسة السيدة العذراء. الناس ينظرون إلى قبة الكنيسة، والبعض يقول "اهه اهه".

"ماذا تنظرون؟" سألت أحدهم.

"السيدة العذراء". قال من دون أن ينظر إليَّ. شققت طريقي بين آلاف البشر للاقتراب من موقع متقدم قليلاً وكان الشك قد تملكني إذ لم أشاهد بعد ما ينظر إليه كل هؤلاء.

"إنت شايف حاجة فعلاً؟".

"طبعاً إنها تتمايل فوق القبة بالضبط ألا تراها؟". أجابني الرجل بصوت جهوري وهو يبحلق في وجهي. لم أسكت أو أتّعظ خوفاً من ملامحه. أدار وجهه نحو القبة وأشار بيده ليرشدني.

"اهه بترقص فوق القبة". قلت له وأنا أضحك لأني لم أشاهد بالفعل أي شيء وظننت الأمر نكتة.

"بترقص! إيه بترقص يعني؟" بدأ يصرخ عليَّ قد جحظت عيناه واحمرَّت مثل الجمر.

"دي أم كلثوم بتاعتكو اللي بترقص، دي تحية كاريوكا اللي بترقص". ارتفع صوته أكثر وبدأت الشتائم تلاحقني حتى ذبت بسرعة بين الناس متظاهراً أنه لا يقصدني بكلامه.

في صباح اليوم التالي كانت الصحف المصرية الرسمية تحمل عناوين رئيسة عن ظهور السيدة العذراء. وجاء في التفسيرات طوال الأسابيع التالية أنها تهرب من الاحتلال في القدس إلى مصر، وأنها إشارة خير وهي تدل على عدم تخلي الرب عنا بعد الهزيمة. ثم توالت الأخبار عن كرامات شفاء مرضى عجز الطب سابقاً عن مساعدتهم. كذلك نشرت الصحف أيضاً صوراً هلامية لأجسام قيل إنها أسراب حمام، ثم لجسم مستطيل رآه المؤمنون وكأنه السيدة العذراء تحمل سيدنا المسيح في حضنها. أعلن أيضاً عن زيارة

الرئيس جمال وسهره لساعات هناك، ثم تقرر تسييج الموقع وأخذ رسم دخول من الزوار يعود ريعه للكنيسة.

في الأسبوع السابق لظهور العذراء كان المواطن العربي منتشياً بالنصر في معركة الكرامة. تراوحت الأخبار عن خسائر إسرائيل بين 250 قتيلاً كحد أقصى وثلث ذلك العدد كحد أدنى، ودُمِّرت لهم مائتا ألية، وحوالى 500 جريح. لكنهم أثناء الانسحاب الإنهزامي أخذوا 147 مزارعاً وادعوا أنهم فدائيون فلسطينيون. نشرت الصحف صور الملك حسين فوق دبابة إسرائيلية مدمرة، وقيل إن أبا عمار قاد الفدائيين. فهمنا أن إسرائيل هجمت على الكرامة حيث مركز تدريب للفدائيين، وأن الجيش الأردني في المنطقة بدل أن ينسحب اشترك في القتال وأخذ يقصف المهاجمين بينما الفدائيون ثبتوا في مواقعهم ونصبوا الكمائن. سقط 61 شهيداً من الجيش الأردني، و91 من الفدائيين، وكان هذا تعبيراً عن روح جديدة من التآخي خصوصاً في ظل ما تم من قتال بين الجيش والفدائيين، الذي قام بمحاصرة مخيم الكرامة للاجئين في الأغوار قبل شهرين فقط من الهجوم الإسرائيلي. وكانت الدهشة حين أعلن الملك حسين في خطابه إثر المعركة "كلنا فدائيون". لم تمض فترة طويلة حتى تحولت معركة الكرامة إلى مادة خلاف حول من الذي قاتل وانتصر. لكن على إثر ذلك النصر بدأ طابور المتطوعين الفلسطينيين والعرب يطول أمام مكاتب فتح التي فتحت علناً في الأردن مما أدّى إلى نقص في الأسلحة التي يتمّ تزويدهم بها، ونقص الوقت لتدريبهم على حرب العصابات. القصص التي كنت أسمعها في المقعد في رفح قبل النكسة، عما حصل في ثورة الـ 1936 وحرب 1948، أخذت تتكرر الآن تدريجياً. نقص سلاح، سوء تدريب،

استعجال في العمليات العشوائية، وبالطبع الخلافات الذاتية وكذلك مع العرب.

إثر معركة الكرامة، وبين ليلة وضحاها تحولنا من لاجئين تائهين إلى أبطال. وضعت حول الفلسطيني في مصر هالة من التبجيل، وأحرجني مدرس التاريخ بسبّ وشتم لزملائي طلاب الصف الثاني الثانوي لأنهم ليسوا (رجالة) مثلي، ووصفهم بأشكال قبيحة وهو يكيل إليَّ مديحاً لم أتجرأ على مواجهته. أخبرني الأستاذ أيضاً في ثورته على الطلاب أن بوسعي السفر فوراً إلى الأردن للقتال ضد إسرائيل، وأنه سيضمن نجاحي هذا العام حتى لو لم أعد في موعد الامتحان.

في الأسبوع الأول من الإجازة كنت في دمشق لأن دخول أهالي غزّة عبر مطار عمان كان مستحيلاً. وفي دمشق كان هناك من يرشدك إلى موقع التدريب في الهامة، أو كيف تصل إلى عمان عبر الحدود البرية من دون مستندات أو أوراق. كانت الرحلات بين القاهرة ودمشق بواسطة طائرة ذات محرّكين. تغادر مبنى المطار على الأقدام لتقف في طابور عند سلَّم الطائرة. لا تفتيش على الإطلاق ذهاباً أو إياباً، لكن التدخين كان ممنوعاً قبل الصعود خوفاً من تطاير الشرر، ولكن داخل الطائرة يعبق الجو خلال دقائق. وبعد أن خطفت الجبهة الشعبية أول طائرة، انقلب الوضع في مطاري دمشق والقاهرة، وعبر العالم.

"اللي ما معوا جواز سفر يا شباب يحكي الآن". قال سائق التاكسي للركاب ونحن نقترب من نقطة حدود الرمثا. أعلنت وابن قريتي، محمود صلاح، أننا لا نحمل الفيزا. وعندما نزل السائق إلى مكتب الجوازات أشار إلينا من خلال فتحة في السياج الفاصل.

"ادخلوا منه وانتظروا على الجهة الأخرى". وهكذا كان، تركنا حاجياتنا في السيارة وانتظرناه على الجانب الآخر. عندما اقترب منا لم نشر إليه بالوقوف كونه يعرفنا، ولكنه بدأ يعطي إشارات ضوئية ثم توقف إلى جانبنا سائلاً إذا كنا نريد الوصول إلى عمان.

لقد احتل أحد مقعدينا ضابط جوازات أردني في طريقه إلى العاصمة. حشرنا أنفسنا في المقعد الخلفي مع الراكبين الآخرين، وتظاهرنا أننا من سكان الأردن، وعندما سألت السائق ونحن نمر إلى جانب الاستاد الرياضي بعمان، ما هذا؟ أجاب الضابط إذا كان "الشباب مش من الأردن" ثم ضحك.

حالفني حسن الطالع بالاهتداء الفوري إلى الوضع العائلي قبل الانزلاق مع إحدى المنظمات التي فتحت عشرات الدكاكين. وجدت أخي خضر يعمل في الإعلام الموحد مع فتح، والذي كان تحت إشراف كمال عدوان. وإلى عمان أيضاً سبقني أخي عبد الرحمن، أبو رمزي، قادماً من رفح عبر الجسر في سيارة خالي حسن الذي انتقل للعمل مع الاونروا في عمان. عشرات المعارف من كل الأعمار والأماكن أصبحوا في الأردن. بعضهم حضروا ضمن الـ 300 ألف لاجئ إثر النكسة، وغيرهم جاؤوا تباعاً، كزوار أو مغادرين فلسطين طوعاً.

شوارع عمان تعج بالملثمين حاملي الكلاشنات، وفي كل مقهى أو دار سينما أو حافلة تشاهد وجهاً تعرفه من السابق، سواء من فلسطين أو ممن تعرفت إليهم في مصر. ملصقات تملأ الشوارع بصور الشهداء أو البلاغات العسكرية عن عمليات في قلب فلسطين. رصاص يلعلع في الشوارع من دون سبب، فيقع أبرياء من شرفاتهم أو يصابون داخل بيوتهم، ولا من حسيب أو رقيب، إنها ديمقراطية البنادق، فوضى شريعة الغاب؛ فإذا كان لديك سلاح فهذا يعني أن

بوسعك الاستقواء على غير المسلح، وأن تكون مع منظمة كبيرة فأنت أهم من المسلح الآخر.

بعض الأحاديث السياسية التي كنت أسمعها في القاهرة لا أثر لها الآن. لا حديث عن نقل الثورة قيادة ومقاتلين إلى الأراضي المحتلة، وهذا ما أعلنته فتح قبل معركة الكرامة، بل أكدت آنذاك أن تلك المهمة قد تمت بالفعل، وأن ما يدور في دول المحيط هو دعم فقط. في عمان أصبحنا نتندر بكثرة العمليات الفدائية التي يُعلن عنها، ووصل الأمر إلى تقاتل منظمات فيما بينها على تبني عمليات يعلن عنها راديو إسرائيل. كل منظمة أقامت مكتباً لرصد راديو العدو، وبالتحديد لالتقاط أخبار ما يعلنه الراديو من أحداث. حريق في غابة، حادث سير غامض، عملية تخريبية، وما شابه ذلك مما يدفع كل منظمة لإصدار بيان أنها المسؤولة عن ذلك العمل. الكثير من الشباب زجتهم الحماسة إلى أحضان منظمات هامشية لم يتعرفوا على خلفياتها، وزج بهم في عمليات متسرعة فقضوا حتفهم أو فقدت أثارهم، مثل صديقي وابن قريتي وصفي (زعرب).

قضيت العامين التاليين، أثناء دراسة الصفّين الثاني والثالث الثانويين، متنقلاً بين شقق القاهرة، التي كنت أبدّلها كل شهرين أو ثلاثة بالاشتراك مع زملاء جدد. وفي الصيف كان وقت معسكرات التدريب والتجوال في دمشق وعمان، وكنت أزور الصعيد المصري أيضاً بحيث تحول إلى شيء من اختصاصي أتحدث عنه في اللقاءات مع الأصدقاء الناصريين. في ربيع 1969 تم نقل سيارتين من سياراتنا للعمل بمحاذاة قناة السويس. رافقت السائق محمد المدني لعدة أيام. والمدني هو لقب له كونه تزوج من مدنية ذات أصول يافاوية ولديها لهجة مختلفة عن الفلاحين. اتضح لي أننا ندخل إلى مواقع عسكرية لا يدخلها المصريون بشاحناتهم مثلنا.

كانت مواقع صواريخ نصبها السوفييت ويشرفون على إدارتها، ولا أدري لماذا يأتمنوننا ولا يثقون بأخوتنا المصريين أبناء البلد. وكالعادة كنا نشيد طرقات. ذات يوم، وأثناء فترة الظهيرة، قلبت السيارة حمولتها الرملية وتصاعد منها غبار إلى السماء. وقبل مغادرة المكان سقطت حولنا بضع قذائف مدفعية إسرائيلية، احتمينا تحت الشاحنة حتى توقف القصف، ثم عدنا لمواصلة عملنا. في تلك الأيام وبعد الانتهاء من نصب الصواريخ وإعادة تسليح الجيش المصري صعّد الرئيس عبد الناصر الاشتباكات المتفرقة عبر السويس إلى حرب استنزاف، واستشهد القائد عبد المنعم رياض في ذلك الأسبوع.

وبينما كانت مصر تسير بحسب خطة عسكرية وسياسية لاستعادة سيناء، كان وضع الفلسطينيين في قمة الفوضى السياسية والعسكرية في الخارج والداخل. حركة فتح ترفض علناً الحلول السلمية لمسايرة الشارع الفلسطيني والعربي العنتري، بينما قيادتها في الواقع تتمنى أي حل يسلمها قيادة دولة فلسطين. ومنظمات اليسار تعارض النهج الفتحاوي وتريد السيطرة على الأردن للانطلاق من هناك لتحرير فلسطين، بينما إسرائيل تؤكد أن كثافة الوضع الفلسطيني العسكري والبشري تعني أن الأردن هي دولة الفلسطينيين وأنها تشكل خطراً على إسرائيل.

في العامين الأولين بعد النكسة تغربلت عناصر الثورة وأصبحت الغلبة فيها للمدّعين والجهلاء والمتبجحين وعقلية العنف الأعمى، واختلطت القبلية مع العنترية الفردية بالنسبة لكل مسلح. تجلت أيضاً عوارض سلبية في المجتمع الفلسطيني أهمها الكذب والدجل للحصول على الدعم المالي العربي عبر مؤسسات منظمة التحرير. وأصبح، بقدرة قادر، في كل بيت أسير ليقبض أهله مخصصاته،

وسجلت أضعاف أرقام البيوت التي هدمت من قبل إسرائيل وبالتالي قبض بعضهم أثمانها كتعويض من المنظمة، وكثرت الخلايا الثورية الوهمية في فلسطين لتلقي الرواتب. في الوقت ذاته كانت إسرائيل، تضرب بيد من حديد على كل من تشك في انتمائه إلى الفصائل من جهة، بينما تفتح أبواب العمل وحرية الحركة على مصراعيها للفلسطينيين في الضفة والقطاع من جهة أخرى. هكذا انعدم العمل العسكري الفلسطيني في الداخل، وبدأت الصراعات المسلحة بين الفدائيين أنفسهم في الأردن، ولم يكن الملك حسين بالطبع مسروراً لما يحصل في بلده وللمخاطر المحدقة به .

في العام التالي كنت غاضباً نتيجة حصول أشياء كثيرة، لم أتمكن من دخول كلية العلوم السياسية في القاهرة، وأصابتني الملاريا لشهور قبل الامتحانات، رقدت أثناءها في فندق قصر المدينة حيث تقاطع شارع بورسعيد مع سوق الموسكي الشهير. اهتمّ بي آنذاك صديقي سالم نصار مسؤول تدريب الأشبال في القاهرة، ورفضت الانتقال إلى أي من دور الأقارب. في هذا الفندق كان ينزل أبي كلما حل في القاهرة، والجميع هنا يعرفونه ويقدرون أفضاله، ولم يكن أي منهم يجرؤ على طلب المستحقات المتراكمة. كان قصر المدينة ملجأي كلما ضاقت الدنيا في وجهي. أفطر شاياً، وأتعشى فولاً بالسمن البلدي أو كوارع يجلبها الفرّاش علام. وأثناء شهور الملاريا لم تتقبل معدتي سوي الجيلي الفاقد تقريباً لأي قيمة غذائية.

في الثامن والعشرين من سبتمبر 1970 غادرت غرفتي وحييت موظف الاستقبال كالعادة: "صباح الخير".

"هو أنتم خليتوا فيها خير". رد علي بعصبية لم أعهدها في قصر المدينة ولم أتوقعها منه بالذات.

"وحد الله على الصبح واحنا اللي موتناه؟" أجاب أبو طلال مشيراً إليَّ أن أجلس إلى جانبه في الصالة. أبو طلال هو الآخر من بربرة ويعمل في قيادة السيارات، وكان في مصر عندما وقعت النكسة ورافقنا في معظم مواقع العمل في الصعيد. أصل عائلته من مصر، ولكنهم قطنوا بربرة في فلسطين مع الأهل وبقوا معنا في سنوات اللجوء في رفح. أفهمني أن الرئيس مات بعد محاولته الصلح بين ياسر عرفات، الذي أصبح منذ عام رئيساً لمنظمة التحرير التي كان يريد إلغاءها، وبين الملك حسين، وذلك على أثر الحرب الأهلية التي كشَّرت عن أنيابها في الأردن بعد تصاعد أزمة خطف الطائرات ونسفها. لم أكن في وضع من يشرح لموظف الاستقبال أن خسارتنا أكبر من خسارتهم. خرجت من الفندق وسرت مع الناس باتجاه قصر القبة. ركاب فوق سطوح الباصات كانوا أكثر من المزدحمين في داخلها، والأمة كلها تزحف لاإرادياً حيث منزل الرئيس. نواح وعويل وهتافات ودموع صامتة ووجوه شاردة وإناث وذكور غير متنبهين لما يرتدونه من ملابس. كان القدر قد سمح لي بمشاهدة الرئيس قبل موته بأيام عندما مرَّ مصادفة في الشارع من أمامي يتوسط النميري والقذافي واقفين في سيارة مكشوفة. التقت عيناي بعينيه ربما ثانية واحدة، لوَّح لي بيده، لكني تكهربت ولم أرد التحية، كان عملاقاً لطيفاً حنوناً، أعظم بكثير مما يظهر في التلفزيون.

في الصيف وقبيل رحيل عبد الناصر زار القاهرة أحد الطلاب الفلسطينيين الناصريين، عبد الرحمن الصباح، وكانت معه صديقة ألمانية اسمها ماري لويزا، فساعدتهما في الإقامة والسياحة قدر المستطاع. حصلت منه على معلومات عن كيفية دراسة العلوم السياسية في ألمانيا، فبدت الظروف التي حدثني عنها كأنها خلقت

من أجلي، وكان شعوري بالغربة في مصر قد تعمَّق بسرعة. بعد أسابيع، وفي اليوم الأخير من شهر رمضان، وبعد شهرين تماماً على موت الرئيس، كنت في مطار فرانكفورت مسلحاً بفيزا سياحية، وليس بهدف الدراسة، وبمئة دولار في الجيب لا أكثر، لكن كل ما تمنيته على الصعيد الشخصي تحقق لي في ألمانيا بفضل مساعدة أصدقائي وأصدقائهم، وجيران من رفح، مثل سعدي زعرب، الذين سهلوا الطريق أمامي.

***

ضياع الأثر

فتح الشرطي وثيقة السفر ثم نظر في وجهي. كانت الصورة مختلفة عن الأصل، لأنّ المصوّر التقطها لي قبل أن أقصّ شعري الذي كان أشبه ما يكون بتسريحة تشي جيفارا، ولكنّ الصورة، قد التقطت بشكل جانبي، ولم تكن السفارة المصرية معقدة آنذاك، فوضعوا الصورة على الوثيقة الزرقاء ذات المعلومات باللغتين العربية والفرنسية. (الجمهورية العربية المتحدة، وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين) .

واصل الشرطي تقليب الصفحات، على الأرجح، بحثاً عن فيزا دخول، ولكنه لم يعثر سوى على أختام أذونات الإقامة السنوية المتكررة في ألمانيا. أخذ يبتسم، وصار يضحك، وقهقه منادياً على زملائه للتفرج على هذه الوثيقة. أخذ بعضهم يترجم للآخرين من الفرنسية والعربية مما هو موجود على الغلاف: الجمهورية العربية المتحدة، أين هذه؟ قال أحدهم، فرد عليه آخر إنها مصر. وماذا يعني لاجئون فلسطينيون؟ سأل آخر بالإنجليزية ولم أفهم محتوى الإجابة التي تلقاها بالعبرية. كان ذلك في صيف عام 1972 في مطار تل أبيب. سألني الشرطي لماذا لم أتقدم بطلب فيزا إلى السفارة الإسرائيلية في بون. أخبرته أن عاصمة ألمانيا، آنذاك، بعيدة عن مدينتي، وادَّعيت أن أصدقائي من الألمان قالوا إنهم يأخذون الفيز هنا في المطار.

"هذا صحيح للألمان، ولكن أنت، من أنت؟ أنت غير".

"لماذا غير، لدي جواز سفر معترف به دولياً، وفيه أذونات إقامة ألمانية، ويؤكد لك أنني مولود في رفح بقطاع غزة وهي الآن مثل سيناء والجولان والضفة تحت سلطتكم".

"لا أريد الجدال معك، يمكنني التغاضي باعتبارك حالة فريدة ولأني لأول مرة أرى هذه الوثيقة. لكن لا بد من ختم الفيزا على جوازك هذا".

"فليكن" جاءه ردي من دون تردد. كنت أعرف أن الذي يريد زيارة المناطق المحتلة يتوجب على أهله تقديم طلب زيارة والانتظار طويلاً، ودفع رشوة حتى يحصلوا على الإذن، ثم يرسلون التصريح إلى صاحبه في مكان إقامته، فيحضر بواسطته ويدخل عبر الحدود من دون أن يختم الإسرائيليون على جواز سفره. مثل هذا الختم لو وضع على جواز السفر، كان سيعني بهدلة وسجناً في أي بلد عربي لأنهم لا يعترفون بإسرائيل وأختامها، ولم يجدوا طريقة ليزور الفلسطيني أهله، فاخترع لنا الإسرائيليون هذا الحل. هكذا ظن الجندي أنه صادني وأعجزني بطلبه ختم جوازي. كان بوسعي انتظار التصاريح، لكن وقتي كان ضيقاً بين الدراسة والعمل في الإجازات، واشتقت فجأة، بشكل جارف، لرؤية الأهل بعد انقطاع دام خمس سنوات. كنت قد التقيت بالوالدين في عمان قبل ذلك، ولكن غالبية أفراد العائلة يقطنون في قطاع غزة، كما أن الاشتياق كان لكل شيء. أردت رؤية الناس الذين أناضل سياسياً وإعلامياً وحزبياً من أجلهم في السر والعلن، ولماذا لا يفعلون ما يتوقعه منهم ابن العشرين عاماً.

خلال ربع ساعة من هبوط الطائرة كنت أقبِّل يد والدي الذي

حضر لاستقبالي مع صديقه مختار قرية يبنا، المختار عوض الله، ومعهما سائق سيارتنا الأجرة، حسين السلطان. لم تكن الاثنتان وستون عاماً قد تركت الكثير من الآثار على المختار، على الأقل منذ آخر مرة التقيته فيها في عمان قبل ثلاث سنوات. هذه أول مرة منذ النكسة ينتقل فيها أبي شمالاً إلى يافا وتل أبيب. وهذه الطريق كانت تحتم عليه المرور على مسافة أمتار من مدرسة بربرة وبيتنا وخزان الماء، وتمر من بين حواكيرنا وأشجارنا التي رحلنا عنها في خريف عام النكبة، أي قبل أربعة وعشرين عاماً فقط. كان أهالي بربرة من أواخر الذين رحلوا خوفاً على حياتهم، وذلك يوم الخامس من نوفمبر. لقد سمع الوالد الكثير من القصص عن أناس ذهبوا بعد النكسة لزيارة ما كان قبل النكبة يشكِّل بيوتهم وأراضيهم، ذهبوا ولم يعودوا. بعضهم سقط مغشياً عليه أمام الباب وعاد مشلولاً، وآخرون جلسوا تحت الشجرة وأعادوهم جثثاً هامدة. الجيل الأصغر كان يذهب ويحصد من العنب والجميز والزيتون ويعود بما جمعه إلى المخيم في رفح. بربرة وبرير وسمسم ودير سنيد وغيرها من القرى الجنوبية بقيت منذ النكبة وحتى سنوات ما بعد النكسة، مناطق عسكرية لا تستغل أراضيها، فصار أصحابها يزورونها ويحصدون ما ينبت في أراضيهم بعلاً على الأمطار من دون رعاية.

والدي رفض زيارة بربرة، وعندما كان يسافر إلى عمان كانت الطريق تتجه شرقاً إلى الضفة عند مفترق بربرة وقبيل رؤية القرية؛ كان يسافر عمداً قبل بزوغ الفجر ليصل الجسر عند الصباح. أخبرني بذلك في عمان. تفهّمت شعوره وتذكّرت كيف كان يعاند في عهد ما بين النكبة والنكسة في توصيل كهرباء إلى بيتنا في المخيم، أو بناء منزل جديد، وكيف كانت الوالدة تنتهز فرصة سفره لطلاء البيت

بالأبيض والأصفر قبل أن يعود. كان مُصراً على العودة إلى بربرة ولا يريد الخضوع للأمر الواقع عبر أي تغييرات تلغي صفة المؤقت.

شكرت المختار عوض الله على حضوره إلى المطار مع والدي، فقال إنها رحلة يقوم بها عن طيب خاطر. "كل الناس الآن تتجول، على الأقل المختار شاهد اليوم بربرة، وستراها أنت أيضاً الآن لأول مرة في حياتك. والله لو المختار يطلب لأمكننا أن نشرب قهوة فيها". نظر إليه أبي وفهم صديقه فوراً أن عليه تغيير الموضوع. كنت أعرف سلفاً الكثير من المعلومات التي تجمّعت عن بربرة بعد النكسة. حوّلوا مدرستها إلى مطعم بيتزا وسوبر ماركت، واستبدلوا بلاطة المرحاض العربي بكرسي. وما زالوا يستعملون خزان المياه. ولكنهم أزالوا الأبنية والجامع وأقاموا كيبوتس بمنازل على جانبي الطريق وأحاطوا المنازل بسياج حديدي بارتفاع أربعة أمتار. الأراضي والحواكير وطرقات الصبار التي تفصل بينها، والبيارات وأشجار السبيل وبئر الماء، كل شيء على حاله منذ عام النكبة 1948 .

فتحت لأبي باب السيارة الأمامي ليحتل مقعده، فرفض وأصرَّ على الركوب في الخلف مع صديقه، فانضممت إليهما وانطلقنا. "يفترض أنك تعرف الآن الإيتيكيت وأن الناس الأكابر يجلسون في الخلف والحرس في الأمام. كل الناس هنا تمشي بالغلط . يظنون أن التقديم هو الأفضل في كل الأمور".

نظر حارس الحاجز الأمني للمطار داخل السيارة قبل المغادرة؛ سائق تكسي تستند بطنه إلى مقود المرسيدس سعة السبعة ركاب، وشاب في العشرين أدار المقعد الأوسط ليواجه مختارين باللباس الرسمي. حطة بيضاء وعقال أسود وشوارب بيضاء وعباءات صيفية وضعت على الركب. لم نلتفت إليه، لكنه تفاهم مع حسين بينما

كنت أذكّر أبي بما حصل معنا ذات مرة في طريق العودة من غزة إلى رفح.

على مسافة ثلاثين كيلومتراً بين مدينتي غزة ورفح وجدت، قبل النكسة، ثلاث نقاط تفتيش ثابتة. كان أبي يسافر يومياً إلى غزة كونها المركز الاقتصادي، فيها الميناء والمديرية ودائرة الترخيص، ومقر قيادة قوات الطوارئ الدولية ووكالة الغوث، إلى جانب أهل الاختصاص في إصلاح السيارات وعصير الزيتون وصناعة الصابون، وبالطبع أفضل ثلاث دور سينما في القطاع، ولا أعتقد أن والدي دخل أياً منها. في أحد أيام صيف عام 1965 وجدت في صندوق السيارة علماً فلسطينياً أنيقاً ثلاثي الأضلاع ومزيّناً. وضعت العلم على سارية مخصصة لهذه الغاية على يمين مقدمة سيارتنا الشفرليت موديل 1956 ولم يحتج أبي عندما رآه. في طريق العودة إلى رفح أشار لنا الشرطي عند الحاجز الأول أن نتوقّف، وسأل الوالد عن الأحوال والأخبار ثم قال إن هذا العلم يوضع فقط على السيارات الرسمية وأثناء الزيارات الهامة.

"لا بأس سنزيله عندما نصل إلى الدار". قال أبي وتحركت السيارة بينما الشرطي يؤدي التحية. كان رجال الشرطة آنذاك من الفلسطينيين ولكنهم يعملون تحت إشراف ضباط مصريين كون القطاع وضع تحت الإدارة المصرية منذ انسحاب الجيش الملكي المصري عن فلسطين والصمود في قطاع غزة. في ذلك العام زار أحمد الشقيري قطاع غزة بعد أن تمّ تعيينه رئيساً لمنظمة التحرير التي ولدت في حضن مؤتمر قمة عربي. ساقونا من المدارس لنصطف على جانبي الطريق نصفق ونردد الشعارات ونلوح بالأعلام واليافطات. في ذاك الجو وضعت العلم على سيارتنا، ولم يكن أبي يعرف أن المراسم لا تسمح لنا بذلك الحق.

"الشفرليت الله يسهل عليها" قال المختار عوض الله في جو من المرح والتحسر. "دبابات اليهود ركبت فوقها وربنا ستر أبوك يومها". حصل ذلك في أول أيام حرب حزيران 1967، في الطريق الجديد بين رفح وخان يونس. شاهد الوالد رتل دبابات يتقدم جنوباً وظن أنها مصرية إذ كان القطاع يعيش فترة طوارئ وحشد قوات واستعداداً للحرب. فجأة أطلقت الدبابة على السيارة زخة رصاص، فقفز والدي من الباب وهرول غرباً بينما قفز أخي عبد الرؤوف من الباب الآخر وركض شرقاً وواصلت الدبابات سيرها على الإسفلت من فوق الشفرليت. عاد رؤوف، ابن الأحد عشر عاماً، بعد ثلاثة أيام إلى المنزل، كانت والدتي أثناءها تزور المستشفيات وتنظر في وجوه كل جثث القتلى الموجودة في الممرات بحثاً عن رؤوف بينهم.

كان المختاران قد تخطيا بآرائهما وأفعالهما طباع شبان العشرين، ومع أن سنَّهما يضعهما في فترة الحكمة السلبية، إلّا أنّ الظروف فرضت عليهما مسايرة الحياة والتفاعل وكأنهما من جيل ذروة الوسط أو أصحاب الحكمة الإيجابية. فترة الشباب استهلكت لديهما في ثورة العام 1936 وما تلاها من مقاومة وأحداث أوصلتهما إلى الهجرة واللجوء، وها هما يجبران على الخروج من غرفة انتظار العودة إلى جحيم التفاهم مع العدو الزاحف على ما تبقى لهم من فلسطين.

"هل تعرف ماذا قال....؟" نفيت برأسي لعوض الله، فأكمل جملته عن أحد مخاتير المواطنين "بعد يوم من الاحتلال قال: مات الملك عاش الملك". لم يتوقف عن الحديث وتزويدي بالمعلومات طوال الطريق. والقصد مما قال إن المختار المعني لا يرى فارقاً بين الحكم المصري والحكم الإسرائيلي. طوال العقدين

بين النكبة والنكسة تكونت اختلافات وصراعات مبطنة بين اللاجئين في قطاع غزة وأصحاب المنطقة من المواطنين. اللاجئون خسروا كل شيء، والمواطنون خسروا بعض الأراضي لإقامة المخيمات فوقها، بعضهم تقبل التعويض عن أراضيه من وكالة الغوث، وقلة رفضوا التنازل وفقدوا أراضيهم. لكن وضع المواطنين تحسن جرّاء الحركة التجارية ورخص الأيدي العاملة وبيع المحاصيل، وبالطبع مُنحوا كل المناصب الرسمية كونهم أبناء المنطقة ولأن السياسة العربية أرادت الحفاظ على الوضع المؤقت للاجئين. فقط المخاتير احتفظوا بمناصبهم ليكونوا حلقة وصل بين السلطات المصرية وبين المواطنين واللاجئين، واعتمد عليهم كثيراً في عملية التجنيد لجيش الشقيري.

في الطريق إلى رفح، وأثناء المرور وسط مدينة خان يونس تنبهت لكثرة المرتديات الزيّ الأسود، لم أهتم كثيراً لأنّ النّساء كن يضعن طرحة إذا ضمت، أي الطرحة باليد فلا ترى من الأنثى سوى عين واحدة. في رفح كنا نسمي المواطنات قلاعيات. عند مداخل رفح ومع دخول الطريق التي تحيط ببيوت الفلاحين، أو اللاجئين، اتضح أن السواد أصبح لباس كل من تعتقد أنها أصبحت أنثى. سألت لاحقاً إذا كان جند اليهود قد مارسوا الاغتصاب، وعرفت أن العكس هو الصحيح، فالكثير من جندهم مخنثون يبحثون عمن يمارس معهم من الشباب المحروم جنسياً. كما أن إسرائيل شرّعت أبوابها للعمال والزوار من رجال الأراضي المحتلة، وكان من ضمن اليهود المستفيدين أصحاب المزارع والمصانع وقطاع البناء بما فيه بناء المستوطنات، كما استفادت الباغيات اليهوديات ممن كن يعملن في مناخ من الحرية. لم يصبح لباس إناثنا الزي الإسلامي، ولكنه

كان اللباس القلاعي، لأنهن كنّ يردن التعبير عن الرفض لما يجري من قبل اليهود والعرب وربما من تصرفات رجالهن أيضاً.

كانت سياسة موشى دايان، وزير الدفاع في تلك الفترة، تعتمد على إحدى مقولاته بأن البطون المليئة لا تقرقع، وفي المقابل أصبحت طبعاً سياسة زعماء منظماتنا تقر بقرقعة البطون. أخذوا ينسفون باصات شركة ايجد الإسرائيلية التي تنقل العمال الفلسطينيين من الأراضي المحتلة إلى داخل الخط الأخضر. كان عليهم الخوف والامتناع عن دعم اقتصاد العدو، لكن عمالنا قرروا دعم أنفسهم لأن الأموال المخصصة لهم لم تكن كافية ولم يصل المحتاجون منها أي شيء يذكر.

"انتبه إلى هوائيات التلفزيونات في مخيم بربرة". قال المختار عوض الله وهو يودعنا بعد أن نزل في شارع البحر وقبل أن تنعطف السيارة إلى مخيمنا.

"بيوت الناس أصبحت مليئة بالمعدات الكهربائية المستعملة. الإسرائيليون يستعيدون نقودهم من العمال مقابل الزبالة التي يرمونها". تنبهت إلى مزيد من الغمّ على ملامح المختار والسيارة تتهادى بنا بين الحفر في الطريق. شاهدت بعض الأقارب يلوِّحون لنا بعد أن توقفوا لحظات عن هدم بيوتهم. نظرت نحو أبي بينما عيناي تجحظان استغراباً. سألته، وهو يضحك باستخفاف واستكانة، إذا كان وضع الناس الآن يسمح لهم بالهدم لبناء بيوت جديدة.

"الإدارة العسكرية تريد توسيع الشوارع وسط المخيمات ليسهل على دورياتهم الحركة فيها، وبالطبع نيتهم إنهاء وجود المخيمات. قالوا للبجم إن من يهدم منزله بيديه ويزيل آثاره سنعطيه نصف دونم

في منطقة كندا. عرضوا عليَّ مساحة أكبر لأصبح قدوة، رفضت العرض ولكن غيري وافقوا".

"لكن كندا تقع داخل الحدود المصرية في سيناء". أطلق هذا الاسم على المنطقة لأنها كانت تضمّ مخيماً لقوات الطوارئ الدولية، ومعظمهم من كندا، وهناك منطقة أخرى في شرقها اسمها البرازيل. وكان هناك جنود طوارئ هنود في الفترة بين حرب السويس وحرب حزيران، ولكن لم تتم تسمية أي منطقة باسمهم.

"قلت لكل واحد منهم إن كندا في مصر، وبكرة تسترد مصر أرضها وتغلق الحدود ويصبحوا خارج فلسطين مرة أخرى. لم يسمعوا، ولا يوجد بينهم من يصدق أن إسرائيل ستفقد سيناء أو الجولان. انبهروا مما يشاهدون في إسرائيل، وربما يتمنون أن لا ينتهي هذا الاحتلال. كل الناس صار معها مصاري وشيكلات. بعد هزيمة حزيران حذرت الناس من الهجرة إلى الأردن، وقلت للذين عزموا أنني لن أودعهم وأنهم سيندمون، ولكنهم هاجروا حينها، ولم يعد بوسعهم العودة الآن بعد أن ضاق الوضع هناك واتسع هنا". كنت أعرف أن والدي غير مرتاح من المواطنين ولا من قيادة المنظمات الفلسطينية، وأقدِّس فيه روح وعزيمة الاستمرار في الخدمة على الرغم من مبررات القنوط. قال لي مرة عام 1969 في عمان إن منظمة التحرير ينطبق عليها اسم منظمة "التعاريص" الفلسطينية. آنذاك كان على أبواب الستين ولم يتردد في تقديم النصح والمشورة للمعنيين كلما حضر إلى عمان.

قبل تخطي عتبة البيت كانت عائشة قد خرجت من بيتها المقابل وشدتني نحوها من خلال حزام الجاكيت الخلفي. قبّلتها كثيراً وأنا أتحسس شعرها وأضحك. "أرأيت كم هو قوي الآن؟" فهمت

إشارتي إذ كنت دوماً أجرّها منه عندما نتعارك، وكان سلاحها القرص وأصابعها مثل الكماشة. تنفست الصعداء حين أكّدت أختي أنها قد لبّت ما طلبته منها قبل سنوات وحافظت على دفاتري الخاصة. كان الخوف أن تتبعثر وتضيع بفعل الصغار الذين يجوبون كل غرف البيت. كنت في صباي مغرماً بالكتابة والتسجيل. هكذا وضعت في دفاتري تلك كل الروايات التي سمعتها من الأهل عن حياتهم في بربرة، بل سجّلت قصص أبو زيد وعنتر وسيف بن ذي يزن التي كان ابن عم أبي، حسن الشيخ، يرويها في المقعد كل ليلة تقريباً. كانت رواياته تتم ضمن أطر وفي مواعيد محدّدة، ويحرص الجميع على حضورها والإنصات قدر الإمكان ومن دون مبالغات في ردود الفعل. رواياتي عن الأهل كانت مختلفة ومن شقين وهي تخصّني فقط. سجلت ما يشبه يومياتي الذاتية، واهتممت أكثر بتسجيل ما سمعته من تفاصيل حياة الأهل في بربرة قبل النكبة. هذه الدفاتر حملتها معى في نهاية الزيارة عائداً إلى المانيا ورافقتني في تنقلات الإقامة الكثيرة حتى الآن، ومنها زادي لما سجّلته هنا.

منذ ما بعد الظهر وحتى نهاية السهرة في المساء حضر كل من كانوا في مخيم بربرة من أقارب وجيران للتهنئة بسلامة العودة، لكني افتقدت الكثيرين من زملاء الدراسة والجيران وبعض كبار السن من الجنسين. وكلما كنت أسأل الحضور عن أي منهم يأتي الجواب بالمهنة التي يمارسونها وفي أي بلدة إسرائيلية. لم تكن مهن محترفين، معظمهم عمال زراعة يقضون يومهم واقفين على أرجلهم، بظهور محنية في مهنة الفلاحة التي تركوها بعد الهجرة، ولا يعرف الشبان عنها سوى ما كانوا سمعوه من أهلهم. أحياناً يأتي الجواب بأن فلاناً يعمل في مصنع حربي، ولكن الكثير منهم عمال بناء، يغادرون بيوتهم من الثالثة فجراً حتى يصلوا إلى

أعمالهم عند السابعة، بعضهم ينام لأسبوع هناك كيفما تيسر، وقلة تعود منهكة مساء كل يوم، ولم يعد لديهم وقت لزيارات المجاملة أو صلاة الجمعة لأن عطلتهم هي يوم السبت.

"أم حسن أيضاً تشتغل في إسرائيل؟".

"أم حسن وأم بديع وأم خلف وصبحية العمشة كلهن يشتغلن في إسرائيل". أجابني أبو مروان، ولم أحدِّد مشاعري إذا كنت قد زعلت بسبب عمل أي واحد منهم، أو قد فرحت لانطلاق العجائز في تحقيق المساواة مع الرجال. في الأيام التالية لاحظت أن الكثير منهن أيضاً يشاركن في هدم البيوت ونقل الحجارة لبناء بيوتهن الجديدة في كندا.

البحث عن أسباب الهدوء في الأرض المحتلة هو أحد الدوافع لهذه الزيارة. لقد أخذت الأمور تتضح حتى قبل قضاء الليلة الأولى في فلسطين حيث غالبية السكان لا يكتفون بعدم المقاومة بل إنهم يتعايشون مع الاحتلال ويخدمون اقتصاده عن سابق علم. الإغداق المالي عبر الشغل كان له أثره بشدة على التعليم، ولم يعد أحد يلتزم بسنوات التعليم الإجباري حتى نهاية المرحلة الإعدادية. وكل من يريد، من الأطفال والصبيان، العمل سيجد فرصة في إسرائيل أو في الأعمال البسيطة في الأرض المحتلة والتي تخدم هي الأخرى إسرائيل... زراعة فراولة، خياطة ملابس للمصانع الإسرائيلية، إصلاح المعدات الكهربائية وإعادة بيعها، تكسيات لنقل العمال إلى إسرائيل وإعادتهم. قطاع الزراعة المحلي أصبح يستهلك المياه ويخدم بانتاجها الأسواق الإسرائيلية. كل ذلك يخدم سياسة إسرائيلية لتجويف المجتمع وفك ترابطه وتجهيله وتدميره بالتدريج. إن إحدى الملاحظات الأساسية للزائر مثلي، رؤيته قبول الفلسطينيين لقوة إسرائيل. هنا توجد قناعة أنهم أقوياء يسيطرون على

سياسة واشنطن والعالم الغربي، وأنهم أذكياء ولن ينسحبوا من الأراضي العربية، ولا توجد قوة عربية قادرة على هزيمتهم، وبالتالي كل واحد يريد أن يخدم نفسه ويستفيد من فرص العمل، ويغمض عينيه عن نهاية الطريق الذي تضعه السياسات الإسرائيلية. والذين يخجلون من أنفسهم ويظهرون بعض الانضباط الوطني، يطالبون بدعم بديل للعمل في إسرائيل قبل أن يفكروا في إمكانية المقاومة. حتى المتدينون يجدون الراحة في ظل الاحتلال، فلا رقابة على الخطب في الجوامع، ولا منع لبناء أي عدد من بيوت الله، ولا رقابة على نشاط الجمعيات الخيرية الدينية طالما أن موجة التديُّن الجديدة تهدف إلى تكفير المجتمع ومن ثم إعادته إلى التعرف على الله والإسلام وبعد ذلك، بحسب وعظهم، تنتهي أزمة الاحتلال الإسرائيلي من تلقاء نفسها.

بدت الوالدة بكامل عافيتها ولم تسمع مني وأنا أقبِّلها حين وصولي إلى البيت، أو لاحقاً، أي تعليق، ولا حتى مزاحاً، عن مواصلة الحبل والإنجاب. وحين رأيتها في عمان قبل ثلاث سنوات كانت حاملاً بأختي عفاف، وتوقّف أبي عند اعتراضي قائلاً "لما أطلب مساعدتك في تربيتهم أبدي اعتراضك"، وها هو أصغر إخوتي بعمر ثلاثه أشهر راقد في السرير، المرجيحة، الذي حملنا كلنا واحداً بعد الآخر. لم تحدّ النكبات من رغبة أبي في الإنجاب. في البداية أراد وجود من يرث الأرض في بربرة وبرير وسمسم ليزرعها، وعلى الأرجح أنه الآن يريد منا أن نستعيدها، ولذلك لم يدَّخر جهداً في الإنجاب، لكن عبد المنعم أصبح بالفعل آخر العنقود، إذ انتهت قدرات الوالدة بعد السادسة والأربعين. كانت مرحة وفرحة بوجود ابنها الأكبر زائراً من ألمانيا متميِّزاً بشكل واضح عن أبناء جيله ممن تراهم يومياً يكدون ويذلّون في خدمة

إسرائيل. لم تنس تذكيري بفضلها عليَّ في فهمي للأجانب، فأخذت تسألني إذا كنت أريد التفاح أو الموز أو العنب بأسمائها الإنجليزية. أثناء دراستي الإعدادية علمتها بعض الكلمات بالإنجليزية لأطلب منها أشياء محددة عند الذهاب إلى السوق من دون أن يعرف بقية أهل البيت، فتعود إليهم بمتطلباتهم وتكون قد أخفت عن العيون ما طلبت منها إحضاره، وها هي تتذكر تلك الكلمات. لم أكن جسدياً بحاجة إلى تلك المعاملة الخاصة، عائلتنا ككل كانت في أفضل وضع اقتصادي يتمناه أي شخص، لكن الخصوصية من أمي كانت غير قابلة للتغيير، فأنا ابنها البكر، ولي معها قصص لا تحصى لحمايتها وتأييدها في الصراعات العائلية المعقدة.

ثقة الوالد بي كانت أيضاً مطلقة. قبل النكسة كنت أعرف أين يضع النقود بآلاف الجنيهات المصرية، فيطلب مني إحضار أو إعادة مبالغ معينة إلى مكانها. كنت أمين خزنته، وأعرف أين يخفي المسدس الذي دربني على استعماله في العاشرة من عمري. هذه الثقة يقابلها بالطبع عقاب كاسح ماسح إذا أخطأت.

لم أذكّره طبعاً أثناء تنزّهنا على شاطئ البحر بأي مشكلة قديمة، زرنا سوياً البحر مراراً لنمرّ على الرمال تحت عريشة الكازينو الذي لم يصله التطور بعد، بل خف عدد زواره المنشغلين الآن في جمع الشيكلات الإسرائيلية. قررت أن أعمل كل ما في وسعي لبث بعض الهدوء والطمأنينة في فؤاد أبي. "ماذا كنت تعمل بالضبط في بناء الطرقات؟" سألته وأنا أجلس على الأرض متربعاً بينما هو يتكئ على كرسي قصير من القشّ غرسه في الرمال تحت إبطه وأسند رأسه في راحة يده. حوَّل نظره عني ونظر إلى الأمواج تضرب الرمل الناصع البياض والمطعم ببقايا الزفت التي تصلنا جرّاء تنظيف ناقلات النفط لخزاناتها في عرض البحر.

"لا يهم أي شغل، وإذا ما كان شاقاً أم لا. كنت أنا وعمك صغار، تزوج سيدك بعد موت أمي، ولم تعاملنا زوجته سوى بالضرب والقرص والشتائم".

"الله يسامحها". قلت له. كنت أعرفها إذ عاشت في البيت حتى وفاتها بعد النكسة، وكانت تلقى رعاية من عمتيّ عندما أصابها الشلل والعمى اللذين لم يمنعانها من إطلاق الشتائم والدعاء على من لا يستجيب لها على الفور. كانت تعرفنا من وقع أقدامنا فتنادي بالاسم، وتخص الشتيمة بصاحبها.

"أخذت أحمد وذهبنا سيراً على الأقدام إلى يافا. اشتغلنا مع متعهد إنجليزي في بناء الإسفلت". ضحك أبي وهو يتذكر. "عندما شاهدت زوجة المتعهد عمك أحمد أشفقت على صغر سنه، فأخذته ليساعدها في أعمال البيت وبقيت أنا مع العمال. كان المتعهد يدَّخر لنا الراتب، وبقينا معه لسنوات ولا نأخذ أي نقود معنا عندما نزور بربرة".

"يعني أشطر من عمال اليوم الذين ينفقون دخلهم على الخردة الإسرائيلية".

"يا ابني وضعنا زمان كان غير. أيامنا الواحد كان ممكن يعيش من خير الأرض بدون شراء شيء يُذكر. اليوم كل شيء غالي، والكثير من الأسعار هنا تشابه الأسعار في إسرائيل". بدا لي في تلك اللحظة أنّ أبي متفهم تماماً لضرورة شغل الناس، وإنما غضبه عليهم يعود لأسباب أخرى. "المدرسة فتحت أبوابها في بربرة وعمري 11 سنة لكن سيدك ابراهيم، الله يرحمه، لم يدخلني فيها. كنت أعمل في يافا وأدّخر لتعلم مهنة السواقة. في عهدي كانت السيارات نادرة في فلسطين. بعد أن أخذت الرخصة اشتغلت سواق باص بين القرى. كان الناس مساكين". عاد المختار إلى الضحك

وهو يتذكر أيام صباه. "ذات مرة وصلت القرية، ونزل الركاب فطلبت من أحد الواقفين أن يحضر لي شربة ماء. قفز الأهبل من الخوف وهو يقول ويكرر، هذا بني آدم. كانوا يعتقدون أن السواق حديد زي بقية الباص".

"أعتقد أنك أخذت الرخصة وأنت صغير السن".

"نعم زيفت سني وكبرت نفسي، وأظن أن أستاذ الفحص كان يعرف ذلك. قال لي نصيحة: وإنت تسوق السيارة اعتبر كل الناس مجانين وإنت العاقل الوحيد".

أعرف هذه النصيحة من ذلك الإنجليزي، فقد أسمعني إياها المختار مئات المرات وهو يعلمني القيادة على سيارتي المفضلة، الستروين سي تو، أو البطة. وكان المختار يسميها القداحة، لأنها لا تستهلك الكثير من البنزين، طبعاً مقارنة بالشفرليت فهي كمن يسير على الهواء. واصل أبي روايته التي أعرفها عن ظهر قلب بكل التفاصيل، فقد كانت ذكرياته كلها حديثنا المفضل أثناء الساعات التي كنا نقضيها يومياً طوال الأعوام العشرة الأخيرة من سنوات عمري الخمس عشرة الأولى في رفح. في الإجازات كان يصحبني معه يومياً إلى غزة، وفي كل ليلة كنت أساعده في تحضير القهوة السادة تمهيداً للجلسة اليومية مساءً، حيث يتجمع في الأيام العادية ما لا يقل عن عشرين شخصاً، وغالباً ما يستذكرون أيام فلسطين وبربرة التي كانت طرية في أذهانهم. تسع عشرة سنة فقط فصلت بين النكبة والنكسة.

كنت أقوم بقطع الأخشاب، وأطحن القهوة المحمصة على النار ممسكاً المهباش بكلتا يدي بينما الهاون الفخاري محاط بساقيّ. كانت مساعدتي في الواقع هامشية، لأن هناك أشخاصاً أشداء كانوا يجلبون الخشب ويعملون به السواطير مثل الأخرس شعبان الذي

كان يرعى غنمنا في بربرة، وعندما توجد مناسبات لدى المختار يقوم خلالها بحلّ الخلافات بين أفراد وعائلات يحضرون من عموم القطاع لأنّ خدمة النار والقهوة تحتاج إلى خمسة رجال. كان المختار ينصت لرأي كل من الفريقين، يدلي به واحد يختارونه من بينهم قبل الحضور إلى الجلسة. بعد ذلك يفتح المختار المجال لتعليقات أو أسئلة المحيطين به، ثم يدلي بالحكم الذي لا نقاش حوله ويجب أن ينفذ، طالما أن الطرفين حضرا طوعاً للتقاضي. وإذا وجدت مشكلة مستعصية يرفض أطرافها التقاضي، فإن الوجهاء، والمخاتير في مقدمتهم، يشكلون لجنة تذهب إلى كل طرف على حدة للاستماع إلى آرائهما، ثم يأتون بالطرفين ويضعان الحل. كان الاحترام والتقدير لدور أهل الخير هو سيد المواقف. فإذا استعصت أي قضية فإنها ستصل إلى الشرطة وضباط الإدارة العسكرية المصرية ومحاكم واعتقالات، وهذا ما لم يكن أحد يحبذه أو يريده. حتى قضايا القتل والموت غير المتعمد كانت تحسم من قبل مخاتير القرى والبلدات.

"كيف وضع المخاتير الآن مع السلطات؟". كنت قد سمعت عن معاناتهم بعد الاحتلال الإسرائيلي، ورغبت في سماع رأي أبي.

"بهدلة وجرجرة". قال مع تنهيدة واعتدل في جلسته. "الحاكم العسكري يجتمع معنا مرة كل أسبوع. يوزع الأوامر، ويرفض أخذ رأينا، ويهدد بالعزل. آخر مرة طلب منا أن نعتقل مطلوبين ونحضرهم إلى مركز الشرطة. قلت له يمكنني أن أحضر أياً من أبنائي إذا كان ضمن المطلوبين، ولكن كيف تتوقع منا أن نعرف أين يختبئ أبناء الناس؟ قبل ذلك كان قد طلب منا الإبلاغ عن المقاومين، فقلنا طبعاً. ولما لم يصله أي اسم عاد يقدم لنا أسماء يجمعونها من الجواسيس، الله يخرب بيوتهم". أخرج المختار ختمه

من جيب الديماية وقدمه لي لأتفرَّج عليه. لم يكن ذلك الختم النحاسي المستدير من أيام الإنجليز أو المصريين والذي تزينه في الوسط كلمات منقوشة في دائرة: مختار قرية بربرة. "سحبوا منا الأختام الأصلية بعد أحد الاجتماعات العاصفة وقالوا إننا معزولون. رضينا بالعزل، ثم طلبونا مجدداً وأعادوا التعيين بالفرض وسلمونا هذا الختم التعيس وأخبرنا الحاكم أن المهنة ستلاصقنا حتى الموت". قرأت عليه بالعربية: حسين ابراهيم حسين عدوان - بلوك I معسكر رفح. ومقابلها بالعبرية ما يفترض أنه ترجمة. تبخّرت الصفات التي كانت على الختم الأصلي بالإنجليزي والعربي: مختار، وشطبوا اسم بربرة. تبسم أبي بمرارة وهو يراقب قسمات وجهي.

"كيف سارت أمورك في المانيا؟ أنت لم تحدثني عن تلك البلاد". قال أبي واستدرك بسؤال آخر خطر في باله. "هل يحبون هتلر ويكرهون اليهود؟". تذكرت صوراً قديمة للوالد أيام شبابه في بربرة ويافا. معظم تلك الصور كانت تظهره بشارب قصير وصغير تحت فتحتي الأنف فقط، ولم أسأله قط إذا كان ذلك تحبباً بشارلي شابلن أو بأدولف والألمان الذين كان معظمهم يتزين بمثل ذلك الشارب.

"قال لي صديق الماني يزور الدول العربية كثيراً بأنه شرب أنخاب الشاي في ذكرى هتلر أينما حلّ وحالما يعرفون أنه ألماني". هكذا أجبت عن تساؤل أبي، فهذا بالفعل ما جال في خاطري ثم استدركت للإجابة عن موقف الألمان الآن من هتلر ومكانته في قلوب بني قومه: "ما لاحظته أنهم يتعاطفون مع رؤيته لليهود آنذاك، والذين يعلنون الكراهية الفعلية لهتلر الآن، يشجبون بشدة سياسة إسرائيل الاحتلالية. أهل اليسار من كل الأعمار

يكرهونه، وبقية الألمان يتراوح موقفهم حول سياسته". خطر لي أن المختار ربما غير مطلع على تقسيمات اليسار واليمين. "الشيوعيين. . . " . .

"كانوا دوماً مع الروس ويكرهون هتلر لأنه غزا بلادهم". أكمل والدي الحديث نيابة عني، وتذكرت فجأه أنه كان يعزم الشيوعيين الفلسطينيين إلى بيتنا أواسط الستينيات عندما أرادوا الحصول على دعمه في انتخابات المجلس التشريعي الأول. "هل صرت شيوعي مثلهم؟" سألني المختار.

"يا والدي أنت اشتراكي وشيوعي حقيقي أكثر منهم. عندما أحدث أصدقائي الألمان عن تصرفاتك الاقتصادية مع السائقين وإشراكهم في رأس المال مقابل جهودهم الجسدية، كانوا يقولون أبوك اشتراكي طبيعي". سكت من دون أن يحصل على جواب شاف حول توجهاتي السياسية. "عموماً أهل اليسار الألمان الآن هم أقرب الأصدقاء إلى الشعب الفلسطيني وإلى الشعوب المغلوبة على أمرها، ويدعمون النضال المسلح، وينظمون شعبهم إلى جانبنا. أما أصحاب هتلر فهم يكرهون أهل اليسار ويحقدون على الأجانب في بلادهم".

"أنت مرتاح بينهم، وهذا هو المهم". لم يكن هذا سؤالاً، وإنما استنتاج لم يكن أبي يشكّك في صحته.

"هذا صحيح. دراستي للعلوم السياسية تناسب تطلعاتي، والزملاء في الجامعة والأصدقاء غيرهم لديهم تفهم وتقبل للمزيد من الشرح والتجاوب. الحياة سريعة ومرهقة بين الدراسة والسياسة والعمل لسد المصاريف، ولكن كل شيء متوافر والحمد لله. لقد سددت بعد سته أشهر المبالغ التي استدنتها لفترة ورسوم تعلم اللغة، وقبل مضي عام أصبح عندي سيارة فولكس مستعملة".

تذكرت أنني عثرت على مجموعة كتب لباحث ورحالة ألماني تخصص في القبائل العربية وتاريخها، فأخذت أسرد لوالدي المتمدد على الرمال ما علق بذهني مما قاله الباحث عن عائلتنا. "نحن من سلالة قيس بن مضر العدناني، أي من أصل العرب الأول في نجد. جدنا عدوان حفيد مباشر لقيس. قبل الإسلام وفي مراحله الأولى كانت العائلة مشهورة بين القبائل بتربية الأولاد الصغار. يسلمهم أهلهم لنا في سن العاشرة أطفالاً ويستردونهم بعد فترة شباناً تعلموا أصول الفروسية". انتظر والدي حتى أكمل حديثي من دون أن أستطلع رأيه عبر مراقبة ملامحه. "لا يزال شق كبير من العائلة في السعودية، والبقية خرجت مع عرب الهلالية وتوزعوا في العراق والأردن وسورية. الشق الفلسطيني جاء من الأردن وهناك بعضهم في قرية بتير بالضفة والأغلبية كانوا من أوائل الذين سكنوا بربرة من تلك الأيام".

"أتذكر يوماً في بربرة كنت أتابع العمال أثناء الحصاد، فإذا بأبي حسن شحدة يركض قادماً من القرية مقطوع الأنفاس. سألته الخبر فقال إن جماعة أعيان حضروا إلى القرية وقابلهم عمي حسان أبو عودة وسألهم ماذا يريدون. قالوا له إنهم من عدوان الأردن وجاءوا للتعارف. قال شحدة، الذي كان صغيراً أيامها، إن عمي أبا عودة طردهم، وقال لهم إحنا زهقانين من بعضنا". كانت عيون المختار تلمع وكأن الحدث وقع بالأمس. "ركبت الحمراء فوراً وأطلقت لها العنان حتى لحقت بهم واعتذرت وأقسمت لهم أن الختيار مجنون شوية وهو لا يقصد ما قاله. بالعافية عادوا معي وقضوا ثلاثة أيام في المضافة ولكن العلاقات لم تتطور بعد ذلك على الرغم من تأكدهم أن عمي حسان يقول ما يخطر بباله". ضحكنا كثيراً ونحن نتناول السمان المشوي على الفحم. خطر في

بالي سؤاله عن الفرس البيضاء التي بكت يوم الرحيل عن بربرة، لكنني خفت من أن أنكأ جراحه. كنا وحدنا تحت عريشة من سعف النخيل تمتد من أبواب الكازينو لمسافة عشرين متراً على الشاطئ. لم يعد لدى الناس الوقت للاستجمام في البحر، فكلهم يشتغلون في إسرائيل. قال صاحب الكازينو إنهم يصيدون السمان حتى الآن بالشباك بعيداً عن عيون الجنود الإسرائيليين الذين منعوا الصيد. وبدلاً من نصب الشباك على مقربة من الشاطئ أصبحوا يقيمونها بين أعمدة في مزارع المواصي كي تعلق في داخلها الطيور المهاجرة بعد أن تجتاز البحر فتهبط متعبة في أي بقعة خضراء.

"أنت الآن لا تحتاج لتوصيات مني". قال المختار، فانتظرت أن يُكمل لإسماعي التوصية. "قصص الحمايل والقبايل والتعصب هي سبب البلاوي السابقة واللاحقة، لأنها تمنع تماسك الناس كمجتمع ووطن. أنت تعرف كل قصص الهلالية من روايات عمك حسن الشيخ، وتعرف أنها قتل بعضهم لبعض. ذلك ليس تهويلاً روائياً، ولكن خلافات الحمايل في فلسطين كانت من أسباب النكبة. عائلات تتنافس على الزعامة، وحمايل في المدن والقرى كانت تكره بعضها وتتقاتل على كل شيء. الناس هدأت قليلاً في الهجرة نتيجة للفقر، والآن بعد أن تيسر الشغل للجميع وعادت كثرة الأطفال كنعمة وليس نقمة على أهلهم، الآن كما ترى عنفصوا مرة أخرى. لا يسمعون لثورة ولا لمختار ولا لعالم، كل واحد أبعد أولاده عن التعليم ليجمعوا النقود. أصبحوا عبيداً لشيكلات اليهود، ويتمردون على أي التزام وطني. عليك الاستفادة من فرصة التعليم قدر الإمكان حتى تساعد إخوتك ليتعلموا أيضاً. هذه الحال لن تدوم". لم يقل المختار بصريح العبارة ابتعد عن نغمة العائلات،

ولكن هذا ما أراد أن يوصيني به، وربما استهجن اهتمامي بأصول العائلة والبحث عنها في مراجع المانية.

"البلد راحت في شربة ماء". قال المختار وقد حرك الحديث عن أسباب النكبة مشاعره، "المدن الكبري أخذها اليهود قبل موعد انسحاب الإنجليز الذين قالوا لنا أن ننتظر انسحابهم، ولا نقاتل قبله، ومنعوا العرب من الدخول قبل رحيلهم. ثم قامت الحرب من يوم 15 مايو حتى 11 يونيو، يعني 26 يوماً كان وضعنا فيها أحسن من اليهود. ضحكوا علينا وعملنا هدنة لشهر، وعزز اليهود قوتهم". كان المختار يتحدث وقد انهمرت دموعه من القهر والغيظ، "رفضنا تجديد الهدنة ووقع قتال لعشرة أيام اتضح لنا أنهم استعدوا، وضاعت اللد والرملة ومعهما عشرات القرى في تلك الأيام العشرة، ثم قبلنا بهدنة لثلاثة شهور. هم أحسنوا استغلال الهدنة ونحن جلسنا بانتظار الحلول. في 15 اكتوبر شنّوا الحرب علينا بالطائرات والمدافع، وفي خلال ثلاثة أسابيع أخذوا بربرة والبقية". سكت أبي ولم أنطق بكلمة حتى لا أثير مشاعره مجدداً. خطر في بالي، ومنعت نفسي، من القول إن جيله أضاع ثلاثة أرباع فلسطين في خمسين يوماً من القتال، والجيل التالي أضاع الربع الباقي وأضعاف مساحة فلسطين في خمسة أيام، ولم يستفد من هدنة تسعة عشر عاماً بين النكبة والنكسة، وها هم الشباب يعمِّرون المستوطنات ويخدمون الاقتصاد الإسرائيلي ويضعون الأسس لقرون قادمة من المشاكل.

بعض المزايا التي لم أكتسبها من المختار هي عشقه للسيارات، وللحقيقة هو الذي خلع ذلك من قلبي. كان ينصحني ويلحّ عليّ ويكرِّر أنه يعلمني قيادة السيارات حتى أقود لاحقاً سيارتي الخاصة،

وليس لأصبح سائقاً أرتزق من مهنة القيادة. في يوم الهجرة من فلسطين كان والدي يملك سيارة جيب خاصة، وثلاث شاحنات يتحدث عنها بالاسم. الماك والفولفو والانترنش. صدمة النكبة منعته من الاستفادة من هذه الشاحنات، فأنفق ثمنها في انتظار حل سريع يعيده إلى أكثر من ألف دونم من الأرض كان قد اشتراها في بربرة وسمسم ونعليا وبرير، وما زلنا نملك أوراق ملكيتها باختام حكومة صاحب الجلالة، ملك بريطانيا. ومع تكوين وكالة غوث وتشغيل اللاجئين أصبح المختار سائقاً لباص وكالة ينقل المدرسين بين المدن والمخيمات في قطاع غزة. وبسرعة عاد إلى مهنة السيارات، يشتري المستعمل منها مما تبيعه وكالة الغوث وقوات الأمم المتحدة، ثم يعمل على إيجاد رخصٍ لها ويتاجر بها، أو يُشغلها في الاقتصاد المحلي. سيارات صغيرة وجيبات وسيارات عسكرية وسيارات إسعاف، كل شيء يُشترى ويعاد تصنيعه وتطويره وبيعه في الأسواق المحلية. كذلك اشترك في استيراد عشرات سيارات الأوستن من بقايا الجيش الإنجليزي في قبرص، وقام بإبدال مقودها من اليمين إلى اليسار وتم ترخيصها في غزة. في الستينيات استورد الوالد شاحنات مرسيدس مستعملة من ألمانيا. وطوال هذه الفترة كان يشترك معه من يثق في حسن نيّاتهم وأمانتهم ممن تعلموا قيادة السيارات من أهالي بربرة أو غيرهم. كان يمنحهم ملكية ربع السيارة من دون أن يدفعوا رأس مال، بل لم يسترجع الثمن من رواتبهم، ولكن من أرباح السيارة ومداخيلها. وبسرعة كان السواقون يطورون الشراكة من الربع إلى النصف ثم إلى امتلاك السيارة بالكامل. لم يكن الوالد يخسر من تطبيق هذه الفلسفة الاقتصادية، ويضحك حين نتساءل أمامه عن حكمة هذا التصرف. كان يؤكد إن حب السائق في تسديد حصته يدفعه للإخلاص وكثرة العمل والاهتمام بالسيارة. أما

لو كان سائقاً بالأجرة فقط فإنه سيسرق ويتكاسل ويسبب الأعطال فتكثر نفقات التصليح.

كانت الأسئلة التي توجه إليّ همساً، عن ألمانيا والحياة فيها، طيلة أيام زيارتي، مختلفة عن نوعية ما تحدثت به مع أبي. في اليوم الرابع توجهت إلى غزة لزيارة أبي ماجد، محمد علي عدوان، إذ اتصلت به هاتفياً حتى لا يكلف نفسه عناء السفر إلى رفح، وكان يتشوق لرؤيتي لأسباب عديدة. قبل زيارتي للأهل بشهور أرسل إليّ كمال من بيروت الأوراق الطبية لأخيه أبي ماجد لأعرضها على اختصاصيين في ألمانيا. كانت النتيجة مخيبة لآمال أبي ماجد كون المرض الذي أصابه منذ الشباب هو تصلب عضلات متعاظم مع السنوات ولا يمكن وقف تدهوره. أتذكر أبا ماجد من أيام طفولتي حيث كان يمشي بشكل طبيعي مع بقية الرجال في المناسبات التي أذهب إليها مع أبي. ثم أصبح على العكاز، وهو الآن يستعمل كرسياً متحركاً في البيت، وعند الذهاب لتدريس اللغة الإنجليزية. إنه من الذين تعلموا في مدرسة بربرة وأكمل تعليمه في القدس. لم تكن مهمتي صعبة كثيراً إذ أرسلت إليه وإلى كمال نتيجة ما قاله الأطباء، ولكن بالطبع لا بد من تكرار الحديث بتفاصيله الآن.

وجدت منزله كما عرفته منذ زمن، عندما كنت مع أخوتي الأكبر مني وأبناء العمومة ننام فيه إذا فشلنا في الحصول على مواصلات إلى رفح بعد العروض المسائية لدور السينما التي تنعم بها غزة. تنوع الحديث وابتعدنا بعد وهلة عن الشأن الطبي. سألني عن صحة ما سمع بأن الألمانيات يعملن عاريات تماماً في المصانع لأنه كان حريصاً على معرفة استقامتي في بلاد الجرمان.

"بلادهم باردة جداً ولا تسمح بالتعري التام أثناء العمل. هم طبعاً أكثر تحرّراً من غيرهم في الصيف على الشواطئ. هناك نواد

للعراة ولكنها مخصّصة لروّادها فقط، وليس للجميع". قلت ذلك وأضفت أشياء أخرى من قبيل أن التعري لا يعني الكثير عندهم، وأن البرد هو ما يردعهم وليس بالضرورة الأخلاق بحسب مفهومنا لها.

"لا لا معلوماتي من واحد اشتغل في مصانعهم تؤكد أنهن يشتغلن عاريات". ثم أخرج صورة تؤكد صحة المعلومات.

"الصورة واضحة، ولكن لا منطق فيها، لماذا هن عاريات والرجال غير ذلك؟". لم يكن لديه جواب طبعاً، وكان عليّ التوضيح عبر التلميح بأن الصورة ربما ليست حقيقية تماماً وإنما تركيب فني، أو دعاية من نوع ما، أو اختبار علمي. تقبل الاحتمال، ولكن بعد الإعراب عن ظنه بأن الإنجليز والأميركان أكثر أدباً وحشمة من الألمان.

"ستذهب إلى بربرة طبعاً". أكّدت له ذلك برأسي فأضاف: "كل الذين ذهبوا لم يعودوا بمعلومات تفش الخلق. إنزل عند المدرسة وستراها من الشارع. ثم أدخل إلى الكيبوتز واتجه شمالاً. سيكون على يمينك الخزان ومنزلكم وبابور الطحين ودارنا ودار الشيخ خليل وأبو عودة، وعلى يسارك دار السلطان وغربهم دكان أحمد أبو عدوان ودار أبو نحل وأبو زاهد". كان يشير بيديه ويصور لي المنظر حتى لا أضيع. "وأمامك ستجد الجامع وإلى يمينه البئر ثم البركة ويساره دار حماد وتحتهم دار أحمد ثم المقبرة بعد الجامع وإلى الغرب دار الشريف وسكنة دار يونس ودار الأشقر. وفي الحارة الغربية دار صالحة وعايش ونصار. خذ معك كاميرا وشوف شو باقي من البلد".

"لكنك تعرف أن البلد هدمت ما عدا المدرسة...". تندمت

قليلاً لأنني أذكّره بما يعرف تماماً فأكملت: "ولكني سأحاول البحث عما قلت وسألتقط صوراً إذا سمحت الظروف".

من تجربة المعاناة العاطفية القصيرة التي مررت بها بعد النكسة، أصبح بوسعي الآن أن أتفهم ذلك الحماس في حديث الرجال حين كانوا يسترجعون ذكرياتهم الطرية في فلسطين أثناء جلساتهم الليلية في المقعد، ولم يكن قد مر على النكبة آنذاك سوى بضع سنوات. وها هم الآن يشاهدون بقايا ذكرياتهم، يلمسونها حطاماً، وتفرض الجغرافيا ذاتها على أجسادهم، ولكن السياسة تردع عقولهم. سنوات الطفولة والصبا والمراهقة هي أساس البناء العاطفي لكل منا. فكل شيء مكتسب بعد تلك المرحلة يسهل نسيانه ويمكن تلاشيه من الذاكرة. وإنني على يقين من أن الإنسان يبقى حتى مماته أسيراً لسنوات المراهقة في حياته. هي ذكرياته وهواه وأصله، محط أمله وتطلعاته بالعوده إليها كجغرافيا أو كأسلوب حياة حتى لو أصبح بعد مغادرة ذلك المكان أفضل حالاً ممّا كان. إن الوضع الصعب للفلسطيني والتحديات التي تعترضه تدفعه إلى عناد أسطوري. وفي واقع الحال بوسعي القول إنني من مرافقة أبي اكتسبت في فؤادي ذكرياته عن حياته في فلسطين قبل النكبة، وارتبطت بثوابته.

ترجلت من سيارة حسين السلطان أمام المدرسة واقترحت عليه أن يواصل طريقه إلى يافا وتواعدنا على اللقاء بعد ثلاث ساعات. لم أحبذ أن تتوقف سيارتنا بأرقامها التي تبوح بهويتها أمام كيبوتز مافكيم، وحسين من الناس الذين لا يمكن أن يكونوا إلّا من غزة، وإذا رافقني فلن تطول الجولة. دخلت فوراً إلى مرحاض المدرسة القائم وسط الساحة التي تحولت إلى موقف سيارات أمام المطعم. لم يعد مرحاضاً عربياً وإنما هناك كرسي إفرنجي بمياه خضراء

معطرة. المدرسة تحولت إلى سوبر ماركت صغير ونصفها الآخر، حيث جلست، أصبح مطعم بيتزا. طلبت سندويشاً وقهوة باللغة الألمانية وبالإشارات، وجلست أتأمل سقف البناء حيث قضبان سكة الحديد ظاهرة تماماً. كان أهل القرية قد جددوا بناء المدرسة أثناء ثورة القسام، فخلعوا قضبان السكة لإعاقة التحركات البريطانية، واستفادوا منها لصبّ السطح بالإسمنت.

الباب الشرقي للمدرسة يستخدمه الزوار، والباب الغربي يفضي إلى الكيبوتز المحاط بسياج شائك عالٍ تعززه أبراج حراسة، وتشكل المدرسة، جزءاً من السور. من الباب الغربي رأيت فوراً خزان الماء وبقية بيت من الحجارة والإسمنت، ثم وجدت نفسي في طريق يتجه شمالاً تحيط به بيوت إسمنتية صغيرة أشبه بكبائن السياحة على الشواطئ. لا أثر لأي شيء مما قاله أبو ماجد أو مما ارتسم في مخيلتي من قصص الأهل. وصلت حيث يفترض وجود جامع وخلفه المقبرة، ولم أشاهد سوى السور يعترض الطريق وخلفه ما بدا كحقل مزروع بالفلفل الأخضر الكبير. عدت إلى المطعم ثم غادرت، واستدرت في طريق يتجه غرباً بمحاذاة بيارة برتقال فيها بئر ماء. إلى الغرب من القرية تماماً مررت بشوارع ترابية ضاقت كثيراً جرّاء تضخم الصبار على الجانبين، فكانت تتناغم مع قصص العفاريت التي كانت تظهر لأهالي بربرة. هذه المنطقة ما زالت تضم بعض دوالي العنب الذي أصبح برياً من قلة الاعتناء؛ فهنا كانت الكروم محاطة بالصبار لحمايتها من زحف الرمال، واتصلت المنطقة بسرعة بكثبان رملية تتخللها أشجار الكينا. استلقيت على الأرض، وأنا أنظر إلى الكيبوتز أمامي والذي تفصله عني حواكيرنا وعنبنا المقاوم للإهمال وشريط من الفلفل الأخضر يفصل بين هذه الحواكير وبين السياج. عبثت بالرمال قليلاً، ولشدة دهشتي

وجدت بعض طلقات فارغة لرصاص بندقية كتب على مؤخرتها بالعربية تاريخ عام 1956. أراضي بربرة شرقي الإسفلت كانت تقترب من الطينية، وتنتشر فيها أشجار زيتون وجميز وتمير، ولا يُستفاد منها هي الأخرى الآن في الزراعة. إنَّ مهمات الكيبوتز هي مهمات أمنية من دون أدنى شك، أو أنها كانت أمنية قبل النكسة لمنع التسلل عبر الحدود مع بيت لاهيا وبيت حانون. الآن الكيبوتز شبه فارغ من السكان، فلم يعد هناك خوف من تسلل. الشباب يغزون بلادهم كل يوم قبل طلوع الفجر بساعات، يبدأون أعمالهم في البناء والزراعة قبل أن يستفيق اليهود من نومهم. لا توجد أي رقابة فعلية من رفح وحتى قناة السويس جنوباً، أو حتى رأس الناقورة حيث الحدود مع لبنان شمالاً.

قررت الاستفادة من هذه الزيارة الصيفية للتعرف، قدر المستطاع، على فلسطين بعد ربع قرن من النكبة. اصطحبت الوالدة وبعض الأقارب في رحلات يومية أخذتنا إلى تل أبيب وما تبقى من يافا وعكا وطبريا وبيسان، فطالما أنَّ بيوتنا في بربرة قد أزيلت، فالفرصة سانحة لهم الآن للتعرف على بقية فلسطين، ودخول مدن لم يتمكنوا من رؤيتها أثناء شبابهم قبل النكبة، لكنني أعترف، أنني فشلت في إغراء المختار بمرافقتنا، وإن كنت أحدثه كل مساء عما فعلناه وشاهدناه.

***

المحتويات

شكر وتقدير 9
مقدمة 11
فقلْ لجديد العيش.. 13
بومة بربرة 26
بين امبراطوريتين 40
نساء تل ابيب 55
يهود يافا 67
مختار بربرة 80
بواطي ومناسف 89
بربراوي يا عنب 100
زواج البدائل 112
حتمية الصراع 122
خراب برلين 135
يا ريتهم قسَّموا 145
الجيوش السبعة 163
"رجلنا على رجلهم" 178
خريف بربرة 194
عودة الإرهاب 207

مصارعة العمّات 220
حمير غزة 231
استتباب الأمن 240
نكبة فنكسة... 249
ضياع الأثر 267